الإسلام..

والتحديات المعاصرة

لحضرة مرزا طاهر أحمد

ترجمة: الحاج محمد حلمي الشافعي

الإسلام ..
والتحديات المعاصرة

حضرة مرزا طاهر أحمد
رحمه الله تعالى

ترجمة: الأستاذ المرحوم الحاج محمد حلمي الشافعي

اسم الكتاب : الإسلام .. والتحديات المعاصرة

الطبعة الأولى: ١٩٩٤

طبع في مطبعة "الرقيم"

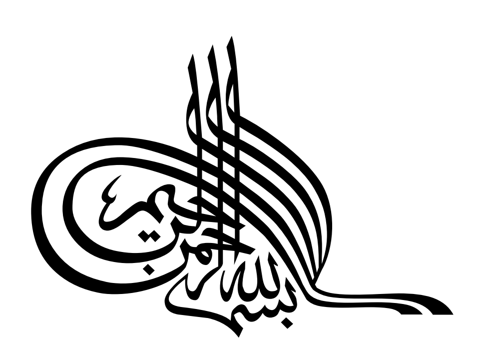
إسلام آباد، تلفورد، سراي، المملكة المتحدة

الرقم الدولي: ١٨٥٣٧٢٥٤٧١

يطلب من:

الشركة الإسلامية المحدودة

AL SHIRKATUL ISLAMIYYAH
ISLAMABAD,
SHEEPHATCH LANE
TILFORD, SURREY
GU10 2AQ
UK


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

أسّس الجماعةَ الإسلامية الأحمدية عام **١٨٨٩**م الإمامُ المهدي والمسيح الموعود .. سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام .. طبقاً لما أنبأ به سيدنا محمد المصطفى ﷺ من بعثته في آخر الزمان.

وفي عام **١٩٨٩م** احتفلت الجماعة بعيد الشكر المئوي، وكان من بين مظاهر الاحتفال هذه المحاضرة – موضوع الكتاب، يوم **٢/٢٤/ ١٩٩٠م** ، ألقاها إمام الجماعة.. سيدنا مرزا طاهر أحمد –الخليفة الرابع لسيدنا الإمام المهدي.

كان الحفل في قاعة مؤتمرات الملكة فكتوريا الثانية بلندن. شهده **٨٠٠** من علية القوم والمثقفين، بينهم السياسيون، والمهتمون بالشؤون العربية، والصحفيون، وأساتذة الجامعات، ورجال التعليم، وعلماء الدين، ورجال وسيدات من شتى التخصصات والمهن.

وقد رحّب بالسّادة الضيوف السيد السفير آفتاب أحمد خان – أمير الجماعة بالمملكة المتحدة، وترأس الجلسة مستر إدوِرْد مورتيمر ، وقدم كلمة الشكر مستر هوجو سمرسن عضو البرلمان.

وأعقب المحاضرة جلسةٌ للسؤال والجواب.

ونظراً لضيق الوقت بالنسبة لهذا الموضوع الواسع.. لم يكن من الممكن توفيته حقّه في جلسةٍ واحدة، ومن ثم كانت معالجته عندئذٍ جزئيةً ومحدودة. ومع ذلك فإن طائفةً ممن شهدوا المحاضرة، وكثيرٌ ممن فاتتهم.. ألحوا على أن ينشر كتابٌ منفصلٌ على أساس من النص الأصلي.

وبعد مراجعة الأصل الإنجليزي، والعمل بمشورة من اقترحوا مراعاة الحساسية الزائدة عند أهل الغرب بصدد بعض الاختلافات الثقافية والتراثية بين الشرق والغرب.. عولج الموضوع ببيان وافٍ يقلل احتمالات سوء الفهم من ناحيتهم.

وفي مرحلة طباعة الكتاب.. تحققت عدة أمور مما أشار إليه إمام الجماعة بفراسة المؤمن، منها مثلا: الجدل حول الانسجام فيما بين الأديان بسبب فتاوى التكفير، والتغيرات الهائلة الناجمة عن انهيار الشيوعية في شرق أوروبا، والدور الجديد لمجلس الأمن، وأثر السياسة الربوية في هبوط الاقتصاد البريطاني ــ هذه المسائل والأحداث وكثير غيرها.. بحثت بصراحةٍ ووضوح خلال المحاضرة.. حتى قيل: ليتها نشرت قبل ذلك بوقتٍ طويل!

ومع ذلك.. فإن الرسالة غير محدودةٍ بزمن، فقد تناولت توقعات مستقبلية حول سلام العالم كله ــ على ضوء تعاليم الإسلام. وإذا كانت الأيام ومجريات الأمور قد أثبتت صدق توقعات الإمام المحاضر.. فلعل من واجب قادة العالم إذن أن يستقبلوا الرسالة في صفحات هذه

المحاضرة بجدية واهتمام، ويبذلوا محاولات صادقة للانتفاع منها بالقدر الأكبر في صياغة نظام العالم الجديد . اللهم وفقهم لهذا . آمين .

لندن ، يوليو **١٩٩٢**

تنويه : روعي في ترقيم الآيات القرآنية أن تكون البسملة هي الآية الأولى من كل سورة ما عدا سورة التوبة.

الناشر

مقدمة المترجم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً كما يحب ربنا ويرضى.. فهو الذي وفقنا لهذا بلا حولٍ لنا ولا قوة. ويشهد ـــ جل شأنه ـــ أن ترجمة مصنفات الجماعة الإسلامية الأحمدية إلى لغة الضاد، وخصوصاً مصنفات إمامها الحالي ـــ أيده الله بنصره العزيز.. لهي من أحب الواجبات إلى قلبي، ففضلاً عن كونه من القربات والوسائل التي يبتغى بها رضوان الله تعالى وشفاعة رسوله الأكرم سيدنا محمد المصطفى ﷺ .. فأداء هذا الواجب في نظري تعبير عن:

ـــ تقدير وإدراك للخير العميم الذي في التراث الإسلامي كما يُرى من منظورٍ أحمدي.. وينبغي أن يعرف به كل إنسانٍ على هذه الأرض.

ـــ حب ووفاء لسيدنا محمد ﷺ .. فكل كنوز العلم والمعرفة التي أحياها الإمام المهدي هي من بحر المصطفى الفياض المتجدد إلى يوم القيامة. ولعل العرب هم في نظري أولى الناس بالمشاركة فيها.. لأنهم أول من حملوا كنوز سيدنا المصطفى وزينوا بها الدنيا، ثم ضاعت منهم أو ضيعوها.. فلا أقلّ من أن نضعها في متناول أيديهم.

ـــ حب ووفاء للعرب.. أهلي وعشيرتي، ليس من منطلق النعرة القومية.. وإنما لأن "حب العرب من الإيمان" كما قال خير العرب والعجم ﷺ . ويقتضي الحب والوفاء أن نقدم لهم أحلى وأحسن ما

عندنا بلسانهم الشريف.. لعله يكون بلسماً شافياً لعلَلهم ـــ وما أكثرها! عسى الله تعالى أن يعجل شفاءهم، ويعيد لهم أمجادهم الإسلامية، ويجعلهم مرةً أخرى خير أمةٍ أخرجت للناس.. وقد كانوا روادها وبُناتها.

وقد بذلت ما في وسعي لنقل معاني الكتاب بأسلوبٍ أرجو أن يكون سهلاً واضحا. فإن وُفّقت فالفضل من الله تعالى، ثم الشكر لمصنّفه الذي كلفني بترجمته. أمّا إذا كان ثمة غموضٌ أو ضعفٌ فالذنب ذنبي، والله غفورٌ رحيم. ولست بصدد تقريظ كتاب صنفه إمامي وأستاذي ومرشدي، بل يكفي قول الله تعالى: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ويضل الله الظالمين. ويفعل الله ما يشاء) سورة إبراهيم: ٢٨

نفع الله أبناء وطني بكل خير، وأعاننا على إتحافهم بكل خير. ونصر دينه وسنة حبيبه المصطفى وجعلنا من حزبه وخدامه. آمين .

لندن ١٩٩٤

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم* الحمد لله رب العالمين* الرحمن الرحيم* مالك يوم الدين* إياك نعبد وإياك نستعين* اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾(آمين)

مستر إدوارد مورتيمر رئيس المجلس،

الضيوف الأجلاء، السيدات والسادة:

دعوني أعبر لكم عن مشاعر الامتنان العميقة لحضوركم هذا اللقاء الثقافي. واسمحوا لي أن أعترف بأن الخطاب الذي سوف ألقيه يضعني أمام اختبار عظيم، فهو موضوعٌ واسع، أحسّ إزاءه بالرهبة حقا. ولنشرع في تناول الموضوع بطرح سؤالين أساسيين:

- ما هي التحديات المعاصرة؟
- وما هي تلك التحديات المعاصرة التي يمكن أن يتصدى لها الدين؟

افتقاد السلام

إن أشدّ العلل خطورةً في عالم اليوم هو فقدان السلام. وفي عالمنا المعاصر وصل الإنسان إلى مستوى إنجاز مادي رفيع، أتاحه تقدم العلم والتكنولوجيا. وقد تم له ذلك في كل مجال لمتطلباته المادية بخطى تخلب اللب.

ولا شك أن قطاعات المجتمع البشري الأسعد حظاً والمعروفة باسم العالم الأول أو العالم الثاني.. لها النصيب الأعظم من ثمرات هذا التقدم في الزمن الحالي. ولكن العالم الثالث أيضاً انتفع منها إلى حد ما. لقد نفذت أشعة التقدم حتى وصلت إلى الشقوق الداخلية في أحلك المناطق.. حيث لا يزال قطاع من المجتمع الإنساني يعيش في الماضي البعيد. وبالرغم من ذلك فليس الإنسان سعيدا ولا قانعا. هناك تزايد مستمر في مشاعر القلق والخوف والتوجّس، وعدم الثقة بالمستقبل، فضلا عن الاستياء من ميراث الماضي.

هناك بعض العناصر الهامة التي تتحدى طبيعة العالم المعاصر وتولد استياءً عميقاً في الإنسان.. سواءً من ناحية ماضيه أو حاضره، وتؤثر على وجه الخصوص تأثيراً قوياً في تشكيل الفكر لدى الأجيال الشابة. إن الإنسان يبحث عن السلام.

وكلمة"الإسلام" تعني حرفياً "السلام". وفي هذه الكلمة المفردة تنعكس كل تعاليم الإسلام ومواقفه بأعظم جمالٍ وإيجاز. الإسلام دينُ سلام.. تكفل تعاليمه السلامَ في كل مجال لاهتمامات الإنسان وطموحاته. ولخطاب اليوم، صنَّفتُ بعض المجالات التي يحتاج فيها عالمنا المعاصر إلى أنوار الهداية، وهي:

١) السلام والانسجام فيما بين أهل الديانات.

٢) السلام الاجتماعي على وجه العموم.

٣) السلام الاجتماعي من الزاوية الاقتصادية.

٤) السلام الاقتصادي.

٥) السلام القومي والدولي.

٦) السلام الفردي.

(١)

السلام والانسجام فيما بين أهل الديانات

ونبحث في هذا المجال المسائل التالية:

١ــ القيم الدينية صارت فضول كلام.

٢ ــ عالمية النبوة.

٣ ــ الأنبياء سواسية.

٤ ــ هل يمكن أن تختلف الرتبة وإن تساوت المرجعية؟

٥ ــ لا يمكن لدينٍ ما أن يحتكر الخلاص.

٦ ــ تعزيز الانسجام والاحترام المتبادل بين الديانات.

٧ ــ مفهوم العالمية.

٨ ــ الإسلام دينٌ عالمي.

٩ ــ وسيلة الصراع: لا إكراه.

١٠ ــ البقاء للأصلح.

١١ ــ حرية الكلمة.

١٢ ــ الحرية والتحرير في المحيط العالمي المعاصر.

١٣ ــ التجديف.

١٤ ــ التعاون فيما بين أهل الديانات.

١٥ ــ خاتمة.

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ (سورة فاطر:٢٥)

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (سورة المائدة : ٧٠)

القيم الدينية أصبحت فضول كلام

إن من يلقي نظرة فاحصة على المشهد الديني العام لا يصعب عليه أن يلاحظ الموقف المتناقض الذي يكتنف عالم الدين اليوم؛ فهو يفقد إحكام قبضته على الأمور بوجه عام، ومع ذلك نجده في نفس الوقت يشدّدها في نواح مختلفة في بعض قطاعات المجتمع. وفي كل الأديان تقريبا.. يبدو أن هناك تأرجحاً قوياً إلى الوراء في اتجاه العقائد، فهو اتجاه رجعي متزمت.. يتسم بصرامة القرون الوسطى مع ضيق صدر لا يطيق احتمال الرأي الآخر.

أما على الجانب الأخلاقي فالدين في تراجع، والجريمة في تصاعد جامح، والحقيقة تسارع نحو الاختفاء، والمساواة وتحرِّي العدالة على حافة الانقراض، وهناك تجاهلٌ قِبل مسئولياتهم نحو المجتمع، وتنال مكاسب الفردية الأنانية مزيداً من القوة حتى في بلادٍ ترفع شعارات التديّن. كل هذه، بالإضافة إلى مساوئ اجتماعية أخرى.. علاماتٌ تشير بوضوحٍ إلى أن نظام اليوم أصبح مجتمعاً متدهور الأخلاق. وإذا كانت القِيَمُ الأخلاقية لأي دينٍ تشكل حياة الدين وروحه.. فإن الخنق المتواصل لهذه القيم يسوقنا إلى نتيجة حتمية مؤداها أنه بينما ينتصب جسد الدين واقفا.. فإن روح الدين تغادره سريعا. وهذا الذي نلحظه اليوم في عالم الدين، أو ما يسمونه الصحوة الدينية.. أصبح بمثابة نشور الأموات لتتجول بين القبور، ولكنها أجساد بلا أرواح.

وفي مناطق أخرى من العالم.. قد خيم ركود طويل، وانعدمت فيها التطورات المثيرة.. فتولَّد الملل عند ذوي الميول الدينية.. إذ لم تحدث بعدُ تلك الأمور الإعجازية التي يتوقعونها، و لم تتجسد أمامهم الظواهر الخارقة للطبيعة فتتدخل في أحداث الكون بما يغير لهم العالم بحسب ما يحبون. إنهم يودُّون رؤية النبوءات العجيبة تتحقق كي تبث الثقة في إيمانهم.. و لم يحدث شيء من ذلك بعد. ويقع هؤلاء القوم فريسة سهلة لمذاهب جديدة تزدهر في تربة حبوطهم وفشلهم. وتولِّدُ فيهم نزعة الفرار من الماضي رغبةً لسدّ الفراغ بأي شيء جديد.

وفضلا عن هذه الاتجاهات المدمِّرة، هناك ظاهرة أخرى مزعجة للغاية، لها صلة بإحياء العقائد الدينية، وتهدد سلام العالم. فمع انتشار هذه العقائد يتولد جوٌّ مسموم، يفتك بروح الحوار الصّحيح، ويحُول دون انسياب الأفكار. وكأن ذلك كلَّه لم يكْفِ ذئاب السياسة المجردين من الضمير، المستعدين دائماً لاستغلال المواقف المتفجرة لمصالحهم الخاصة.. فقاموا بمحاولاتٍ خبيثة لتلويث صورة الدين نفسه. ثم هناك خصومات وثارات تاريخية بين الديانات تلعب دورها. وبالإضافة إلى ذلك.. هناك ما يسمى " الإعلام الحر "، الذي تسيطر عليه عموماً أيدٍ خفية.. لا تدَعه ينطلق حُرًّا ليؤدي دوره بحيادٍ تام في شؤون العالم. ولذلك نجد أنه عندما ينضم الإعلام إلى معركة تشويه صورة الدين المنافس في بلدٍ ينتمي معظم أهله لدينٍ ما ـــ يصبح المشهد معقّدا للغاية. ولا شك في أن الدين نفسه يكون أول ضحايا هذا الشجار.

وأراني في الحقيقة أشعر شعوراً عميقاً بالقلق والانزعاج نحو ما يحدث اليوم في عالم الدين. هناك حاجةٌ ماسةٌ وضرورة عاجلة لأن تقوم الأديان بجهدٍ حقيقي صادق لإزالة ما بينها من سوء فهم. وأعتقد أن الإسلام قادرٌ على تقديم بضاعته وخدماته بامتيازٍ وبكيفيةٍ يمكن أن تفي تماماً بمطالب الإنسانية وحاجاتها.

ولكي يسْهل فهم هذا الموضوع، زدته تصنيفًا إلى أقسام مختلفة. فمثلا أرى أنه لكي يكون الدين مُعِيناً على توطيد السّلام في العالم، قادراً في نهاية الأمر على توحيد البشر.. فمن الضروري له أن يتقبل بنفسه "عالمية الدين" .. بمعنى أن بني البشر أيًّاً كانت طوائفهم : لوناً أو عنصراً أو إقليماً.. كلهم جميعاً خلْقٌ لخالقٍ واحد؛ ومن ثَم فهم مخوَّلون على حد سواء لتلقي التعليم الرباني ـــ هذا إذا كانت التعاليم الإلهية تُعطى لأي قطاع من المجتمع البشري. ويتحاشى هذا الرأي مفهومَ احتكار الحقيقة عند أي دين.

الأديان جميعاً.. أيًّاً كانت مسمياتها أو معتقداتها أو موقعها أو عصرها.. فلها الحق في أن تدَّعي لنفسها قسطاً من الحقائق الإلهية. كما أن على المرء الاعتراف بأن الديانات برغم ما بينها من اختلافات في المعتقدات والتعاليم.. فإنها ـــ في أغلب الظن ـــ من أصلٍ واحدٍ مشترك. إن السلطان الإلهي الذي جاءت منه رسالة الدين في أي منطقة من هذا العالم لا بد وأن يكون هو نفسه الذي اعتنى بالحاجات الدينية والروحانية لسائر البشر في مناطق أخرى من العالم وعبر كل العصور.

هذه هي رسالة القرآن الكريم.. كتاب الإِسلام.

الشمولية العالمية للنبوة

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد:

﴿ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ (سورة النحل: **٣٧**)

.. لقد أرسل الله إلى كل أمةٍ رسولاً بتعاليم عبادته، واجتناب الشر. ثم يعلن القرآن الكريم لنبي الإسلام ﷺ أنه لم يكن النبي الأوحد في هذا العالم فقال:

﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصُص عليك﴾(سورة غافر: **٧٩**)

ويذكِّر القرآن الكريم نبي الإسلام ﷺ قائلا:

﴿إنْ أنت إلا نذير، إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا، وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذير﴾ (سورة فاطر:٢٤-٢٥)

وبالنظر إلى ما سبق، يتبين بوضوحٍ أن الإسلام لا يحتكر الحق لنفسه ويستبعده من سائر الديانات، ولكنه يعلن بلا قيدٍ أو شرط.. أن الله تعالى - في كل العصور، وفي كل أنحاء الأرض - لم يزل يرعى حاجات البشر روحيا ودينيا.. ببعث رسله الذين يبلغون رسالة السماء إلى أقوامهم.

الأنبياء سواسية

وينشأ هنا تساؤل: إذا كان الأنبياء المرسلون إلى شعوب العالم بهذه الكثرة.. فهل لهم نفس المرجعية الإلهية ؟

يقول القرآن الكريم بأن الأنبياء جميعاً من عند الله تعالى، وهم فيما يختص بمرجعيتهم الإلهية.. يمارسون سلطانهم على قدم المساواة أصالة وقوة.. ولا حقّ لأحدٍ في أن يفرّق بين نبي منهم وآخر.. وفيما يتعلق بصدق رسالتهم.. فكل الأنبياء متساوون. وهذا الموقف من جانب الإسلام نحو الأديان الأخرى ومؤسسيها والأنبياء التابعين لهم.. يمكن أن يكون عاملاً هاماً للتوحيد والربط بين مختلف الديانات. ويمكن الاستناد إلى مبدأ تساوي الأنبياء في أصالة وحْيِهم كقوةٍ شديدة التأثير في وصل شتى الديانات إلى بعضها البعض. وهذا يُحول موقف العداء نحو وحي أنبياء الديانات الأخرى إلى احترام وتقدير. وهذا أيضاً موقفٌ واضحٌ ومنطقي مستمدٌّ من القرآن الكريم حيث يقول :

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون. كل آمن الله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا﴾(سورة البقرة: ٢٨٦)

.. فنبي الإسلام ﷺ والذين آمنوا به يؤمنون بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، ويعلنون أنهم لا يفاضلون بين هؤلاء الرسل، ويقرُّون بالسمع والطاعة لهذه المبادئ والتعاليم القرآنية.

ويتردد الموضوع نفسه في آياتٍ أخرى من القرآن الكريم، منها مثلا:
﴿إن الذين يَكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا. وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا* والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم. وكان الله غفورا رحيما﴾(سورة النساء : **١٥١ــ١٥٣**)

هل يمكن أن تختلف الرتبة وإن تساوت المصداقية؟

إذا كان الأنبياء جميعاً سواسية في مصداقيتهم.. فهل يلزم من ذلك أن يتساووا في المرتبة؟ والجواب أنه من الممكن تفاوت الأنبياء من وجوهٍ عديدة في صفاتهم الشخصية وطريقة أدائهم لمسئولياتهم. كما يختلف بعضهم عن بعضٍ فيما يتعلق بقربهم من الله، وفي منزلتهم النسبية عنده جل وعلا. ويتأكد هذا الرأي بدراسة تاريخ الأنبياء كما يرويه الكتاب المقدس والقرآن المجيد والأسفار الأخرى.

ويقول القرآن الكريم بطريقة لا تسبب إزعاجاً لسلام الإنسان أن هناك فروقا في المرتبة، كما يعلن القرآن الكريم نفسه أنه لا فرق بين الأنبياء جميعا فيما يتعلق بمصداقيتهم كرسلٍ من عند الله.. فيعلن:
﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض. منهم من كلّم اللهُ ورفع بعضَهم درجاتٍ﴾(سورة البقرة: **٢٥٤**)

ومع التسليم بهذه القضية يتساءل المرء: من هو الأعلى مرتبةً بين الأنبياء؟ وهذه مسألة حساسة، ولكن لا يسع المرء أن يغمض عينيه عن أهمية هذا السؤال.

يدعي المنتسبون إلى الدين – في أغلب الأديان – أن مؤسس دينهم يتبوأ المقام الأسمى، ولا يمكن لسواه أن يجاريه في نسبه وجلاله وصلاحه وشرفه، وفي كل الصفات التي تدخل في تكوين شخصية النبي. فهل يدعي الإسلام أيضاً بأن محمداً – نبي الإسلام الأكرم ﷺ – هو الأعلى درجةً بين الأنبياء جميعاً؟

اللهم نعم. يعلن الإسلام بوضوحٍ لا لبس فيه ولا غموض عن تفرُّد سيدنا محمد ﷺ وتفوقه في صفاته على كافة أنبياء الله تعالى في كل زمانٍ ومكان. ومع ذلك فهناك فرقٌ واضحٌ جداً بين الإسلام وسائر الديانات في موقفهم من هذه الدعوى.

فأول شيءٍ ينبغي أن نضعه في اعتبارنا هو أن الإسلام وحده – بعكس الديانات جميعا – يقر بشمولية النبوة. فعندما يدعي اليهود – إذا ادعوا – بأن موسى كان أعظم النبيين، فإنهم لا يقارنونه ببوذا أو كرشنا أو يسوع أو محمد ﷺ .. ذلك لأنهم ينكرون على كل مؤسس الديانات العظام دعاواهم، ويجحدون أصالتهم واستحقاقهم القبولَ والتصديق. فلا يدخل أحد في قائمة أنبياء اليهود سوى المذكورين في أسفار العهد القديم، بل واستبعدوا احتمال وجود أنبياء آخرين في أي مكان آخر. وعلى ضوء موقف اليهود هذا.. لا يُعتبر ادعاؤهم بتفوق نبي يهودي

من قبيل ادعاء الإسلام.. إذ أن العقيدة اليهودية لا تعترف بوجود أي نبي خارج نطاق كتابهم المقدس. وهذا بالضبط موقف الديانات الأخرى كالبوذية والهندوسية والزردشتية وغيرها.

وهناك فرقٌ آخر جدير بالذكر.. فهم عندما يتحدثون عن أنبيائهم ترى أنهم لا يشيرون دائماً إلى شخصياتهم الدينية المقدسة بوصفهم أنبياء.. فمفهوم الأنبياء والمرسلين كما تفهمه اليهودية والمسيحية والإسلام لا تشارك فيه تماما معظم الديانات الأخرى. وبدلا من ذلك فإنهم يعاملون مؤسس ديانتهم وصلحاءهم بوصفهم شخصيات مقدسة أو تجسُّدات للإله، أو الإله نفسه، أو أحيانا ما يقرب من ذلك. وفي هذا الصدد ربما ينبغي فهم يسوع المسيح على أنه استثناء من وجهة النظر المسيحية.

ولكن كل هذه المسميات.. من آلهة وتجسُّدات وأبناء آلهة.. ليسوا في نظر الإسلام إلا مجرد أنبياء ورسلٍ أَلَّهَهُم أتباعهم بعد وقتٍ طويل لاحق. والواقع – وبتحديد أكثر – فإن تأليه الشخصيات المقدسة في مختلف الديانات هو في تقدير الإسلام عملية شديدة التدرج، ولم تحدث في زمن الجيل المعاصر للنبي. ولسوف نتحدّث عن ذلك فيما بعد.

وعندما يدعي الإسلام بأن مؤسسه ﷺ هو الأعظم بين الأنبياء.. فإنه يأخذ في الاعتبار الشخصيات المقدسة لدى ديانات العالم بالمفهوم المشترك بين اليهودية والإسلام. ولا بأس من تكرار القول ههنا بأن الإسلام يعتبر مؤسسي الديانات السماوية مجرد بشر اصطفاهم الله تعالى

إلى مرتبة النبوة. وليس هناك استثناء لهذه الظاهرة الكونية. فمثلا يقول القرآن الكريم :

﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ (سورة النساء :٤٢)

وبعد هذا التوضيح الجوهري نتوجه لدراسة مكانة نبي الإسلام ﷺ كما بينها القرآن المجيد. وأبرَزُ دعوى يُجمع المسلمون عليها بالنسبة لنبي الإسلام ﷺ واردة في هذه الآية المشهورة:

﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتَمَ النبيين. وكان الله بكل شيءٍ عليما﴾(سورة الأحزاب : ٤١)

ولكلمة (خاتَمْ) في اللغة العربية دلالات عديدة، ولكن جوهر لقب "خاتم النبيين" – بلا أدنى ريب – أنه الأفضل؛ الأسمى؛ صاحب الكلمة الأخيرة؛ المرجع النهائي؛ الذي يجمع في نفسه كمالات الآخرين؛ ويشهد على صدقهم. (قواميس : لين؛ أقرب الموارد؛ المفردات للراغب؛ الزرقاني)

وهناك آيةٌ أخرى تتحدث عن امتياز مؤسس الإسلام ﷺ وتعلن أن تعاليمه هي الكاملة والنهائية فتقول:

﴿اليوم أكمَلْتُ لكم دينَكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا﴾(سورة المائدة: ٤)

ويتضح من هذه الدعوى أن نبي الإسلام ﷺ يتبوأ الدرجة العليا والمقام الأسمى بين جميع الأنبياء الذين أتوا أقوامهم بشريعة، والذين قدموا لهم تعاليم كاملة..

وتطويرا لهذا الموضوع صدر تأكيدٌ لمؤسس الإسلام ﷺ في كلماتٍ جازمة حاسمة.. أن الكتاب الذي أوحِيَ إليه ـــ أي قرآن المجيد ـــ سيبقى دائماً محفوظاً مُصاناً من التحريف. وهكذا لا تقتصر دعوى الكمال على التعاليم وحدها.. بل وتتضمن أيضا بقاءها ـــ نقية خالية من أي فساد أو تحريف ـــ بنفس ألفاظها التي نزل بها الوحي على مؤسس الإسلام ﷺ . وفي تاريخ القرون الأربعة عشر الماضية لشهادة وافية على صدق هذه الدعوى. وإليكم بعض الآيات في هذا الصدد:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(سورة الحجر:١٠)

﴿بل هو قرآنٌ مجيد * في لوح محفوظ﴾(سورة البروج: ٢٢-٢٣)

وبالنظر إلى ما أسلفنا يتضح بجلاء أن القرآن يعلن أن نبي الإسلام هو الأعظم، وأنه النبي الأخير والنهائي من الأنبياء المشرِّعين الذي لا تنفك مرجعيته باقيةً حتى آخر الزمن.

وهنا قد يتساءل المرء، ويبدو العجب في نظراته.. أليست هذه الدعوى بسمو مؤسس الإسلام ﷺ حَرِيَّةً بخلق سوء الظن أو سوء الفهم لدى أتباع الديانات الأخرى ؟

ولكي يمكن التوفيق بين هذه الدعوى وبين موضوع هذا الخطاب، وعلى الأخص دعواي بأن الإسلام يضمن السلام في كل

مجالات الاهتمام البشري ـــ وليس الدين بأقلها أهمية ـــ كان هذا التساؤل في ذهني عندما فصَّلت هذه الدعوى بشيءٍ من الاستفاضة. ويمكن الجواب بأكثر من طريقة على هذا التساؤل بما يرضي العقل المتسائل غيرَ المتعصّب.

لقد ذكرتُ من قبل أن أتباع كثيرٍ من الديانات يقولون بمثل هذه الدعوى. وأصحاب البصيرة يحققون المسائل النسبية دون أن تستفزهم الدعوى نفسها على نحوٍ غير ملائم. والدعوى في حد ذاتها لا تجرح مشاعر أتباع الديانات الأخرى التي لها دعاوى مماثلة في الاتجاه المضاد.

ولكن الإسلام يتقدم خطوة أخرى بتعاليم التواضع واللياقة.. فيعلم أتباعه ألا يعبِّروا عن اعتقادهم بسمو مؤسس الإسلام ﷺ بأسلوبٍ غير حريص يجرح مشاعر الآخرين. ويبرز الحادثان التاليان كمنارات شامخة تلقي الضوء على هذه النقطة:

١- اشتبك أحد صحابة نبي الإسلام ﷺ في مناقشة حادة مع تابع وفيٍّ للنبي يونس (ذي النون عليه السلام) ، وادّعى كل طرفٍ منهما أن نبيّه هو الأعظم والأفضل. ويبدو أن المنافس المسلم قد اشتد في دعواه بما جرح مشاعر الآخر.. فذهب هذا إلى محمدٍ رسول الله ﷺ شاكياً تصرُّف الصحابي. فقام النبي ﷺ وخاطب الجماعة الإسلامية عامة وأصدر تعليمه:

"لا تفضّلوني على يونس بن متى." (البخاري، كتاب الأنبياء)

ولقد تحيّر بعض مفسري الحديث النبوي في هذه العبارة.. لما يبدو فيها من خلاف مع دعوى القرآن الكريم بأن النبي محمدا ﷺ أعظم الأنبياء جميعاً وليس أفضل من يونس وحده. وفَاتَهم أن النبي ﷺ لم يقل في حديثه هذا بتفضيل يونس عليه، ولا بتفضيل نفسه على يونس، بل قال: لا تعلنوا أفضليتي على يونس (عليه السلام) بما يجرح مشاعر الآخرين. والمفهوم الوحيد الذي يمكن استخلاصه من هذا الحديث هو أن النبي ﷺ كان يعلِّم المسلمين درسا في اللياقة والتهذيب.. فينبغي عليهم عدم التورط في التفاخر والمباهاة، ويجب عليهم تجنب الحديث عن مكانته ﷺ بما يؤذي مشاعر غيرهم، إذ أن مثل هذا السلوك ضار بقضية الإسلام؛ فبدلاً من اجتذاب القلوب والعقول إلى رسالة الإسلام.. يؤدي إلى نتيجةٍ معاكسةٍ تماما.

٢ــ ويتأيد هذا الموقف من جانبِ النبي ﷺ عندما دخل رجلٌ مسلمٌ آخر في جدالٍ مماثل مع أحد اليهود، وادعى كل منهم بتفوق زعيمه الروحي، ومرةً ثانيةً كان المعارض غير المسلم هو المبادر إلى رفع شكايته إلى النبي ﷺ ضد الرجل المسلم. وقد استجاب رسول الله ﷺ بتواضعه المعهود وحكمته الدائمة، وعلَّم المسلم نفس الدرس.. درس اللياقة والذوق.. قائلاً:

"لا تفضلوني على موسى"(البخاري، كتاب الأنبياء).

وزبدة هذا القول النبوي الكريم أن الله تعالى هو الذي يقرر ويعلن المقام النسبي لجماعة الأنبياء في قربهم منه تعالى. فمن المحتمل تماماً أنه في زمن

معين وفي محيط دينٍ معين.. يبدي الله تعالى محبته لنبي ذلك الزمن بعباراتٍ قويةٍ ويعلن أنه الأفضل، ومع ذلك يمكن أن تكون صيغ التفضيل هذه عباراتٍ نسبية ذات مدلول محدود زمنا ومكانا. ومن اليسير أن يؤدي هذا إلى أن يعتقد أتباع تلك الشخصية المقدسة أنه الأفضل والأقدس في جميع العصور. وينبغي ألا يكون في مثل هذا الاعتقاد الصادق إساءة للآخرين. يقتضي الموقف المتحضر ألا يُستاء من هذه المسائل ولا يتولد عنها خلافٌ بين أهل الديانات. وهذه بالضبط هي الفحوى الحقيقية لهذه العظة من نبي الإسلام الكريم ﷺ. ولو انتهجت الديانات كلها مبدأ التواضع واللياقة هذا لكان الجدال والحوار الديني مصدر خير للأديان.

الخلاص ليس حكرًا لدينٍ واحد

ومسألة الخلاص هذه ــ مهما بدت بريئة في ظاهرها ــ إلا أنها ذات أثر خطير على سلام العالم الديني. فعندما يطلب دينٌ ما للباحثين عن التحرر من الشيطان ونيل الخلاص أن يهرعوا إلى حماه حيث يجدون النجاة والتحرر الأبدي من الخطيئة ..فهذا شيء أما الشيء الآخر فهو أن يعلن هذا الدين في النّفَس التالي أن الذين لا يأتون إليه بحثاً عن الخلاص ملعونون كافة إلى الأبد ،وأنهم مهما فعلوا لاكتساب مرضاة الله ومهما أحبوا خالقهم ومخلوقاته، ومهما عاشوا في طهر وورع.. لا مناص لهم من حكم جهنم الأبدي. وعندما يعلن مثل هذا الرأي

الصارم المتعصب المتشدد بأسلوب استفزازي ــ كما هي عادة المتحمسين الدينيين ..فالمعروف أن ذلك يؤدي لأحداث شغب عنيفة .
الناس أشكال وألوان من كل نوع : منهم المتعلمون والمثقفون والمهذبون. وهكذا أيضاً تكون ردود فعلهم مهذبة نحو ما يصدر ضدهم من إساءات ولكن أعدادا كبيرة من ذوي الميول الدينية – متعلمين أو أميين –يكونون أشد ميلاً إلى ردّ فعل عنيف إذا جرحت أحاسيسهم الدينية. ويبدو لسوء الحظ أن هذا هو موقف رجال الدين في كل ديانات العالم تقريباً.حتى أن كثير ا من علماء القرون الوسطى يعرضون الإسلام على أنه الباب الأوحد للخلاص ؛بمعنى أنه منذ شروق الإسلام..قدر لجميع بني آدم الذين عاشوا وماتوا خلال نطاق الإسلام أن يحرموا من الخلاص.

ولا تقدم المسيحية وجهة نظر مختلفة. وكذلك حال كل ديانة أخرى بحسب علمي. ولكن دعوني أؤكد للسادة الحاضرين أنه ليس هناك ما يبرر نسبة هذا الرأي الضيق المتعصب إلى الإسلام. و بهذا الصدد يروي لنا القرآن قصة مختلفة تماما.

الخلاص – طبقا للقرآن الكريم – لا يمكن أن يحتكره أي دين واحد في هذا العالم. إذا نزل الوحي بحقائق جديدة، وأشرقت عهود من النور.. فالذين يعيشون في جهالة ولا يد لهم فيها، والذين هم على وجه العموم يحاولون الحياة في صدق – وإن ورثوا تراثا من الأفكار الباطلة.. أولئك

جميعا لن يحرمهم الله تعالى من الخلاص. وتتضح هذه النقطة وتزداد تفصيلا من الآيات التالية:

﴿لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه، فلا ينازعُنّك في الأمر وادعُ إلى ربك. إنك لعلى هدى مستقيم﴾(سورة الحج: ٦٨)

..لقد جعلنا لكل قوم طريقا للعبادة، فدَعْ جدلهم في موضوع عبادتك، وادع الناس إلى طريق ربك.. فإنك يقينا على طريق الهدى الحق.

وفي سورة أخرى يعلن القرآن الكريم نفس السياق فيقول:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (سورة المائدة: ٧٠)

وأود أن أشير هنا إلى أن وصف " أهل الكتاب " وإن كان ينطبق على اليهود والنصارى.. إلا أنه يحتمل تطبيقا أوسع. ففي سياق تأكيد القرآن ﴿وإن مِّن أمة إلا خلا فيها نذير﴾، وفي آيات أخرى سبق ذكرها.. لا نجد أمامنا مجالا للشك في أن أهل التوراة والإنجيل ليسوا وحدهم أهل الكتاب، ولكن هناك بلا ريب كُتُبا أخرى نزل بها الوحي لخير بني البشر. فكل الديانات التي تدعي بأنها مؤسسة على الوحي الإلهي تدخل ضمن أهل الكتاب.

ثم يستخدم القرآن كلمة 'صابئ' بشكل يزيد الفكرة وضوحا ويطرد أي شك. فكلمة 'صابئ' استخدمها العرب للدلالة على كل أتباع

الديانات غير العربية وغير السامية، الذين لهم كتبهم السماوية الخاصة بهم.

وهكذا ينال كل أتباع الديانات المؤسسة على الوحي السماوي ضمانا بالخلاص، شريطة أن يكونوا فعلا لا يستطيعون التعرُّف حقا وصدقا على نور الدين الجديد، ويستمسكون في صدق وإخلاص بالقيم الموجودة في دينهم الموروث.. وعندئذ لا خوف عليهم أن يحرمهم الله تعالى من النجاة.

ويَعِد القرآن كل فِرق المؤمنين هذه من يهود أو نصارى أو صابئين أنّ ﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (سورة البقرة: ٦٣)

ثم يقول:﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزِل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ (سورة المائدة : ٦٧)

.. فلو أنهم أطاعوا والتزموا بتعاليم التوراة والإنجيل وما جاءهم من ربهم لنالوا الطيبات من كل اتجاه. منهم قوم معتدلون ولكن كثيرا منهم يفعلون السيئات.

ويعلن القرآن الكريم إعلانا مطلقا صريحا يمنع المسلمين من الانتقاد العشوائي لكل من لا ينتمون إلى الإسلام فيقول:

﴿ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون* يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون

عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يُكفَروه والله عليم بالمتقين﴾(سورة آل عمران : ١١٤-١١٦)
واليوم نجد سوء فهم كبير قد تولَّد من المنافسات السياسية الحديثة بين اليهود والمسلمين. فيدعي البعض — طبقا للإسلام بزعمهم — أن اليهود جميعا في النار حتما. وهذا القول باطل تماما.. على ضوء ما تلوت أمامكم من آيات القرآن الكريم، وعلى ضوء هذه الآية أيضا:
﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يَعدِلون﴾ (الأعراف : ١٦٠)

تعزيز الانسجام والاحترام المتبادل بين الديانات

ويعلن القرآن الكريم في كلمات بيِّنة لا غموض فيها أن المسلمين ليسوا وحدهم من بين أهل الديانات الواقفين في ثبات ورسوخ في جانب الحق، ويأمرون بالعدل ويقيمونه؛ فهناك أمم أخرى تفعل ذلك مثلهم. وهذا موقف ينبغي أن يتخذه علماء الدين جميعا كي تتحسن العلاقات فيما بين سائر الأديان. ولا يمكن تحقيق السلام ما لم يُتخذ مثل هذا الموقف المتسم بالسماحة والرحابة والإنسانية نحو أهل الديانات الأخرى.
ويشير القرآن إلى أهل جميع الديانات في العالم إشارة عامة فيقول:
﴿وممن خلقنا أمَّة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾(سورة الأعراف: ١٨٢)

.. فمن بين خلق الله عموما.. هناك أمة يهدون الناس إلى الحق ويقيمون به العدل.

مفهوم الشمولية العالمية

يحلم كثير من الفلاسفة منذ زمن سحيق باللحظة التي يمكن أن يجتمع فيها البشر في أسرة إنسانية واحدة كبيرة تحت علم واحد. وقد تعلَّل بهذا الأمل لتوحيد البشر المفكرون السياسيون، بل ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع أيضا. ولكن الدين كان أشد حماسا من غيره لتحقيق هذه الفكرة.

ومع أن الإسلام يشارك سائر الأديان هذا الرأي – وإن كان بعضها أشد طموحا للسيادة على العالم – غير أنه في وسط هذا الإجماع الظاهري ينتصب متميزا ومختلفا في موقفه عن أصحاب هذه الدعوة الطموحة. وليس هنا المجال لإثارة هذا الموضوع الخلافي، والدخول في مناظرة حول أي الديانات قد أناط الله بها حقا مهمة جمع البشر كلهم تحت راية واحدة.. ولكن من المهم جداً لنا فَهْم مضامين هذه الادعاءات في أديان العالم. فلو قام اثنان أو ثلاثة أو أربعة من الأديان القوية ذات التراث التاريخي الطويل وادعت في وقت واحد بأنها أديان عالمية.. أفلا يُحدث ذلك ارتباكا هائلا ورِيبةً في عقول كل بني البشر بصورة عامة؟ ألا يفرض التنافس المتبادل بينها والصراع على السيادة تهديدا حقيقيا وواقعيا للسلام العالمي؟

مثل هذه الحركات الدينية ذات البعد العالمي موضوعٌ يُمثِّل في حد ذاته همًّا بالغا، ولكن إذا أضيف إلى ذلك الخطرُ الناجم عن وقوع هذه الحركات في أيدي قيادات غير مسئولة، شديدة التعصب، معدومة السَّماحة.. فذلك يعني أن المخاطر سوف تتضاعف، وتصبح أقرب إلى الواقع منها للاحتمال النظري.

وفي حالة الإسلام.. هناك للأسف دعاية ذائعة تزعم أن الإسلام يشجع على استخدام القوة قدر الإمكان لنشر فكره ودعوته. ولا تنبعث هذه الكلمات من معارضي الإسلام وحدهم.. بل للأسف يقول بها أيضا رجال الدين المسلمون المتمسكون بفكر القرون الوسطى المظلمة. ومن الجلي أنه لو جنحت ديانة نحو العدوانية فمن حق الديانات الأخرى أن تدافع عن نفسها بأسلحة مماثلة.

وطبعا.. أنا لا أوافق، بل أرفض بشدة، فكرة أن الإسلام يؤيد استخدام القوة لنشر دعوته ونظرياته، ولكني سأعود إلى هذه المسألة فيما بعد.

دعُونا أولاً نتفحص معقولية مثل هذا الادعاء من جانب أي دين من أديان العالم. السؤال المطروح الآن: هل يستطيع أي دين — الإسلام أو المسيحية أو أي دين شئت — أن يكون رسالة عالمية شاملة.. بمعنى أنه رسالة قابلة للتطبيق لدى كل شعوب العالم، مهما كان لونهم أو جنسهم أو قوميتهم؟ وماذا يكون موقفه في مواجهة هذا الحشد من أجناس وقبائل وتقاليد وعادات اجتماعية وأنماط ثقافية مختلفة؟

ينبغي أن يكون مفهوم الشمولية العالمية – كما تقدمه الديانات – أسمى من التقيد بالحدود الجغرافية والقومية.. بل ويتجاوز الزمن أيضا. فتكون المسألة إذن: هل يمكن أن يكون دين ما سرمديا.. أعني أن تكون تعاليمه صالحة للتطبيق بكفاءة بين الناس في هذا العصر، أو قبل ألف عام، أو بعد ألف عام على حد سواء؟ ولو أن أهل العالم جميعا قبِلوا دِيناً ما، فكيف يمكن لهذا الدين أن يلبّي حاجات الأجيال القادمة بما فيه الكفاية؟

على أتباع كل دين أن يفسروا كيف أن تعاليم دينهم تقدم حلا لعلاج المشاكل التي ناقشتها آنفا. أما عن الإسلام.. فإني أود عرض الإجابة الإسلامية على هذه الأسئلة ولو بإيجاز شديد.

الإسلام دين عالمي شامل

يبين القرآن الكريم مرارا وتكرارا أن الإسلام دين يراعي في تعاليمه فطرة النفس البشرية. ويؤكد الإسلام أن أي دين تمتد جذوره في النفس البشرية يسمو فوق الوقت والمكان. ولما كانت النفس البشرية ثابتة لا تتغير.. لذلك فإن الدين المتأصل حقا في النفس البشرية يكون ثابتا لهذا السبب عينه.. بشرط ألا ينغمس كثيرا في مواقف الإنسان العابرة في أي عصر أثناء مسيرته التقدمية. فإذا التزم دين ما بالمبادئ المنبعثة عن النفس البشرية.. فإن مثل هذا الدين يملك المقومات المنطقية ليكون دينا كونيا شاملا.

ويمضي الإسلام خطوة وراء ذلك، فيقف موقفا فريدا متفهما.. ويصف كلَّ ديانات العالم بأنها تملك قدْرا من صفة الشمولية هذه. وهكذا فإنك ستجد دائما في كل دين سماوي لُبّا من التعاليم التي ترتبط بالنفس البشرية والحقائق الأبدية. ويبقى هذا اللب في الديانات ثابتا.. هذا بالطبع ما لم يقُم أتباع تلك الديانات بإفساد هذه التعاليم في مراحل زمنية لاحقة.

ويوضح القرآن الكريم هذه النقطة فيقول:

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلِصين له الدين حنفاءَ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمةِ﴾(سورة البينة: ٦)

ويقول:

﴿فأَقِمْ وجهك للدين حنيفا. فطرةَ الله التي فطر الناس عليها. لا تبديل لخلق الله. ذلك الدينُ القيمُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(سورة الروم: ٢١)

وبالنظر إلى ما سبق قد يُطرح تساؤل عن الحكمة في نزول دين بعد دين آخر يحمل نفس التعاليم. وقد يتساءل البعض أيضا: لماذا يدَّعي الإسلام في عبارات تفاضلية أنه أكثر شمولية وكمالا من كل الديانات؟

أولا- للإجابة على السؤال الأول يلفت القرآن الكريم انتباه الناس نحو الحقيقة التاريخية التي لا مراء فيها.. ألا وهي أن يد العبث قد نالت من الكتب والأسفار السماوية النازلة قبل القرآن. لقد فسدت تعاليمها من خلال عملية تدريجية من التعديل، أو إضافة عناصر جديدة عن طريق

الدَّس والتحريف.. حتى صارت مرجعية هذه الكتب وصلاحيتها محل شك وارتياب، ولذلك تقع على عاتق المنتمين لهذه الديانات مسئولية إثبات سلامة هذه الكتب من التحريف.

أما فيما يتعلق بالقرآن الكريم فإنه يتبوأ موقعا فريدا متميزا بين كل الكتب والأسفار الدينية. هناك من بين أشد أعداء الإسلام مَن ينكرون كون القرآن المجيد كلمة الله.. ومع ذلك يعترفون صراحة وبلا تحفظ.. أن هذا القرآن كتاب لم يطرأ عليه أي تغير أو تبدل، وأنه باقٍ إلى اليوم كما جاء به محمد ﷺ وأعلن أنه وحي من كلام الله.

وعلى سبيل المثال يقول سير وليم موير(Sir William Muir) :

«وإلا.. فهناك كل ضمان داخلي وخارجي أن ما بيدينا هو النص الذي جاء به محمد نفسه وعمل به.. وبناء على أقوى الافتراضات نستطيع التأكيد بأن كل آية في القرآن هي النص الأصلي الحقيقي الذي ألفه محمد نفسه دون تغيير.» (وليم موير، كتاب حياة محمد، ص ٧٧و٧٨، لندن ١٨٧٨).

ويقول البروفيسور نولدك (Noldeke):

«قد تكون هناك أخطاء طفيفة في النسْخ، ولكن القرآن في مصحف عثمان لا يتضمن إلا عناصر أصلية، وإن كانت أحيانا في ترتيب جد غريب. ولقد باءت بالفشل جهود الدارسين الأوربيين لإثبات وجود تحريفات لاحقة في متن القرآن.»(الموسوعة البريطانية، تحت كلمة قرآن).

والقول بأن كتابا ما هو من تأليف فلان هو مسألة جدلية مختلفة تماما، ولكن هذا الكتاب نفسه.. الذي يرفض أهلُ الكتب الأخرى نسبتَه إلى الله تعالى.. يقف شاهدا على أن التوراة والإنجيل وحي من الله بقدْر ما؛ بل وأن كتب سائر الديانات الأخرى هي أيضا من وحي الله تعالى ولا شك، وأن كل ما يجده المرء فيها اليوم من تناقضات إنما هي من صنع البشر.

ولا حاجة بنا للقول بأن موقف القرآن هذا هو إلى حد كبير الأعظم واقعية وترسيخا للسلام بين أهل الأديان.

ثانيا- وبالنسبة للسؤال الثاني يوجه القرآن الكريم أنظارنا إلى عملية التطور في كل مجالات المجتمع البشري. كانت هناك حاجة إلى ديانات جديدة، ليس فقط من أجل تجديد التعاليم الأساسية في الديانات القديمة التي تشوهت على يد الإنسان.. بل أيضا لأنه مع تطور المجتمع جدت حاجة لإضافة تعاليم جديدة إلى التعاليم السابقة لمواكبة هذا التقدم.

ثالثا- ليس ذلك فحسب.. فهناك عامل فعال في هذه العملية التغييرية، هو عامل التغيرات الثانوية المرتبطة بالزمن. كانت هناك تعاليم نزلت فقط لمواجهة احتياجات قوم بعينهم، أو حقبة زمنية خاصة. وهذا يعني أن الديانات لم تقم فقط على لب مركزي من المبادئ الثابتة.. وإنما اكتست أيضا بتعاليم ذات طبيعة خارجية، وثانوية، بل وعابرة.

رابعا- أخيرا وليس آخرا، لم ينل الإنسان التعليم والتربية الدينية في خطوة واحدة، وإنما تم حمله على ذلك بالتدريج، خطوة بعد خطوة،

إلى مرحلة البلوغ الفكري حتى أصبح راشدا لائقا ليتلقى كل المبادئ الرئيسية اللازمة لهدايته. وطبقا لدعوى القرآن، كان الوحي يترل أيضا بتعاليم ثانوية.. قائمة على المبادئ الأزلية الرئيسية، كجزء لا ينفصل عن الدين النهائي الكامل المكتمل.. أي الإسلام. فلما جاء الإسلام نَسَخَ وحَذف منها ما كان ذا طبيعة محلية أو مؤقتة، وثبَّت وحَفظ منها ما لم يزل ضروريا. (راجع سورة المائدة:**١٤-١٦**).

هذا هو جوهر المفهوم الإسلامي لعالمية الدين التي يعلن الإسلام أنه متصف بها. وعلى المرء أن يتحرى ويحكم بنفسه على الجدارة النسبية بين الديانات التي تدعي بكونها عالمية.

والآن نعود مرة أخرى إلى موضوع الديانات التي استهدفت السيادة العالمية. ومن البين أن الإسلام له هذه الطموحات. ويعلن القرآن الكريم على سبيل النبوءة أن الإسلام مقدر له أن ينهض يوما ما ليكون الدين الوحيد لبني البشر:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾(سورة الصف:**١٠**)

وبالرغم من تعهد الإسلام بتوطيد السلام والانسجام بين شتى الأديان فإنه لا يمنع التنافس في بث الأفكار والرسالات بهدف اكتساب التفوق على الآخرين. والواقع أنه يجعل من التفوق النهائي للإسلام على كل دين سواه هدفا نبيلا يجب أن يتوخاه كل مسلم. وعن نبي الإسلام ﷺ يصرح القرآن الكريم:

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له مُلك السماوات والأرض. لا إله إلا هو يحيي ويميت. فآمِنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كلمته واتبِعوه لعلكم تهتدون﴾(سورة الأعراف: **١٥٩**)

وتجنباً للشجار وسوء الفهم.. وضع الإسلام مجموعة من قواعد السلوك التي تضمن المنافسة المشروعة، والعدالة المطلقة، وحرية الكلمة، وحق التعبير، وحق المعارضة.. سواء للجميع.

وسائل الصراع: لا إكراهَ

كيف يمكن لدين يدّعي لنفسه العالمية والدولية والكونية ثم لا يتسبب في حدوث احتكاكات؟

ثم كيف يمكن لدين ذي رسالة عالمية وطموحات كونية لتوحيد البشرية جمعاء تحت راية واحدة.. أن يتقبل- ولا للحظة واحدة — فكرة استعمال القوة الجبرية في نشر رسالته.

تستطيع السيوف غزو الديار لا غزو القلوب..

ويمكن للقوة حَنْيَ الرؤوس لا حني العقول.

ولا يسمح الإسلام باستخدام القوة الجبرية أداة لنشر رسالته، بل يعلن:

﴿لا إكراه في الدين. قد تبينَ الرشد من الغي﴾(سورة البقرة: **٢٥٧**)

..يجب ألا يكون هناك أي إجبار في الدين.. والفرق بين الصواب والخطأ واضح. لا حاجة للقوة والإجبار. دعوا الإنسان ليقدر بنفسه

أين الحق. ويخاطب القرآن نبي الإسلام، ويحذره بوضوح من اعتناق فكرة استخدام القوة في سعيه لإصلاح المجتمع، ويبين له بصراحة موقفه كمصلح قائلا:

﴿فذَكِّرْ إنما أنت مذكِّر *لست عليهم بمصيطر﴾(سورة الغاشية:٢٢)

..قَدِّمْ لهم النصح وعِظْهم.. لأنك ناصح واعظ منبه؛ وليس لك عليهم سلطان الإكراه والإلزام. وزيادة في بيان هذا الموضوع وتأكيده يذكر القرآن المجيد رسول الله ﷺ :

﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إنْ عليك إلا البلاغ﴾(سورة الشورى:٤٩)

.. إذا تولوا وأبوا الاستجابة لوعظك ونصحك فلا ضير عليك من ذلك.إنك لم تبعث إليهم وصياً حارساً، فدَعْ هذا لله وبلغ أنت رسالتك.

وإذا نشأ صراع وردود فعل عنيفة أثناء عملية البلاغ ونشر الدين الجديد فإن الإسلام يحث أتباعه ويؤكد على التزام الصبر والمثابرة وتجنب الصدام بقدر المستطاع . ولهذا الهدف وضع القرآن قاعدة سلوكية واضحة يتبعها المسلم مع كل توجيه وحض له في تبليغ رسالة الإسلام إلى العالم. وتوضيحاً لهذه النقطة..اقتبستُ الآيات التالية من بين آيات عديدة تتناول هذا الموضوع :

﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. وجادِلْهم بالتي هي أحسن. إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين﴾ (سورة النحل :**١٢٦**)

..فالدعوة إلى الله تعالى تكون بالحكمة وما يناسب الحال، ويدور النقاش بأحسن أسلوب. والله تعالى هو أعلم بمن ضل ومن اهتدى .

﴿ادفعْ بالتي هي أحسنُ السيئةَ نحن أعلم بما يصفون﴾(سورة المؤمنون:**٩٧**)

..دفع السيئات والشرور يتم بأحسن الوسائل. والله تعالى مطلع تماما على كل دعاواهم .

ولفظ أحسنْ في الآية يعني الأجمل والأكثر جاذبية واستمالة.

ويصف القرآن قواعد سلوك المؤمنين عند تبليغ رسالة الإسلام فيقول:

﴿والعصرِ* إن الإنسان لفي خُسْر* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتَواصَوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾(سورة العصر)

..نستشهد بالعصر الذي يكون فيه الإنسان عموما في حالة خسران..ما عدا فئة مؤمنة تعمل الصالحات، وبالحق تحض الناس على قبول الحق، وبصبر وثبات تحث الناس على الصبر والثبات.

ويقول:

﴿ثم كان من الذين آمنوا وتَواصَوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ (سورة البلد:**١٨**)

..وينبغي أن يكون من بين من آمنوا ويوصي بعضهم بعضا بممارسة الصبر وحسن مراعاة المشاعر والتعامل بأسلوب يتسم بالرحمة .

بقاء الأصلح

طبقا للقرآن الكريم يتوقف البقاء والفوز النهائي لرسالة ما توقفا كليا على قوة حججها، وليس على القوة المادية التي تستطيع استخدامها. والقرآن الكريم واضح للغاية ومحدَّد في هذا الموضوع . يعلن القرآن أنه لو استُخدمت أعظم القوى وأشدها للقضاء على الحق ومساندة الباطل..فلسوف تنهزم وتفشل كل هذه الجهود حتما. لا بد أن يسود العقل دائما على القوة الغاشمة والأسلحة المادية.فمثلا يصرح القرآن الكريم:

﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا اللهِ كَمْ من فئةٍ قليلة غَلبتْ فئةً كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين﴾(سورة البقرة:**٢٥٠**)

وغلبة الإسلام مفهومة من السياق في هذا التوجيه الإلهي .

وفي موضع آخر يقرر القرآن الكريم:

﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾(سورة المجادلة: ٢٣)

وخلال موقعة بدر – أول معركة في الإسلام – انطلق مشركو مكة ليبطشوا بحفنة ضعيفة من المسلمين..فاضطر هؤلاء إلى الدخول في معركة دفاعية ضد خصم يفوقهم عددا وعدة وعتادا..حفاظا على

عقيدهم أكثر من حفاظهم على حياهم. وتعليقا على ذلك يعلن القرآن الكريم:

﴿ليَهلِكَ من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ (سورة الأنفال: ٤٣)

.. فليمُت من قدِّر عليه الموت بقرار منطقي جلي، وليبق من استحق البقاء أيضا بموجب منطق بيِّن.

هذا هو المبدأ الخالد الذي قام بالدور الأهم في تطور الجنس البشري.. البقاء للأصلح هو جوهر الرسالة. وهذا في الواقع هو المنهج لتطور الحياة.

حرية الرأي

حرية الكلام والتعبير ضرورية لنشر الرسالة فضلا عن إحياء كرامة الإنسان من جديد. ولا يكون دين جديرا بالاعتبار ما لم يدْعُ بنفسه لإعادة وصون كرامة الإنسان. وفي ضوء ما سلف.. يتضح أنه من المحال على دين مثل الإسلام أن ينكر حرية القول والتعبير. الإسلام يساند هذا المبدأ بقوة وبسالة وكيفية يندر شهودها في أي فكر أو عقيدة أخرى في العالم. ومثالا لذلك يعلن القرآن الكريم:

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (سورة البقرة:١١٢)

ثم يقول: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة. قل هاتوا برهانكم. هذا ذِكرُ مَن معي وذِكر مَن قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾(سورة الأنبياء:**٢٥**)

ويقول: ﴿ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلِموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾(سورة القصص:**٧٦**)

ويقول: ﴿أم لكم سلطان مبين* فأْتُوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ (سورة الصافات: ١٥٧-١٥٨)

الحرية والتحرير في سياق العالم المعاصر

الحرية والتحرر شعاران هامان يؤثِّران في العالم كله بشدة تتغير ودلالات تختلف.. وليس ثمة شك في أن إدراك الإنسان ووعيه بأهمية الحرية وقيمتها في ازدياد مستمر. وهناك حاجة مُلِحَّة إلى التحرر محسوسةٌ في العالم أجمع.

ولكن التحرر من أي شيء؟ هل هو التحرر من نير الحكم الأجنبي؛ أم من الدكتاتورية؛ أم من الفاشية؛ أم من النظم الدينية والفلسفات الشمولية والديموقراطيات الظالمة والبيروقراطيات الفاسدة؛ أم من حبل الاختناق الاقتصادي الذي يضعه الأغنياء في عنق البلاد الفقيرة؛ أم من الجهل والخرافة والوثنية؟

يناصر الإسلام سبيل الحرية والخلاص من كل هذه الأدواء والعلل، ولكن بكيفية لا يترتب عليها الشغب والاضطراب، ولا الفوضى

والانتقام العنصري الذي يصيب الأبرياء بالمعاناة والأذى.. ﴿والله لا يحب الفساد﴾ (سورة البقرة:٢٠٦)

.. ففي رسالة الإسلام لا يحب الله جل وعلا ما يؤدي إلى فساد النظام والأمن. والإسلام- كأي دين آخر – يؤكد على دور الحرية المتوازنة بروح العطاء والأخذ. أما في سياق المجتمع فإن القول بالحرية المطلقة قول أجوف، غير طبيعي، وغير حقيقي.

وأحيانا يساء فهم مدلول الحرية، ويساء استخدامها بحيث يتشوه جمال مبدأ الحرية الذي نعتز به ونسعى للحفاظ عليه.. ويتحول إلى وجه قبيح يتسبب في الإيذاء والسباب والقذف والإهانة والتجديف.

التجديف .. أو الاستهزاء بالمقدسات

يخطو الإسلام خطوة أبعد من أي دين آخر في إقرار حرية الإنسان في القول والتعبير. التجديف، ولا شك، عمل بغيض مُدَان على أسس خلقية وأدبية، ولكن لم يَشْرع له الإسلام أي عقوبة دنيوية.. بالرغم من الرأي الشائع اليوم في عالم الدين. لقد درستُ القرآن دراسة مكثفة متكررة، وبتركيز عميق.. فلم أجد فيه آية واحدة تعلن أن التجديف جريمة يُعاقَب عليها بيد الإنسان.

ومع أن القرآن الكريم يصدُّ بكل شدةٍ السلوكَ والحديث غير المحتشم، وجرْحَ مشاعر الناس بسبب أو آخر.. فإن الإسلام لا يفرض للتجديف عقوبة في هذه الحياة الدنيا، ولا يُوَلِّي أحدا هذه السلطة.

لقد ورد ذكر التجديف في القرآن المجيد خمس مرات:

١- ذكره بوجه عام فقال:

﴿وقد نزَّل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكفَرُ بها ويُستهزَأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيرِه إنكم إذاً مثلُهم إن الله جامعُ المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا﴾(سورة النساء: **١٤١**)

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرضْ عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما يُنْسِيَنَّك الشيطانُ فلا تقعدْ بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾(سورة الأنعام: **٦٩**)

.. ما أجمله من موقف في مواجهة قبح التجديف الدميم!

لا يسمح الإسلام لأي إنسان بأن يأخذ في يده حق معاقبة المُجدِّف، ولكنه يعلن أن تسجيل موقف الاستنكار والاحتجاج على التجديف واجب.. يتم التعبير عنه بمغادرة المجلس الذي يُستهزأ فيه بالقيم الدينية ويُسخر منها. ولم يقرر القرآن المجيد أي عقوبات مادية أخرى، بل ولم يأمر حتى بمقاطعة المجدفين مقاطعة دائمة.. بل على العكس، يبين القرآن الكريم في وضوح تام أن الإعراض لا يمتد إلا بقدر الفترة التي يخوض فيها المجتمعون في حديث التجديف والسخرية بالمقدسات.

٢- ثم ذكر التجديف في سورة الأنعام حيث بَحث مسألة التجديف من الناحية النظرية.. ليس فقط بالنسبة لله جل وعلا، وإنما بالنسبة للأصنام والمعبودات الخيالية الأخرى دون الله تعالى. ويستولي جمال التعاليم القرآنية على قلب المرء عندما يقرأ قوله:

﴿ولا تسبوا الذين يَدْعون من دون الله فيسبوا اللهَ عَدْوًا بغير علم كذلك زيَّنّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبِّئهم بما كانوا يعملون﴾ (سورة الأنعام:١٠٩)

والخطاب هنا موجَّه إلى المسلمين. فهم ممنوعون منعا باتا من سب الأصنام والآلهة الوهمية عند الوثنيين. وأشيرَ هنا إلى أن ذلك قد يؤدي بالآخرين إلى الثأر بالتجديف ضد الله تعالى. وأيضا في هذا البحث الافتراضي عن التجديف ضد الله تعالى وضد الأوثان على حد سواء.. لم يقرر الله أي عقاب مادي في كلتي الحالتين.

وأخلاقيات هذا التعليم غنية بالحكمة العميقة.. فإذا ارتكب جريمةَ جرحِ المشاعر الروحية لغيره، فإن من حق المجروح أن يرد بنفس العملة.. بغض النظر عن طبيعة معتقداته وكونها حقا أو باطلا.. ولا يُسمح لهذا ولا ذاك أن يتجاوز هذا الحد عند الثأر.

ويمكن للمرء أن يستخلص من هذا أن الإساءة الروحانية يُثأر لها بوسائل روحانية.. تماما كما يُثأر للاعتداء المادي بانتقام مادي مماثل دون تجاوز للحد.

٣- وذكر التجديف في القرآن الكريم فيما يتعلق بالسيدة مريم والمسيح عيسى عليهما السلام فقيل :

﴿وبكفرِهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما﴾(سورة النساء: ١٥٧)

وتشير هذه الآية إلى الموقف التاريخي لليهود المعاصرين للمسيح عيسى. وطبقا لهذه الآية، ارتكب اليهود تجديفا فظيعا عندما رموا السيدة مريم

بأنها — معاذ الله — غير عفيفة، وزعموا أن ابنها (عليهما السلام) من ميلاد مريب.

وقوله تعالى (بهتانا عظيما) يدمغ بكل قوة ويدين بكل شدة هذه الحماقة النكراء من جانب اليهود. ومع هذا — ويا للعجب — لم يتقرر ضدهم أي عقاب مادي.

٤- ومن المثير للاهتمام ملاحظة أنه بينما يُجرِّم القرآنُ اليهود لتجديفهم ضد السيدة مريم وابنها عيسى (عليهما السلام) .. فإنه أيضا يلوم النصارى لتجديفهم ضد الله تعالى إذ يدعون أن له ابنا مولودا من زوجة بشرية. وفي الآية التالية يعلن القرآن أنها جريمة فادحة، ومع ذلك لم يشرع لها عقوبة جسدية من أي نوع، ولم يُفوِّض إلى أية سلطة بشرية توقيع عقوبة على ذلك:

﴿ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم. إنْ يقولون إلا كذبا﴾(سورة الكهف:٦)

٥- وأخيرا.. دعوني أصل إلى أشد النقاط حساسية، إنها أشد حساسية بمعنى أن مسلمي اليوم حساسون للتجديف ضد نبي الإسلام ﷺ أكثر من حساسيتهم للتجديف ضد أي شيء آخر.. حتى وإن كان ضد الله تعالى!

ومع ذلك فهناك واقعة تجديف خطيرة إلى حد أنها سُجلت في القرآن الكريم، وتتعلق بشخص يُدعى عبد الله بن أبيّ بن سلول، المعروف في التاريخ الإسلامي بلقب 'رأس المنافقين'. ففي أثناء العودة من إحدى

الغزوات نادى ابن أُبيّ هذا مع أصحابه أنه عند الوصول إلى المدينة سوف يطرد الأعَزُّ منها الأذلَّ :

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾(سورة المنافقون:٩)

وفهِم كل واحد من الصحابة ما تنطوي عليه هذه العبارة من إهانة وتعريض ضد النبي ﷺ ، وكانوا جميعا يغلون غضبا ونقمة، وما كانوا ليترددوا في ضرب عنقه لو كان ذلك جائزا.

تروي الروايات الصحيحة أن الثورة على هذه الحادثة بلغت من الحدة حتى إن ابن هذا المنافق نفسه سعى إلى النبي ﷺ يستأذنه في قتل أبيه بيده. وكانت حجة الابن بأنه لو قتل أباه أحدٌ غيره.. فربما غلبت عليه جهالته وفكر في الانتقام من قاتل أبيه. ولقد كانت عادة العرب لقرون طويلة أن يثأروا لأقل إهانة تلحق بالمرء أو بقبيلته. ولعل هذه العادة كانت في ذهن الابن عندما كان يتحدث إلى النبي.. ولكنه ﷺ رفض أن يأذن له بما طلب، كما لم يأذن لأحد غيره من الصحابة في أن يعاقب المنافق ابن أُبَيّ بأي صورة كانت. (السيرة النبوية- ابن إسحاق، وابن هشام).

وعاد ابن أبيّ إلى المدينة ولم يزل يعيش في أمان. ولما وافاه أجلُه وهو على فراشه منح الرسول ﷺ ثوبه لابنه كي يكفن به أباه. وهذا فضل من النبي الكريم فريد أدهش الجميع حقا، وترك سائر الصحابة يتمنون مقايضة الابن بكل ما يملكون.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل قرر النبي الكريم ﷺ أن يؤم بنفسه صلاة الجنازة على الرجل. ولا بد أن يكون هذا القرار قد أزعج كثيرا من الصحابة الذين لم يكونوا قد نسوا بعد جريمة ابن أبيّ الشنعاء.. وكان من نصيب سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يهُبَّ متحدثا بلسانهم، ومعبِّرا عن اضطرابهم وعدم ارتياحهم. رُوي أنه بينما كان النبي ﷺ متوجها إلى الجنازة تقدم سيدنا عمر فجأة ووقف في طريق النبي ﷺ يلتمس منه أن يعدِل عن قراره، ويذكره بآية قرآنية تشير إلى المنافقين الذين لن تُقبل الشفاعة في حقهم ولو استغفر لهم النبي سبعين مرة. وبهذه المناسبة لا يؤخذ العدد (٧٠) بمعناه الحرفي، لأنه بحسب الاستعمال العربي يدل على الكثرة. على أية حال، ابتسم النبي ﷺ وقال: تنَحَّ يا عمر، فإني أعرَفُ بما تقول. ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها. وصلى النبي عليه صلاة الجنازة. (البخاري، كتاب الجنائز).

وفي هذا دَحْضٌ كافٍ لإصرار أولئك الذين يُبحُّون أصواتهم تباكيا.. يطالبون بعقوبة الموت للمجدِّف الذي يجرؤ على إهانة النبي ﷺ .. ولا شيء يرضيهم دون الإعدام.

مثل هذا الدين لا بد وأن يكون من بين دعاويه وأهدافه توطيد السلام فيما بين أديان العالم.

التعاون فيما بين الديانات

فيما يتعلق بالعلاقات بين الديانات يخطو الإسلام خطوة واسعة إلى الأمام حين يعلم أتباعه :

﴿ولا يَجرمنّكم شنَآنُ قوم أَنْ صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاوَنوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾(سورة المائدة:٣)

..يجب أن لا تحرضكم عداوة الذين منعوكم من زيارة المسجد الحرام على معاملتهم بالظلم، بل تعاونوا معهم في الأمور الدنيوية الطيبة، وفي كل الأمور القائمة على خشية الله. ولا تتعاونوا على الشر والعدوان.

فلا يسمح القرآن المجيد للمسلمين أن يتعاملوا بأسلوب ظالم ولو مع أعدائهم الذين اعتدوا عليهم بسبب الخصومة الدينية.

ونلتفت الآن إلى ذلك الصنف من الكفار الذين لم يُعرف عنهم القيام بدور فعال في أعمال عدائية ضد المسلمين. ويشير القرآن إلى هؤلاء فيقول للمؤمنين:

﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً والله قدير والله غفور رحيم* لا ينهكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾(سورة الممتحنة:٨-٩)

.. لعل الله تعالى يخلق بينكم وبين أعداء اليوم مودة.. فهو قدير على ذلك، وهو تعالى غفور رحيم. وهو لا يحرم عليكم أن تتعاملوا بالعطف واللطف والعدل مع الذين لم يقاتلوكم بسبب دينكم، ولم يطردوكم من بيوتكم ..فالله يحب العادلين.

ويعلم القرآن المجيد المسلمين دعوة أهل الكتاب والتعاون معهم في نشر رسالة التوحيد.. وهو عقيدة مشتركة بينهم. وفحوى الآية التالية يؤكد على النقاط المشتركة، ويرسم برنامجا متعادلا لصالح البشرية بدلا من إبراز نقاط الخلاف التي ينجم عنها الشقاق:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تَولَّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾(سورة آل عمران: ٦٥)

خاتمة

وقبل دراسة أي دور ذي مغزى يمكن أن تلعبه الأديان الأصيلة في كفالة السلام للإنسان في كل مجالات نشاطه.. من الضروري للغاية أن يُدرَس دراسة فاحصة دوْرُ الأديان في تدبير السلام بين مختلف قطاعات المنتمين إليها أنفسهم، والتعرفُ عما إذا كانت هذه الديانات – ما دامت موجودة – تستطيع أن تعلّمَ أتباعها العيش في سلام مع الآخرين.

وبالنظر إلى تزايد نفوذ المادية وشدة انتقال المجتمع ككل من الروحانية إلى الملذات الحسية.. قد يعتقد البعض بضرورة نبذ الدين وتجاهله كعامل غير ذي شأن.

وإني لأعارض هذا الاستنتاج.. لأنه ما لم نصلح المواقف الدينية، داخليا وخارجيا، فلن ينفك الدين يلعب دورا شديد السلبية.. بدلا من أن يقوم بدور إيجابي نافع في جهودنا لتحقيق السلام العالمي. إن الدين الذي كان يراد منه القيام بدور قيادي في توطيد السلام وإزالة سوء الفهم بين أتباع مختلف الأديان والمذاهب، وغرسِ الاحتشام والأدب، وتطويرِ مبدأ 'عِشْ ودَعْ غيرَك يعيش' .. فإنه للأسف لعب في العصر الحاضر دورا ثانويا تافها.. هذا إن كان قد فعل شيئا أصلا في تطوير السلام في أي مكان من العالم.

ومع ذلك فإنه في خلق الاضطرابات وسفك الدماء ونشر الشقاء والمعاناة.. لا يزال الدين قادرا فعالا ومؤثرا للغاية بما لا ينبغي التهوين من شأنه أبدا. ولا يمكن تصوّر سلام عالمي من دون مواجهة هذه المشكلة الحيوية وتصحيح أخطائها.

فمن المواقف الداخلية يمكن أن تُثار المشاعر الدينية وتُحرَّض بشدة لنشر البؤس والآلام بين الذين ينتمون — لسوء الحظ — إلى طائفة الأقلية في هذا الدين.

وتاريخ الإسلام كله حافل بمثل هذه الأحداث القبيحة المقيتة، حيث كان الإسلام — دين السلام — يُستغل لتحطيم سلام المؤمنين الأبرياء.

كانوا مؤمنين به.. ولكن بطريقة وأسلوب لا يرضى به الآخرون. والواقع أن دراسة تاريخ الإسلام تثبت بلا شك أنه قد أُسيء استخدام الإسلام لأجل اضطهاد وتعذيب المسلمين أنفسهم. وكانت الحروب المقدسة التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين أقلَّ عددا وأخف عنفا من 'حروبهم المقدسة' التي شنوها ضد إخوانهم المسلمين خلال القرون الأربعة عشر الماضية.

ولم يبلغ هذا الفصل نهايته بعد. فالذي كان ولا يزال يحدث في باكستان ضد المسلمين الأحمديين، وضد الأقلية الشيعية.. كافٍ لتركيز الانتباه إلى واقع أن هذه المشكلة الشنيعة.. التي كان ينبغي زوالها من زمن بعيد.. لا تزال باقية إلى اليوم.

وفي العالم المسيحي، قد يبدو اضطهاد المسيحيين على يد المسيحيين كصدى صرخة بعيدة دُفنت تحت أنقاض التاريخ الأوروبي والأمريكي، ولكن دراسة النزاع الديني السياسي في أيرلندا تثبت عكس ذلك. كما أن هناك أخطارا كامنة للنزاع الطائفي داخل المسيحية في مناطق أخرى من العالم.. وإن كانت مشغولة حاليا بصراعات وعداءات أخرى.

وفي العلاقات بين الديانات.. هناك الشغب بين الهندوس والمسلمين في الهند، والنزاع بين المسلمين والمسيحيين في نيجيريا، والخصومات بين اليهود المسلمين في الشرق الأوسط، وفي أماكن أخرى.. فضلا عن تيار تحتيّ لعلاقة سياسية واقتصادية هشة بين اليهود والمسيحيين. كل ذلك ما هو إلا بعض علامات على أخطار جسيمة كامنة تشبه البراكين تحت

سطح العالم الديني، ولن نكون مغالين مهما شدّدنا على أهمية إصلاح المواقف تجاه هذه المشاكل.

وتلخيصا للمدخل الإسلامي لحل هذه المشكلات ننتهي إلى ما يلي:

١- ملل العالم كلها.. من يؤمن منها بالإسلام ومن لا يؤمن.. يجب عليها أن تتصرف وفقا للمبدأ الإسلامي المقرر الذي يقضي بتحريم استخدام القوة والقسر بكافة أشكاله كوسيلة لحل المشاكل والتزاعات فيما بين المذاهب وفيما بين الأديان. ويجب كفالة الحماية المطلقة لحق الإنسان في اختيار دينه، وحريته في اعتناق عقيدة ما، والدعوة إليها، وممارستها والعمل بها، أو شجبها والتوقف عن الإيمان بها، أو تبديلها.

٢- وإن لم تستطع الأديان الأخرى موافقة المفهوم الإسلامي بشأن 'عالمية الحق'، وتمسكت مثلا بوجهة نظر كل من اليهودية والمسيحية والبوذية والكنفوشية والهندوسية والزرادشتية وغيرها.. واعتبرت الأديان الأخرى كلها باطلة ولا علاقة لها بالله تعالى، أقول: برغم نفيهم لوجود الحق عند غيرهم.. يجب أن تلتزم الأديان جميعا بالمبدأ الإسلامي الذي يقضي بإبداء الاحترام والتوقير نحو كافة مؤسسي الأديان الأخرى والشخصيات المقدسة فيها. ومع اتّباع هذا النهج فإنه لا يُطالَب أحد باتخاذ حل وسط على حساب مبادئه. إنها- ببساطة — مسألة من مسائل حقوق الإنسان الأساسية. إنها إقرار لحق كل إنسان ألا تُنتهك مشاعره وعواطفه الدينية أو يُعتدى عليها.

٣- ولنتذكر أن إقرار المبدأ السابق غير ممكن بأي قانون قومي أو دولي.. ويجب ربطه مع مبدأ أن ليس للتجديف عقوبة دنيوية بيد البشر.. بل ينبغي شجبه وصده بترقية الرأي العام كي يحكم على مثل هذه الأفعال بأنها بذيئة منافية للاحتشام، طائشة، مقززة، تشمئز منها النفوس.

٤- المؤتمرات فيما بين الأديان أسلوب استحدثته الجماعة الإسلامية الأحمدية في مستهل هذا القرن وينبغي التوسع فيه وتشجيعه وتطويره. ويمكن عرض روح هذه المؤتمرات وجوهرها في الخصائص التالية:

أ) تشجيع المتحدثين جميعا على إبراز النقط الطيبة والجذابة والخصائص المميزة لدينهم دون قدح في الأديان الأخرى.

ب) ينبغي على المتحدثين المنتمين إلى دينٍ ما أن يحاولوا بواقعية وصدق.. اكتشافَ الملامح الطيبة في الأديان الأخرى، فيتحدثوا عنها ويبينوا أسباب حُسن تأثُّرهم بها.

ج) ينبغي على المتحدثين من أتباع مختلف الأديان أن يشاركوا بجهدهم للتحدث عن علامات النبل والملامح الطيبة في شخصيات قادة الأديان الأخرى. فمثلا، يتحدث المتحدث اليهودي عن الخصائص المميزة لنبي الإسلام.. سيدنا محمد ﷺ .. بما يحترمه ويُقدِّره كل بني البشر، دون أن يشكك ذلك في عقائدهم أنفسهم. وبالمثل، يمكن للمتحدث المسلم أن يتكلم عن حضرة كرشنا، أو المتحدث الهندوسي عن سيدنا عيسى، أو المتحدث البوذي عن سيدنا موسى.. وهلم جرّا. وفي العقد الثالث من

هذا القرن عقدت الجماعة الإسلامية الأحمدية مثل هذه المؤتمرات لتقوية وتحسين العلاقات بين المسلمين والهندوس في بلاد الهند.

د) ودون تعارض مع ما ورد في البند السابق.. يجب حماية حرمة الحوار بين المذاهب والعقائد. وينبغي ألا يُتهم تبادل الآراء بين الأديان بأنه محاولات لتخريب السلام الديني. إن أسلوب الحوار هو الذي يُشْجب إذا كان خاطئا، أمّا الحوار نفسه فلا.

إن الانسياب الحر للأفكار هو أهم الحقوق الإنسانية الأساسية، وهو الضروري لبقاء الأصلح، ولا يمكن تقديم تنازلات حوله بأي ثمن.

هـ) لتضييق شقة الخلاف، وتضخيم احتمالات الاتفاق.. من الضروري للغاية أن تقبل الأديان جميعا بالمبدأ الذي يحصر المناظرات بين أتباع الأديان الأخرى في منابع هذه الأديان.

يجب ألا يؤخذ باستخفاف إعلان القرآن الكريم بأن الأديان كلها سواسية في منبعها. إنه إعلان يشتمل على عالم من الحكمة. وينبغي أن تنظر جميع الأديان فيه بدقة وترتاده لصالحها.. ولصالح البشر على وجه العموم.

و) يجب تحسين وتشجيع التعاون في وضع وتنفيذ الخطط والمشروعات الطيبة للصالح المشترك بين جميع بني البشر. وعلى سبيل المثال: يمكن تنفيذ المشروعات الخيرية بالمشاركة بين النصارى والمسلمين والهندوس وغيرهم.

وعندئذ فقط يمكننا الرجاء في تحقيق حلم اليوطوبيا القديم – أو العالم المثالي – الذي كان أمل الفلاسفة والحكماء في العصور الماضية.. حلم توحيد البشر تحت علم واحد في كافة مجالات النشاط البشري.. سواء أكان ذلك دينيا، أو اجتماعيا، أو اقتصاديا، أو سياسيا. وهذا هو المهم في الحقيقة.

(٢)

السلام الاجتماعي

١- النظام الاجتماعي المعاصر.

٢- مناخان للنظام الاجتماعي.

٣- بُطلان المجتمع المادي وغايتِه النهائية.

٤- رفض الحياة الآخرة.

٥- أربع خصائص للمجتمع المادي.

٦- المسئولية والحساب.

٧- المناخ الاجتماعي الإسلامي.

٨- أساسيات المجتمع الإسلامي.

٩- العفة.

١٠- الفصل بين الجنسين.

١١- فجر عصر جديد لحقوق النساء.

١٢- مساواة النساء في الحقوق.

١٣- تعدد الزوجات.

١٤- رعاية المسنين.

١٥- مستقبل الأجيال.

١٦- الحد من السلوك المعيب المتلاف.

١٧- كبح الشهوات.

١٨- تعزيز الأمانة والمسئولية والوفاء بالأمانة والعهود.

١٩- اجتثاث الشر مسئولية جماعية.

٢٠- أوامر ونواهٍ .

٢١- نبذ التمييز العنصري .

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (سورة النحل: ٩١)

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (سورة الحديد: ٢١)

نتوجه الآن إلى دور الإسلام في كفالة الأمن الاجتماعي.

النظام الاجتماعي المعاصر

نلحظ أن تأثير الدين على السلوك الأخلاقي في المجتمع يختفي سريعا لسوء الحظ. ويزداد الموقف تفاقما بوجود دافع قوي للتحرر من الالتزامات الدينية.. ويتحرك هذا الدافع ويكتسب مزيدا من القوة في كل مكان تقريبا من عالمنا المعاصر. ومع ذلك هناك ذعر متزايد، وتناقضات مستمرة، واضطراب في السلوك الاجتماعي.. يسيران جنبا إلى جنب مع هذا الاتجاه نحو الاستخفاف بالمبادئ الدينية والأخلاقية، ويذوب من الوجود ذلك الإيمان بإله حي.. صاغ قدر بني البشر، وهو صاحب الحق في أن يحدد لهم أنماط حياقم اليومية. يلخص القرآن الكريم هذا الحال المؤسف في قوله:

﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾(سورة الروم:٤٢)

كان للمسيحية حتى منعطف هذا القرن – بوصفها الدين السائد في الغرب – سيطرةٌ قوية ومؤثرة على السلوك الأخلاقي لأهل هذه الملة. وللأسف لم يعد الأمر هكذا، وبدلا من ذلك، نتيجة للتفاعل بين الاشتراكية العلمية، وسرعة التطور العلمي والتقدم المادي.. ظهرت حضارة تجبر المسيحية على قرع الطبول إيذانا بالتراجع خطوة خطوة. فلا يزال دورها في صياغة السلوك الأخلاقي يتضاءل يوما بعد يوم.

لم يعد السلوك الأخلاقي في الغرب اليوم مسيحيا في خصائصه قليلا أو كثيرا.. إلا بقدر ما أصبح السلوك الأخلاقي في معظم بلاد المسلمين إسلاميا ! وللأسف، نجد حال السلوك الاجتماعي والأخلاقي بنفس السوء في كل مكان من العالم. فهناك الكثير من البوذيين والكنفوشيين والهندوس في دنيانا اليوم.. ولكن لسوء الحظ لا يُرى إلا أقل القليل من البوذية والكنفوشية والهندوسية.

الماء يبلل كل مكان.. وليست هناك قطرة تصلح للشرب!

عندما تغيب الضوابط الدينية والتراثية للأخلاق من المجتمع تفقد الأخلاقيات قيمتها عند قدوم جيل لا يقبل التقاليد الموروثة قبولا أعمى على أنها معقولة وصالحة. ولا بد لهذا الجيل من أن يمر بمرحلة انتقالية حرجة من الفراغ الخاوي، وهذا بدوره يولد عنده حافزا جديداً للبحث. وقد تؤدي به عملية البحث هذه — أو لا تؤدي به — إلى اكتشاف قانون للسلوك أفضل وأكثر إرضاء له. ويمكن أيضا أن تؤول هذه العملية إلى تشوش كامل، أو حالة من الفوضى الأخلاقية. ولسوء الحظ فيبدو أن الاختيار الثاني- كما أرى الأشياء- هو ما اختاره المجتمع المعاصر. ثمة ريح للتغيير تهب على المجتمعات في هذا العالم.. شرقية أو غربية، دينية أو علمانية. إنها ريح شرٍّ تُلوث مناخ العالم كله. ويبدو العالم الحديث أكثَر وعْيا وإدراكا بارتفاع مستوى التلوث في الجو المادي من وعيه بالارتفاع المتزايد في مستوى التلوث بجونا

الاجتماعي. ويتحدث القرآن المجيد بوضوح عن مثل هذا الطوْر الذي يمر به العالم معلنا:

﴿والعصرِ* إن الإنسان لفي خسر* إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتَواصَوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾(سورة العصر)

..يقف العصر شاهدا على أن الإنسان بوجه العموم يكون في حالة خسران.. ما عدا قلة من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويحضُّون الآخرين بصدق على قبول الحق، ويعظون الآخرين بصبر على التخلق بالصبر.

لقد أصبحت السمات المميزة للمجتمعات الحديثة هي الاستغلال، والرياء، والنفاق، والأنانية، والعدوان، والجشع، والتكالب على المتع، والخروج على النظام، والفساد، والسرقة، والسلب، وانتهاك حقوق الإنسان، والخداع، والخيانة، وانعدام المسئولية، وغياب الاحترام والثقة المتبادلة. ولم يعد بوسع القشرة الرقيقة للمدنية أن تخفي القبح الذي ينكشف وجهه كل يوم أكثر وأكثر. ومع ذلك، يخطئ من يقول بأن هذه العلامات المنذرة من نقائص البشرية كانت غائبة في العصور الماضية. فالواقع أن كثيرا من الحضارات السابقة عانت من نفس هذه الأمراض قبل أن تُطوى صفحات فصولها نهائيا من كتاب التاريخ البشري. ومن الخطأ أيضا إفراد منطقة معينة من الأرض بأنها قد أحدقت بها وحدها الشرور الأخلاقية.

لقد بدأت المجتمعات تتصدع وتتهدم في كل مكان على السواء. ففي المجتمعات التي تتباهى بأنها العالم الحر.. أصبح الوعي المتصاعد بالحرية الفردية هو نفسه الضربة القاتلة المسئولة بقدر كبير عن سوء السلوك الاجتماعي المتزايد.

أما في البلاد المحكومة بفلسفات شمولية فيشتبك هذا الوعي المتزايد بالحرية الفردية في معركة ضارية لتحرير الفرد من السيطرة الشمولية التامة. وما لم تقع ثورة مضادة في القوات المسلحة القوية اليسارية المتطرفة.. فإن هذا الاتجاه نحو التحرر له كل احتمالات الفوز بالمعركة سريعا. أما ما يمكن أن يحدث بعد ذلك فإنه لا يبشر كثيرا باحتمالات للتحسن الأخلاقي لدى الشباب المتحرر في البلاد التي كانت شيوعية.

لقد شب جيلان تقريبا ووصلا سن البلوغ في فراغ مجتمعٍ ملحد.. وليس له ما يهديه وينظم سلوكه الأخلاقي. وبصرف النظر عن الافتقار إلى دستور بنائي للقيم الأخلاقية الراسخة في نظريات دينية.. فإن الميول العبثية، اللاهية، الباحثة عن المتعة، اللامسئولة.. والتي تتدفق من الغرب على شباب الاتحاد السوفييتي السابق وعلى شرق أوروبا.. تمثل خطراً داهما.. يمكن أن تدمر سلوكهم الأخلاقي في السنوات القادمة.

ولا يفوت المرء في نفس الوقت ملاحظة أن تجربة العيش بلا دين لعشرات السنين قد أورثت هذا المجتمعَ المعاصر شرا، ليس ذلك فحسب بل وأحدثت أيضا بعض الميزات الواضحة، لقد قطعت الثورة الاشتراكية في روسيا علاقات العالم الاشتراكي مع الدين، وأيضا مع

مسلَّمات وأفكار دينية فاسدة ومحرفة لا دليل عليها. ففي طوائف المسيحيين أو المسلمين على السواء.. هناك مفاهيم دينية من ظلمات القرون الوسطى.. خَلقت في كثير من مجالات العقيدة انحرافاً باعد بين العقائد الدينية وحقائق الكون.. بحيث لا يمكن أن تكون هذه العقائد والحقائق صحيحة في نفس الوقت. واحتاج الأمر إلى نشأة عقلية خاصة كيلا يضطرب المرء لرؤية ما هنالك من تناقض بين الأفكار الدينية وحقائق الطبيعة. والتعايش مع هذه المفارقات ربما لا يكون سهلا.. إلا إذا تربَّى الناس عليها جيلا بعد جيل، فيصلون بالتدريج إلى حال تستطيع فيها المجتمعات الدينية على نحو ما أن تتعايش مع هذه المتناقضات دون أن تلحظ وجودها.

ومن بين أشياء أخرى فعلتها الثورة الشيوعية بشعبها أنها غسلتهم تماما من العقائد الفكرية، وشفتهم من الحَوَل وازدواج الرؤية. وهذا بدوره وهبهم نوعا من الطهارة لا يمكن الحصول عليها إلا في غيبة النفاق تماما. ولا يزال الوقت مبكرا للحكم هل ستكون هذه البراءة لصالح أخلاقهم في وقت الصراع الصعب القادم أم لا. ولكن هناك شيئا واحدا مؤكدا.. ذلك أنهم أسهل كثيرا من أي قوم آخرين في هذا العالم من حيث الاستعداد لتلِّقي رسالة الحق وتقبلها بلا تحيزات.

لكن واحسرتاه، لا يمكننا القول بمثل هذا عن الميول الفردية المتنامية فيما يُدعى بالشعوب الحرة في عالم اليوم.. فمن الممكن لأحدهم أن يفعل أي شيء.. مبرراً هذا التحلل باسم الحرية الفردية. ولما كان الأمريكان

هم زعماء هذا الاتجاه.. فإن أمريكا تؤثر تأثيرا كبيرا وعميقا على بلاد العالم الأول في أوربا، بل على بلاد العالمين الثاني والثالث أيضا.

هذا هو المفهوم المشوه عن الحرية الفردية الذي يحرر المرء من نظام الحياة الأخلاقية، والذي له صدى يسمع بعيدا هناك مخترقا ستائر الفكر الاشتراكي العلمي. الخلعاء والمساحِقات، ومدمنو المخدرات، وعصابات حالقي الرؤوس، والبغايا، والمجرمون من كل صنف.. يزدادون كل يوم عددا وقوة. إذا سمع أحدهم نصحا رد ببساطة على من يعظه: وما المانع؟ لقد أصبحت وقاحتهم هذه تحديا منذرا بالسوء للمجتمع المعاصر.

مناخان للنظام الاجتماعي

يصف القرآن الكريم مناخين اجتماعيين:

أحدهما يزدهر في الشر بحُرية.

والثاني يُشكَم فيه بشدةٍ نمو الشر.

فإذا شرعنا ندرس تعاليم الإسلام الخلقية جزءا جزءا.. فسيكون من العسير على العقل الغربي أن يتفهم فلسفتها، ذلك لأنه ينبغي دراسة التعاليم الخُلقية على أنها أقسام من مناخ اجتماعي، ويجب أن يُنظَر إليها في مجموعها. لا يمكنك أن تفهم وتقدِّر أهمية فصل الخريف بمجرد النظر إلى أوراق الشجر الجافة الساقطة أو إلى لون الأغصان المتغير، بل عليك

أن ترى وتحس جوَّه ومزاجه كله لتعرف ما هو الخريف وما يفعله للحياة النباتية. وبالمثل، فإن العصفور الواحد لا يمثل الصيف كله. فبينما يبطئ الخريف خطى الحياة فإن الربيع يشجعها. إنه ليس مجرد تغير في درجة الحرارة.. ولكن عندما تأتي نفس الرياح لتنفث الحياة يتبدل المناخ كله. وكذلك النظم الاجتماعية كالفصول المناخية.. لكل منها صفاتها وتأثيراتها.

بطلان المجتمع المادي وغايته النهائية

يتناول الإسلام هذا الموضوع بنفس الطريقة تماما. دعوني أولا أصف لكم المجتمع الذي يُعد في نظر القرآن غير إسلامي:

﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو وزينة وتفاخُر بينكم وتكاثُر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه، ثم يهيج فتراه مُصفرّا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾(سورة الحديد:**٢١**)

..فما يجري في هذه الحياة الأرضية هو من قبيل اللعب، وتزجية الوقت، والتفاخر، والتنافس في جمع الأموال، وإنجاب الذراري.. كالمطر الذي ينبت زرعا يعجب الزراع لوقت محدود، ثم يصفر الزرع ويجف ويصير حطاما تافها. ثم في الحياة الآخرة عذاب شديد للأشرار، ومغفرة ورضوان من الله للأتقياء. وليست هذه الحياة الدنيا سوى استمتاع مؤقت بأشياء زائلة.

ويشير القرآن مرة أخرى إلى بطلان الحياة المادية وتفاهتها فيقول:
﴿والذين كفروا أعمالُهم كسراب بِقيعة.. يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد اللهَ عنده فوفّاهُ حسابه والله سريع الحساب﴾ (سورة النور :٤٠)

..إن أعمال الكفار كسراب في صحراء يظنه العطشان ماء، فإذا وصل إلى موضعه لم يجد هناك شيئا.. بل وجد العقاب الإلهي في انتظاره.

يصور القرآن التكالب على الحياة المادية كسراب يعذب العطشان.. إذ لا ينفك يهرب منه حتى ينهكه الإرهاق.. فلا يستطيع المضي في طلبه بعد ذلك. هذا عندما يترل به العقاب فيدرك أنه كان يسعى وراء هدف باطل فارغ.. ويذوق مرارة الجري وراء الخواء. هذا هو العقاب الذي يلقاه من يجري وراء تفاهات الحياة الدنيا. وهكذا – طبقا للقرآن الكريم – تكون نهاية هذه المجتمعات.

وفي مقابل هذا.. يناصر الدين نظرية تعلن أن الحياة على هذه الأرض ليست كل شيء أبدا، بل هناك حياة أخرى قادمة. فإذا كنا لا نموت ميتة دائمة هنا على هذه الأرض.. بل سنواصل الحياة بصورة أخرى — كما يعتقد الإسلام وكثير غيره من الأديان؛ وإذا كانت الحياة الدنيوية لا يمكن أن تؤخذ منفصلة عن الحياة الأخروية؛ وإذا كان لا بد من فهم الحياتين على أن إحداهما استمرار للأخرى.. فمن الحمق البالغ إذن تجاهُلُ دور المؤثرات الاجتماعية على شخص يحيا هنا على الأرض.. إذ

لا بد أن يؤدي الشر والمؤثرات اللاأخلاقية والفاسدة إلى ولادة نفسٍ فاسدة في الحياة الآخرة.

كفران الحياة الآخرة

لسنا الآن بصدد البحث التفصيلي في فلسفة الإسلام حول الحياة بعد الموت.. وإنما تكفي الإشارة هنا إلى أن الكيفية التي نقضي بها حياتنا على الأرض – حسب المفهوم الإسلامي – تؤثر في أرواحنا على نحو ما تؤثر على الجنين بعضُ الأمراض التي تصيب الأمَّ الحامل. قد يولد الطفل معوَّقا أو مشوها فتكون حياته عذابا بين أطفال أصحاء أسوياء.. فالمسكين يقاسي عجزه. ويزداد عذابه مرارة وشدة عندما يكتمل إدراكه بعجزه. هذا، بإيجاز شديد، بحسب المفهوم الإسلامي.. هي الكيفية التي نصنع بها جنتنا أو نارنا.

وينبغي أن يكون قد اتضح في هذا السياق أنه يجب رفض أي نظام اجتماعي – مهما كان جذابا أو مغريا لذوي النظرية السطحية – ما دام هذا النظام يشجع على سلوكيات يعوزها الشعور بالمسؤولية، متمردة على الأخلاق والحشمة، شريرة مؤذية.

نعم، لا بأس بأن يقول المؤمنون أقوالا، ويدَّعوا ادعاءات حول طبيعة العالم الآخر.. ولكن من ذا الذي عاد من هذا العالم الآخر ليقدم الشهادة في صالح هذه الادعاءات أو ضدها؟ ولماذا لا نقنع بعصفور في اليد بدلاً من عشرة على الشجرة؟ هذا هو جواب المادية على الفلسفة

الإسلامية فيما يتعلق بكيفية تشكيل المجتمع، وبالمبادئ التي يتأسس عليها.

إن الفلسفة الإسلامية تصوِّر الحياة على هذه الأرض والحياة الآخرة كنهر جار يتوقف لحظة عند الموت.. الذي ليس في الحقيقة إلا مرحلة انتقالية من حياة إلى أخرى. وعلى النقيض من هذا.. يتخيل الفلاسفة الماديون أن الحياة فترة من الشعور قصيرة عرضية.. تضيع في العدم لحظة الموت. ومن ثم فما على النظام الاجتماعي سوى أن يدبر ما تحتاجه في هذه الفسحة القصيرة من الحياة. والإنسان مسئول أمام المجتمع فقط ما دام حيًّا، وفقط من خلال الجانب المنظور والملموس من الحياة. أما ما يخفى ولا ينكشف من أفكار ونوايا، وخطط ومؤامرات، وجرائم شريرة.. فلا مسئولية عليه.

ثم إن الجرائم ضد المجتمع تدان بوصفها جرائم فقط عندما يتقرر – دون أدنى شك معقول – أن جريمة قد وقعت. وهناك احتمال لسوء تطبيق العدالة. وفي مثل هذا النظام الاجتماعي يكون تطبيق العدالة سطحيا ومحدودا، بل ويؤدي أيضا إلى الإساءة للمجتمع. وهذا يروِّج للجري وراء المصالح المكتسبة، ويشجع الفرد على الأثرة الشديدة.

ومن المشوِّق أيضا ملاحظة أنه في المجتمعات اللادينية أو الشبيهة بها.. حيث يُرفض تماما مفهوم المسئولية بعد الموت، أو يُنظر إليه باستخفاف وإبهام حتى لم يعد لــــه عندهم مغزى.. يتعذر حقًّا في هذه المجتمعات العثور على تعريف للجريمة تتقبله تماما فلسفة أخلاقية قويمة. ومن

الصعوبة بمكان أن يتوقع من شخص من مجتمع إلحادي أن يقتنع حقا بأنه ارتكب خطأ بمخالفته للقانون. فما هو القانون على أية حال؟ أليس هو كلمةَ طاغيةٍ أو حاكمٍ مستبدٍ.. أو قرارًا من نظام شمولي أو إلزامًا من أغلبية ديموقراطية؟ فأي هذه الأمور – في نظر الشخص العادي – يبدو تشريعا عادلا يقوم على فلسفة أخلاقية سليمة؟ ثم ما هي الفلسفة الأخلاقية حقا؟

إذا لم يكن الإنسان يدين بوجوده لأي كائن، وإذا لم يخشَ من المؤاخذة في الحياة الآخرة على سلوكه خلال حياته الدنيوية — إذ لا يؤمن بحياة أخروية.. لكان جوابه عن هذه الأسئلة المطروحة مختلفا جدا عما يقتضيه مجتمع مسئول، إذ ليس أمامه سوى هذه الحياة القصيرة ليحياها، وهو لا يحتاج إلى المجتمع إلا لمنفعته الشخصية، ولا يخضع للسلطات العليا من المجتمع إلا بحكم الضرورة، ولو استطاع الفرار بمنفعة يقتنصها لنفسه؛ أو اختلاسَ لحظات من المتعة هنا وهناك.. وكان من المهارة بحيث يتمكن من الإفلات ولا ينكشف أمره.. فلم لا؟ أي مانع أخلاقي يكف يده؟

هذا الموقف السيكولوجي تجاه الجريمة.. ينمو ويقوى مع مرور الزمن في المجتمعات اللادينية والمادية. وهذا تماما ما ذكره القرآن الكريم وبين أن هذا هو جوهر المجتمع المادي حيث حكى عقيدة الكفار:

﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾(المؤمنون: **٣٨**)

.. ليست هناك حياة سوى هذه الحياة الحاضرة وبعدها الموت. لسوف نحيا هنا فحسب.. ولن نقوم بعد الموت. إننا نرفض فكرة الحياة بعد الموت أو حياة أخرى.

وسخر هؤلاء الكافرون السابقون من أنبيائهم:

﴿وقالوا أ إذا كنا عظاما ورُفاتا أ إنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ (سورة الإسراء: **٥٠**)

.. هل نقوم بعد الموت في خلق جديد وقد تحولنا إلى عظام وتراب؟

﴿قالوا أ إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون﴾(سورة المؤمنون: **٨٣**)

وهذا في نظر القرآن هو محور كل الشرور في المجتمع المادي. ولذلك كان هناك تأكيد شديد على الحياة التالية، وعلى يوم الحساب.

في حديث عن ابن مسعود أن النبي ﷺ رسم مستطيلا، ورسم في وسطه خطا طوليا يَبرز طرفه العلوي من المستطيل. ثم رسم بضعة خطوط تقطع الخط الأوسط، وأشار إلى أن الرسم يمثل الإنسان، وأن المستطيل المحيط به يمثل الموت، والخط الأوسط يمثل رغباته، والخطوط القصيرة تمثل الابتلاءات والمحن في الحياة، وقال : لو فاتته واحدة من هذه المحن لوقع فريسة لواحدة أخرى (صحيح البخاري).

وفي حديث آخر وصف الموت بأنه هازم اللذات (سنن الترمذي).

أربع خصائص للمجتمع المادي

﴿ما سَلَكَكم في سَقَرَ* قالوا لم نكُ من المصلّين* ولم نك نطعم المسكين* وكنا نخوض مع الخائضين* وكنا نكذّب بيوم الدين﴾ (سورة المدثر:٤٣-٤٧)

..يُسأل أهل النار: ما الذي أدى بكم إلى هذا المصير؟ فيقولون: لم نكن نعبد الله، ولا نطعم الفقير، وكنا نخوض في لغو الحديث مع أمثالنا، وكنا ننكر يوم الحساب.

وليس هناك إجمال أدق وأشمل للسمات البارزة في المجتمع المادي واللاديني مما ذكر في الآيات السابقة.. وهو :

١- التخلف عن أداء العبادات.

٢- التقاعس عن إطعام الفقير.

٣- إطلاق العنان في الجري وراء الشهوات الباطلة.

٤- إنكار يوم الدين والحساب.

وقبل المضي في الحديث، دعونا نتخلص من تشويش يُصعِّب التشخيص الصحيح لحال المجتمع. فهذه الشرور تزدهر حتى في المجتمعات التي يبدو فيها الإيمان بالله واليوم الآخر قويا جليا، بحيث لا يمكن معه منطقيا تصوُّر وجود هذه الشرور بين المؤمنين بالله وبالحياة الآخرة وما يترتب على ذلك من مسئولية كاملة.

ويرد هنا تساؤل: لماذا تبقى مثل هذه المجتمعات مادية في جميع خصائصها بكل ما في الكلمة من معنى رغم إيمانها بالله واليوم الآخر؟

ولا يصعب العثور على إجابة لهذا السؤال لو تفحصنا طبيعة معتقداهم بنظرة عميقة. فالواقع أن مجرد الإيمان من بعيد بإله.. إيمانا سوفسطائيا.. لا يمكن أن يؤثر في سلوك مجتمع يتكون من مثل هؤلاء المؤمنين، ذلك لأن مثل هذه المعتقدات تظل نظرية، ولا تترجَم أبدا إلى سلوك تقي مسئول. كيف يمكن أن يتعايش إيمان حقيقي بالله تعالى مع الكذب والبهتان، والأنانية المتطرفة، واغتصاب حقوق الآخرين، والفساد والقسوة؟ إن مفهوم الإله في مثل هذه المجتمعات سطحي، وهمي، خيالي بحيث لا يمكن أن يؤدي دورا فعالا في تشكيل السلوك الإنساني.

وبالمثل، فإن إيماهم بالحياة الآخرة والحساب قد تضاءل حتى صار ظلا باهتا لاحتمال بعيد. فعند كل لحظة للاختيار.. تتغلب المصالح الوقتية وتطغى على كل اعتبار للحياة الأخروية.

وعندما نتكلم عن المجتمعات المادية لا نعني تلك المجتمعات التي تمردت صراحة على فكرتَي الإله والحياة بعد الموت.. بل إن مجتمعات المؤمنين ومجتمعات الملحدين – رغم التعارض التام بين أيديولوجياهما – متشابهة من الناحية العملية تشابها كبيرا.

المسئولية والحساب

ومن ناحية أخرى يعلن القرآن المجيد:

﴿لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبْكم به الله. فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. والله على كل شيء قدير﴾(سورة البقرة: ٢٨٥)

.. كل ما في السماوات وما في الأرض هو لله جل وعلا.. هو السيد المالك الذي لـــه مطلق الحق في أن يُشكِّل أقداركم وسلوككم الاجتماعي. وسواء أخفيتم ما في قلوبكم أو أعلنتموه.. فلسوف يحاسبكم ويسائلكم عن أفكاركم وأفعالكم الصالحة والشريرة، ثم يغفر لمن يراه أهلا للمغفرة، ويعاقب من يعتبره مستحقا للعقاب، فالله تعالى له القدرة الكاملة على فعل ما يشاء.

ويضيف القرآن إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ولا تقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلٌّ أولئك كان عنه مسئولا﴾(سورة الإسراء: ٣٧)

.. لا تتبع ما لا تعلم، لأنك سوف تحاسَب عن سمعك وبصرك وقلبك. ويعني القرآن بكلمة (الفؤاد) هنا قوة الحياة الأساسية التي هي وراء كل فعل بشري. فـــ (الفؤاد) في التعبير القرآني يعني الإرادة الجوهرية الحاسمة في الإنسان، والتي تسيِّر العقل كما يسيِّر المرءُ الحاسب الآلي.

هذه الإرادة الأساسية هي مصدر كل خير وشر، وسوف تكون هذه الإرادة في صورة حياة جديدة بعد الموت – مع السمع والبصر – مسئولة أمام الله تعالى.

والآن هلمُّوا ندرس عن قربٍ المجتمعات الملحدة. الذي حدث هو أن الإلحاد والكفر بالحياة الآخرة يرقدان في غموض واستتار في حالة شبه وعي. فمن الممكن أن يشارك المرء – ظاهريا – في عقيدة وجود الله واليوم الآخر، ولكنه من الوجهة العملية يبدو كأنه لا وجود لهما عنده.

يتطلب الأمر أحيانا أن تقع للمرء أزمة لتنتقل هذه الحقائق الخفية إلى عقله الواعي. وأحيانا تعيش أجيال فلا تدرك حقا ما في معتقداتها من تقلب وهشاشة. وينقضي عهد فيخلي السبيل شيئا فشيئا لبزوغ عهد جديد.. ويميل المجتمع عندئذ في مجموعه إلى فحص هذه المعتقدات الموروثة ومراجعتها. وفي مثل تلك الأوقات يطفو الإلحاد والكفر على السطح، وقد كانا من قبل كامنين لا يلقيان تحديا. وفي مجتمع كرَّس حياته لملاحقة المتع بلا ضابط أو تمييز.. فإن الكفر بالله واليوم الآخر – عن وعي – يعجِّل بعملية انحطاط القيم وتلاشيها.

إن مسيرة الحضارة – بغض النظر عن مكانها من العالم، وزمنها في التاريخ البشري – تتجه دائما من الجلافة إلى التهذيب. والحوافز الفسيولوجية الأساسية في الإنسان – التي تعمل كقوى محركة وراء السلوك البشري – تبقى ثابتة، والذي يتغير هو الاستجابة لهذه الحوافز. وعلى سبيل المثال، يمكن للمرء إشباع جوعه بأكل لحم أو خضار، ويتفاوت اللحم والخضار نوعية وطزاجة. كما يمكنه تناول طعامه مطبوخا أو متبلا بطرق كثيرة، أو حتى يأكله نيئا إذا أراد.

ومع تطور المجتمع.. تبدأ الاستجابات لهذه الحوافز الأساسية تتطور وتزداد تهذيبا وحنكة. وتستمر هذه العملية بغير انقطاع، وإن كانت سعة خطاها وسرعتها تتحدد إلى حد كبير بالعوامل الاقتصادية والسياسية للناس. ولكن طليعة المجتمع تتقدم دائما ببطء أحيانا وبخطى أسرع أحيانا أخرى.

وعندما تنضج الحضارة وتبلغ رشدها تعمل الحذلقة المبالغ فيها، بالإضافة إلى ظواهر هدامة أخرى.. في عكس اتجاه هذا المد التقدمي. وفي المجتمعات المتدهورة يرتد الاتجاه من التهذيب إلى الجلافة. وهذا الموضوع له تطبيقات واسعة، ويتطلب دراسة مستفيضة. وهذا خارج عن مجال خطاب اليوم، ولكني أستأذنكم أن أتوسع في الحديث عن بضع نقاط.

عندما تبدأ المجتمعات في الانحلال، أو تفقد توازنها وتتعرض للانقلاب بسبب الحذلقة المبالغ فيها.. يأخذ الناس في التردي والانتكاس إلى نفس الاستجابة الحيوانية الفجة لحوافزهم. قد لا يُلاحَظ هذا في كل أوجه النشاط الاجتماعي أو الثقافي، ولكنه يكون واضحا على الأغلب في العلاقات الإنسانية، وفي أسلوب الجري وراء الملذات. ومن دراسة وجيزة لحال الإنسان في استجابته لحافز الجنس تتضح القضية التي نحن بصددها.

لقد أضفت الطبيعة في المملكة الحيوانية كلها، أحاسيسَ اللذة على هذه الغريزة الأساسية لأجل التكاثر من خلال التجدد الجنسي. والفارق بين

الحيوان والإنسان كما نلحظه في المجتمع البشري.. هو تحول تدريجي من مجرد إشباع الرغبات الفجة إلى موقف أكثر تهذيبا لتحقيق نفس الحوافز.

لم ترد الطبيعة أن يكون الجنس غرضا نهائيا، وإنما التوالد وتكاثر الأنواع هو الهدف الجوهري.. والجنس أمر ثانوي فحسب. ولكن عندما تنحل المجتمعات ينقلب الحال أو يكاد.

وقد ينظر عالِم الاجتماع إلى التطور التدريجي في نظام الزواج وما يصاحبه من طقوس، وما للتفاعل بين جنسي الذكور والإناث من حرمة.. باعتباره ظاهرة ناتجة عن النمو الطبيعي للمجتمع لا علاقة لها بالدين؛ ولكن سواء النمو موجها من أعلى، أو ظاهرة عشوائية تتقدم ذاتيا.. فلا نكران لحقيقة أن الاستجابات لإشباع هذا الحافز الأساسي تزداد بالتدريج حذقا وتشابكا.

ثم إن الزيادة في العلاقات المختلطة غير المشروعة للذكور والإناث لدلالة على نفس هذا الانقلاب. إنه ليس مجرد موقف متساهل متحرر تجاه العلاقات الجنسية، ولكن هناك في الواقع ما هو أكثر من ذلك بكثير. هناك أمور تصاحب هذا الموقف لتبدل تماما جو هذا المجال شديد الأهمية من اهتمامات الإنسان ونشاطاته. وأصبح الجدال حول شرعية أو حرمة مثل هذه العلاقات أمرا من تراث الماضي لا يؤبه له.

وهناك بلا ريب كثير من الجماعات الصامدة ذات العقلية الدينية تواصل مناقشة هذه المسألة، ولكن خلال مناقشاتهم في وسائل الإعلام

لا يفوت المرء ملاحظة أن أولئك القوم من الطراز القديم والعقلية الدينية الصارمة قد تناقصوا وصاروا أقلية ضئيلة.

في الغرب أصبح اعتبار الجنس حافزا طبيعيا ينبغي الاستجابة له دون أي موانع هو الرأي الأكثر تماشياً مع العصر. ويتحول الحياء التقليدي في الحديث بين النساء إلى شيء مهجور من أمور الماضي، ويعتبر العري والسفور والتبذل، والمناقشات المكشوفة والاعترافات الفاضحة بلا تحفظ.. مجرد تعبير عام عن الحقيقة.

ولا يبدو أن أحدا يهتم ببسط هذه الحجة لتطبق على سائر الحوافز الإنسانية الفطرية. أليس من الدوافع الحيوانية التي يشترك فيها الإنسان أيضا.. رغبة الكائن في تملّك ما يحب؟ أليس من الحوافز الحيوانية أيضا الشعور بالغضب والثورة وإطلاق العنان للمشاعر في أشد صورة وحشية ممكنة؟ إن الحوافز تدفع الكلب الضعيف كما تدفع القوي؛ ولكن هذا يعقِر.. في حين يكتفي الضعيف بالنباح على الأقل.

ما هي الحرمات في المجتمع؟ وما هي قواعد السلوك المتحضر؟ وما هي مفاهيم الحشمة واللياقة وما إلى ذلك من قيود.. التي لا تنفك تتدخل في حرية التعبير عن الدوافع الفطرية؟ لماذا يلزم أن يكون الجنس وحده هو القوة الدافعة التي تُطلق وتُعطى الرخصة لتعبر عن نفسها.. دونما اعتبار لتقاليد أو معايير أو لياقة أو ملاءمة أو انتماء أو نحو ذلك؟

إن ما هو ملاحَظ اليوم ظاهرة ينبغي تبصّرها وتحليلها. فإن ما يُسمى تساهلا في العلاقات الجنسية ينعكس في صورة نزوة متنامية نحو السرقة

والسلب في نواح أخرى من النشاطات البشرية، فضلا عن إيذاء وظلم الآخرين. إن الانطلاق وراء الملذات بذوق فاسد إنما ينبعث من نفس الميول المنحطة التي تدمر أسمى صروح المدنية، وترتد بأسلوب الحياة إلى نقطة البداية.

إننا لا نلاحظ فحسب تزايدا مستمرا في حجم الطقوس والمحرمات والأوامر والنواهي التي تفرضها المجتمعات على الأفراد، بل ونجد أيضا انغماسا في الغراميات والغزل يلعب دورا حيويا في هذا المجال. وما الشعر والأدب والفن والموسيقى والإبداع الفني والأزياء والاستعراض وحب العطور ونمو السلوك اللائق المهذب – كليا أو جزئيا على الأقل – إلا ثمرات ثانوية لنفس الدافع الأساسي تظهر في صورة استجابات اجتماعية.

قد يأتي وقت يشرع فيه جيل من المستقبل في التمرد ورفض منجزات المجتمع التي تحققت بعد آلاف السنين من التقدم؛ وربما لا يأخذ هذا التمرد صورة الرفض الشامل لكل شيء.. ولكن لا يفوت العين الفاحصة أن تلاحظ الحركة في هذا الاتجاه. وليست الهيبّية، والبوهيمية، والسادية، وتزايد العنف المصاحب للجنس، وانتكاسة السلوك الجنسي إلى مظاهره البدائية الوحشية الفجة.. إلا أمثلة قليلة للارتداد القهقري في الميول كما ذكرنا آنفا.

ما على المرء إلا أن يقوم بمغامرة، فيراقب جماعة من الشباب المتمردين الشُّعث حيث يقيمون في أوكارهم.. ليدرك ماذا يحدث للأجيال

الشابة. هناك يبدو أن القذارة والنتن قد حلتا محل النظافة والطيب. وتخلى اللباس النظيف عن مكانه للأسمال الرثة المهملة. وولت الأيام التي كانت بقعة صغيرة في الثوب تسبب حرجا بالغا للشاب. وأصبحت سراويل الجينز البالية والممزقة عمدا لتكشف اللحم من تحتها.. أصبحت أثمن عندهم من سروال جديد. ولا ريب أن ليس المجتمع كله يبدي مثل هذه العلامات المتطرفة تدليلا على التبرم بالماضي والتراث التقليدي، ولكن عندما يدخل المرض فقد لا يلتهب الجسد كله. قد تظهر بعض الالتهابات هنا وهناك فتكشف عما تحتها من حالة مَرَضية أو علة دفينة. وتأخذ اللامسئولية في الاتساع، وتصبح الفوضى وعدم الانضباط هي نظام اليوم. وتبدأ علامات أخرى للتدهور تطفو على السطح في مجالات مختلفة من الاهتمامات البشرية.

ويتطلب السعي وراء الملذات في كل مناحي الحياة تغييرا وتجديدا وتنوعا لتتوفر للمرء نشوة أعظم. لم تعد الأشياء التي كانت تشبعه بالأمس تكفيه اليوم. وفَشِلَ التدخين والمسكرات التقليدية في إحداث المتعة التي ينشدها المجتمع الضجِر المتململ باضطراد. لقد أخذت العقاقير المخدرة من كل نوع تظهر بحيث لم يعد أي تدبير كافيا للحد من إدمان المخدرات المنذر بالشر. ومع كل ذلك فإن مدمن المخدر لا يزال يبحث عن نشوة أعظم، ومن ثم اختُرعت مخدرات تخليقية أقوى تأثيرا وأشد إدمانا وفتكا.

وفي مجال الموسيقى.. أخذت تسيطر هذه الميول نفسها بالتدريج خلال العقود القلائل الأخيرة من هذا القرن. وتزودنا دراسة تطور الموسيقى أثناء القرون الحديثة — بإزاء التغيرات السريعة المهيجة للسمع التي شهدناها في العقود الأخيرة من هذا القرن — بمعلومات للمقارنة مثيرة ومشوقة.

لا أعرف الكثير عن الموسيقى شخصيا، ويُلتمس لي العذر لو كانت بعض ملاحظاتي عنها غريبة عن حقائق دنيا الموسيقى.. ولكن حدسي يجعلني أعتقد بأن التطور التدريجي في الموسيقى خلال القرون الحديثة في الغرب كان في اتجاه السمو والانتقاء والفخامة. وقد وفرت مثل هذه الموسيقى سلامَ العقل والقلب معا. وكانت أفضل الموسيقات ما توافقت وتشبعت بالموسيقى الإنسانية الكامنة في العقل والروح. وكان الانسجام والسلام هما الهدفان النهائيان اللذان سعى إليهما تطور الموسيقى. وبالطبع كانت هناك مقاطع في أعمال المؤلفين والفنانين خلقت صورا صوتية لهذه الثورات البركانية والأعاصير والعواصف، وإحساسا بالهيجان تطابقت مع ظواهر الطبيعة الخارجية. وحُفظت ذكريات هذه الصور وبقيت عالقة لا تنمحي من جهاز الذاكرة للحياة. وأحيانا كانت تصل الأنغام إلى الذروة وكأنما العالم كله على وشك الانفجار، ومع ذلك كان جمهور المستمعين يجلسون بلا حراك، غارقين في طوفان الموسيقى دون أن يرمش لهم هدب.. إلى أن يهبط عليهم سكون فجائي شامل. وعندئذ فقط تنفجر الصالة في تصفيق

مدوٍ طويل. وما كانت أشد النغمات علوا وأكثرها شحنا بالعواطف لتحوِّل السامع إلى كائن عنيف هائج متمرد. كانت رسالة الموسيقى رفيعة باعثة على السلام والانسجام. كانت تُظهر في الإنسان أحسن ما فيه وتوقظه، ويختفي منه الأسوأ.

واحسرتاه! نلاحظ خلال العقود القلائل الأخيرة ظاهرة مختلفة تماما. لقد صُمَّت آذان الجيل المعاصر بموسيقى قادرة على استثارة كل ما هو فظ بهيمي من شهوات الحياة. ويندفع نحو الجنون جيل مشوش مضطرب، يجد نفسه متناغما مع مثل هذه الموسيقى وحدها. وكلما زادت عنفا زاد رواجها. ويُرجى التماس العذر لي لو صدرت مني ملاحظة تنم عن عدم درايتي بعالم الموسيقى الكلاسيكية والشعبية، ولكني على ثقة من شيء واحد.. ذلك أن العنف والتمرد والجنون ونزعة التدمير وما إلى ذلك.. تسارع كلها في إفساد الخصائص الإنسانية النبيلة.

ويبدو أن البروفيسور بلوم Bloom – ولا بد أن يُعزى إليه بعض المعرفة بالموسيقى الغربية – يوافقني بما جاء في كتابه « The closing of the American Mind ، أي انغلاق العقل الأمريكي»

حيث نعى فيه ضياع الأحاسيس في المراهقين من أبناء العصر الحالي، الذين – على حد قوله – فقدوا إنسانيتهم بسبب الاستماع المستمر لموسيقى الروك، والتي يرفضها البروفسور بوصفها طعاما روحيا منحطا.

هناك علامات كثيرة مرئية وملموسة لهذه الحالة المرَضية في المجتمع، التي تجعل حياة الإنسان شيئا فشيئا أكثر اضطرابا وعوزا إلى الطمأنينة والرضا والسلام والأمان. قد ينكر الإنسان وجود الإله كما يشاء.. ولكن ليس بوسعه إنكار وجود طبيعة قديرة.. تعرف تماما كيف تعاقب عندما تُرتكب الجرائم ضدها.

في كل المجتمعات المادية.. تكون العوامل الرئيسية المسئولة عن النمو المطرد في الشر وتفاقمه هي نفسها تقريبا. ولقد سبق بحث بعضها، ولذلك سوف نعدد بإيجاز العوامل المسئولة على سبيل التذكرة وهي :

أ- تزايد الاتجاه الإلحادي؛

ب- ضعف الاعتقاد في وجود إله حقيقي مقتدر.. يهتم اهتماما فعليا بشؤون البشر وكيفية تشكيل سلوكهم؛

ج- ضعف مستمر في الاعتقاد بما للتقاليد والأخلاق من قيم؛

د- تزايد الميل إلى التغافل عن الغايات، واعتبار الوسائل ذاتها غايات.

هذا هو الموقف السائد فيما يدعى بالمجتمعات المتحضرة أو المتقدمة في العالم. ومع الذبول المستمر في القيم الخُلقية والسلوكية.. أخذ هذا الحال يسيطر ببطء على العمليات التشريعية والتنفيذية في الحكومات. وفي غيبة القبول بقانون إلهي، وقيم أخلاقية مطلقة؛ ومع تحدي التقاليد النبيلة وإنكارها في الحياة اليومية.. أصبحت عملية التقنين لضبط وتقويم

السلوك الأخلاقي أكثر تهاونا ولينا. وأخذت القواعد التي تتأسس عليها القوانين الأخلاقية تختفي بعيدا.

ويدل على قولنا هذا بحث دراسة مقارنة للقانون في هذا المجال عبر القرون القليلة الماضية. لقد ولّت أيام «أوسكار وايلد» عندما كان المجتمع يعتبر اللواط جريمة يعاقب عليها القانون بلا رحمة. ومضت الأيام التي لم تكن العفة فيها مجرد فضيلة.. بل وديعة اجتماعية، يُحاسَب عليها من يفرِّط فيها. الآن.. لم يعُد اللِّين إزاء الجريمة نذيرَ سوء. وهذه هي المشكلة.

ويمر تعريف الجريمة نفسه بتغيير أساسي. ما كان يُعتبر بالأمس جريمةً.. لم يعد كذلك اليوم. وما كان يُستر بالأمس حياء أو خشية الملام.. يُكشف اليوم ويعرض بزهو كبير. لو كان هذه الفلسفة سليمة جديرة بالبقاء.. لكانت كل الفلسفات الأخلاقية والسلوكية الأخرى باطلة لا حاجة إليها، ولم تعد تحقق أي غرض في الزمن الحالي. إن القوة الدافعة في الطبيعة، سواء في عالم الأحياء أو الجماد، هي المبدأ الكوني القوي: الجريمة والعقاب، والخير والثواب. يمكن أن يلاحظ هذا المبدأ نافذا وساريا حتى في عالم الجماد.. وإن كان عالم الجماد غير واع لقانون الطبيعة هذا. أما في عالم الأحياء.. فقد كان التطور قبل خلق الإنسان مسوقا بنفس هذا المبدأ.. الذي اكتسب حالة شبه وعي أو شبه كمون. وعندما نصعد من أدنى درجات السلام في سلم مراحل التطور حتى نصل الإنسان.. فإن الرحلة تمضي من الأقل إلى الأكثر وعْيا. ويوصف

مبدأ (الجريمة والعقاب والخير والثواب) في مصطلح التطور بـــ (بقاء الأصلح). ويبقى هذا هو الدافع والقوة المحركة خلال عملية التطور بأكملها، ويسوق التطورَ إلى الأمام وإلى أعلى.

وغير معقول.. بعدما وصلت هذه العملية إلى كمالها في الإنسان، وهو أفضل المخلوقات، واكتسب الوعيُ آفاقاً تجاوزت خيالات الوحشية والبهيمية.. أن يُرفع فجأة قانون (الجريمة والعقاب) ويبطُل استعماله. إذا كان هناك هدف أسمى للخلق.. للزم أن يكون هناك شيء من المسئولية.. ولولاها لصارت العملية كلها لغوا بلا معنى.

ومن المدهش للغاية أن أناسا من أعظم العقلانيين والمثاليين.. فشلوا أحيانا في رؤية حقيقة بينة بديهية كهذه. هكذا كان الحال مع ألبرت أينشتين (Albert Einestein) صاحب النظرية النسبية.. عندما أبدى هذه الملاحظة: « لا أستطيع أن أتصور إلها يكافئ ويعاقب الهدفَ الذي من أجله خَلق، إلها صيغت أغراضه على غرار أغراضنا، وبالاختصار.. إله ليس إلا انعكاسا لضعف الإنسان».

لو كان هناك إله، رب خالق — ولا يستطيع أينشتين إنكار وجوده — ولو كانت كل القوانين العلمية السارية في خَلقه قد ابتكرها وخلقها وحكَمها هذا الموجود الأعظم نفسه.. فلا يُعقل منه أنه يهجر الهدف الأسمى لخلقه.. فيرفع عنه مبدأ الجريمة والعقاب، ويدع الإنسان يتخبط في فوضى من سلوك غير منضبط وغير مسئول.. فيضيع بذلك هذا الهدف من الخلق، ويتردى إلى حالته المنحطة الأولى.

وفيما يتعلق بالجزء الثاني من ملاحظته.. فيتضح أن أينشتين قد فشل في فهم دور الجريمة والعقاب في تقدم وتطور الخلق. ليس ذلك فحسب، بل إنه أساء تماما فهم معنى أن (الإنسان مخلوق على صورة الله).. فهذه العبارة لا تعني أن الإنسان نموذج كامل لله على الأرض. لو كان كذلك لكان العالَم أكثر من جنة أرضية، ولكان كل بني البشر سواء. ومن الطبيعي أن يختلف الرأي حول مكان على هذا الحال.. هل هو جنة أم هو مثير للملال.. إذ لا تنوُّع هناك ولا تغيُّر في الروائح والألوان والأصوات، بل هو كبحر ساكن حاشد بقطرات متماثلة لا لون لها!

كلا، ليس هذا هو المعنى أو الغرض من خلق الإنسان على صورة الإله. إن هذه العبارة غنية بالحكمة العميقة، تنطق بما وُهب الإنسان من إمكانيات. إنها تتحدث عن الهدف النهائي النبيل الذي يجب أن يسعى الإنسان لتحقيقه. هذا الهدف هو أن يكون الإنسان كاملا بالقدر الذي يمكن أن يصل إليه إنسان.. وذلك بالتحلي بالصفات الربانية، والظهور أشبه ما يكون بالله تعالى. وهذا ليس هدفا ثابتا يمكن للمرء أن يصل إليه، فيتنعَّم بالمجد الذي حازه بعد أن تحول إلى صورة الرب ثم يتوقف هناك. كلا، إن صفات الله تعالى مطلقة لا حد لها، ومن ثَم تظل كل رحلة إليه – سبحانه – طريقا بلا نهاية. والكمال في هذا المجال لا يعني سوى 'الحركة في اتجاه الكمال'.. من الدرجة الأدنى في سلم الرقي إلى الدرجة الأعلى منه. والله تعالى هو الأكمل والأعدل والأكرم.. ذو

الرحمة الكاملة، العليم الخبير، الرب الخالق، المالك ليوم الدين.. صاحب المحامد كلها. يقول القرآن الكريم:

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم* هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القُدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون* هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ (سورة الحشر: **٢٣-٢٥**)

هذا هو الإله الذي خلق هذا الكون. إنه – سبحانه – إله لا يصيبه الضعف البشري.

ولا ينفك القرآن الكريم داعيا المؤمنين إلى التفكر في آيات الله، فيقول مثلا:

﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير* الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور* الذي خلق سبع طِباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت. فارجِعِ البصر هل ترى من فطور* ثم ارجع البصر كَرَّتين ينقلبْ إليك البصر خاسئا وهو حسير﴾ (سورةالمُلك: ٢-٥)

إذا أدرك المرء مغزى الكلمات في عبارة (صورة الإله).. ثم عاد ببصره إلى القوى الكلية في عملية خلق الكون.. منذ زمن الانفجار الكوني العظيم إلى يومنا هذا.. لرأى أن رحلة الخلق بأكملها من اللاوعي إلى

الوعي.. هي في الواقع رحلة ليكون الإنسان على صورة الرب، أي يتحلى بالصفات الربانية.

المناخ الاجتماعي في الإسلام

وعلى الجانب الآخر، يهدف الإسلام إلى خلق مناخ يختلف عن هذا الرأي الذي وصفناه آنفا.. اختلاف الربيع عن الخريف. فمن خلال المفهوم الإسلامي للمجتمع.. يلطّف الإسلام ويقوِّم ويشذّب الرغبات الطبيعية.. التي لو تُركت بلا ضابط لأشاعت الفساد في كافة العواطف البشرية على اختلافها. ويرفض الإسلام أو يحَرِّم تحقيق تلك الرغبات التي تؤدي — في التحليل النهائي — إلى شقاء في المجتمع أكثر مما تحدثه من مسرة.

وفي نفس الوقت يغرس الإسلام أذواقا جديدة، ويولّد في الإنسان المقدرة على استخلاص المتعة والرضا من أفعال قد تبدو بلا لون أو نكهة أو طعم في نظر من حُرم التثقيف والتربية.. فتتلطف بذلك الأذواق، وتتهذب الرغبات الشهوانية الفجة، وتتربى لتصبح طموحات إلى ما هو أسمى.

ولكن القضية هي كيف نقرر بأن الاتجاهات الاجتماعية المعاصرة السائدة حاليا ليست صحية للمجتمع؟ والجواب في نظري أمر يسير. يُحكَم على الحالة الصحية للمجتمع بنفس الأعراض التي يحكم بها على صحة الأفراد. عندما يكون المرء في ألم واضطراب، غير عادي أو متدنيا

في ردود فعله، أو عندما يتغلب القلق على سلام وطمأنينة عقله وقلبه.. فلا يتطلب الحال رجلا بالغ الحكمة أو طبيبا متمرسا ليقرر أو يشخِّص بأن مثل هذا الإنسان جد مريض. وكل هذه الأعراض جلية بينة في المجتمع المعاصر.

ما أصدق كلمات المسيح عيسى (عليه الصلاة والسلام) عندما قال:
« من ثمارهم تعرفونهم. هل يجنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا؟ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة. وأما الشجرة الردية فتصنع ثمارا رديَّة. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة » (متى ٧: ١٦-١٨)

لقد بحَّ الناس أصواتهم صراخا من مرارة أثمار اليوم، ولكنهم على نحو ما.. لا يريدون استبدال الشجرة بواحدة أحسن منها. لقد عجزوا عن إدراك أن العيب ليس في الشجرة، وإنما هو في الثمار التي تحملها.

وينهض نظام المجتمع في الإسلام لاجتثاث شجرة الشر وزرع شجرة أخرى لتحل محلها.. هي أكثر منها صحة وسلامة ونفعا.

وطبقاً للقرآن الكريم، عندما حرِّمت على سيدنا آدم ثمار هذه الشجرة.. كان المعنى المراد من ذلك هو ما يبينه القرآن الكريم في قوله:
﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمةً طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء* تؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾(سورة إبراهيم: **٢٥-٢٦**)

الشجرة هنا مجرد رمز. ويتحدث القرآن بوضوح عن الفلسفة الطالحة في مقابل الفلسفة الصالحة بنفس اللغة الرمزية. ويصف الشجرة الفاسدة وحال الكافر فيقول:

﴿ومثلُ كلمةٍ خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثّت من فوق الأرض ما لها من قرار* يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (سورة إبراهيم: ٢٧-٢٨)

«الكلمة» في هذا المجال مستخدمة للدلالة على الفلسفة، والنظام، والجهاز.. مثلما استعملت «الكلمة» بمضمون أوسع في مستهل إنجيل يوحنا : «في البدء كان الكلمة. والكلمة كان عند الله. وكان الكلمة الله» (١/١)

مكتوب على فلاسفة الشر وأنظمته أن يكون مصيرهم هو مصير شجرة الشر التي تعجز عن اجتياز اختبار "البقاء للأصلح"، وفي النهاية تُقتلع وتتقاذفها الأعاصير الهائجة من مكان لآخر.

وفي الجانب الآخر، يُضرب مثال النظام الصحي السليم على أنه شجرة صحية سليمة ثابتة الجذور في أعماق الأرض، ويمتد جذعها وفروعها عالية لتصل إلى جو نقي سماوي، تتغذى بنور السماء، وتحمل ثمرات صحية نافعة في كل موسم.

ويصف القرآن المؤمنين بأنهم أهل إيمان راسخ بالله تعالى، وأن بناءهم الأخلاقي والسلوكي قائم بثبات وأمان على هذا الإيمان. وهذا يُسبغ على المفهوم الإسلامي للأخلاق والسلوك كمالا مطلقا.. لا يسمح

بالتعصب على أي مستوى من التقسيمات الاجتماعية أو الدينية أو العنصرية المعروفة.

ويعبر القرآن عن المبدأ المرشد الذي يطبَّق على الأنشطة الإنسانية كافة فيقول:

﴿ولله غيب السماوات والأرض، وإليه يُرجَع الأمرُ كله، فاعبدْه وتوكل عليه. وما ربك بغافل عما تعملون﴾(سورة هود: **١٢٤**)

وكذلك يقول:

﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾(سورة الأعراف: ٥٥)

وتبدأ كل الفلسفة الإسلامية وتختتم بأن السلطان المطلق لله تعالى.. الرب الخالق للكون.

أسس المجتمع الإسلامي

الآية القرآنية التالية هي الأقرب إلى المركز في هذا الموضوع:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تَذكَّرون﴾ (سورة النحل: **٩١**)

.. يؤكد الله تعالى على الأمر بالعدل، بل وما هو أكثر من العدل: إعطاؤك الناس أكثر من حقهم، وخدمة الإنسانية بمعاملة رحيمة كأنهم أقاربك. ويحرّم الله تعالى إظهار الشر – الذي يلاحظ في هذه الأيام بكثرة في التلفاز والإعلام والطرقات في معظم مجتمعات العالم؛ كما

ينهى عما يعتبر خطأ – لا بالمعيار الديني وإنما بحسب الضمير الإنساني، وينهى عن كل ما يؤدي إلى التمرد والفوضى.

وينطبق الجزء الأول من الآية على المجال الاقتصادي أكثر منه على المجال الاجتماعي، ويرسم صورة للمفهوم الإسلامي عن العدالة والتعامل الشريف والإحسان في معاملة قطاعات المجتمع الأقل حظاً.

وينطبق الجزء الثاني منها على صورة للمجتمع الذي يلتزم الإسلام بصنعه. وفي هذا الجزء من الآية.. يُحرِّم الإسلام كل ما يُعتبر خطأ بالمعايير العالمية.. كالسلوك البذيء المنافي للحشمة، والإهانة والإساءة، وكافة الشرور الاجتماعية التي يستهجنها الإجماع العام في المجتمعات البشرية بوجه عام.. دونما حاجة للرجوع إلى أية قيم دينية.

وبالمثل، يرفض الإسلام، ويدين بشدة كل اتجاه أو سلوك أو موقف قد يسوق إلى الفوضى والتمرد والعنف. وينبغي فهم التمرد على أنه يتضمن أي محاولة لا مبرر لها لقلب نظام مستقر. وليس ذلك كل شيء.. فحيثما ترد في القرآن الكريم كلمة «البغْي» فإنها لا تنطبق على الثورة المسلحة أو السياسية فحسب، بل تعني أيضا التمرد في المجتمع ضد التقاليد النبيلة والمعايير الأخلاقية والتعاليم الدينية والقيم الأدبية.

وتختتم الآية بتحذير واضح للمجتمع: إن هذه العظات ليست إلا لصالحه فحسب. وهذا يكمِّل صورة الملامح الأساسية لنظام اجتماعي إسلامي.

ويمكن أن نضيف هنا أن الجزء الأول من الآية مجدول جدْلاً متينا مع التعاليم الاجتماعية الإسلامية. فالمجتمع الذي لا يحس بآلام بني البشر الآخرين، ولا يميل إلى خدمة الإنسانية.. لا يمكن أن يوصف مثل هذا المجتمع بأنه 'إسلامي' .. مهما كان تمسكه بالجوانب الأخرى من تعاليم الإسلام الاجتماعية.

تعالوا نتوجه إلى بعض ملامح المجتمع الإسلامي كما يصورها القرآن. يؤكد الإسلام على خُلُق الاستقامة والولاء والأمانة، ويشجع تلك التدابير التي توطد سلام العقل والقلب. ويتخذ كافة الخطوات الوقائية من الانغماس في المتعة. ومن ثَم فإنه يُحرِّم كل مسلك يمكن أن يقود المجتمع إلى التسيب والإباحية.. مهما بدا بريئا في ظاهره وبدايته. إن الدمار الذي أصاب المجتمعات هائل ومتشعب، ومن المقدر لها أن تؤول إلى ما نجده اليوم في هذا العالم من اختلاط وتشوش.

في مثل هذه المجتمعات نجد هذا الميل للاندفاع بلا حدود نحو ابتغاء المتعة.. الذي يؤدي — من بين أمور كثيرة — إلى التفكك والدمار النهائي للعلاقات الأسرية. وعلى النقيض من ذلك.. يعزز الإسلام ويصون بحماس شديد روابطَ الأبوة والأمومة والأخوة والبنوة، ويهدف إلى تقوية الصداقة التي يتغلب فيها الجانب المثالي على النزعة الشهوانية.

العفِّــــــة

وفيما يتعلق بالخطة الخاصة بالنساء في المجتمع.. جعل الإسلام من مبادئه الجوهرية اتخاذ كل التدابير التي تُعلي من قدر العفة، والإخلاص، والتحفظ، والحياة الطاهرة النظيفة. فالتأكيد على حياة عفيفة.. معزولة عزلا جيدا عن مخاطر التلامس الكهربائي للحوافز الجنسية.. هو أحد المقومات الهامة للمجتمع الإسلامي. وهذا الجانب من التعاليم الإسلامية الاجتماعية هو في غاية الأهمية لحماية وبقاء النظام الأسري. وهذا الهدف من متطلبات الساعة الملحة.

يسعى الإسلام إلى توسيع وحدة الأسرة بدلا من حصرها في أضيق نطاق. يريدها أسرة يُشبِع فيها الإنسان قدرته على الحب ورغبته في أن يكون محبوبا، ليس اكتفاء بمجرد تحقيق الحوافز الجنسية.. وإنما بصداقة ورفقة رفيعة مهذبة.. كتلك التي تسود بالفطرة بين ذوي قرابة الدم الدانين والبعيدين. ومن المدهش أن عقلاء المجتمع الحديث فشلوا في ملاحظة الضعف البشري الذي يتجلى عندما تباح الملاهي التي يعرض فيها الجنس فتلعب في المجتمع دورا لا كابح له. والواقع أن هذه الأشياء تروج على حساب القيم الرفيعة، وتمتص دماء الناس كما تفعل الطفيليات.

لا شك أن "سيجموند فرويد" كان من نتاج مثل هذا المجتمع.. إذ طفق يحلل كل حافز بشري من خلال عدسات منظاره الجنسي. تطلّع من

خلاله إلى العلاقات الطاهرة الصالحة بين الطفل وأمه على أنها مرتبطة بالجنس. وعلاقة الأب وابنته لا حرمة فيها عنده.. بل هي أيضا نابعة من الجنس أو موجهة به. وكل ما فعله الإنسان تقريبا.. بصرف النظر عن وعيه به أو غفلته عنه.. كل ذلك في رأيه كان وليد حوافز جنسية عميقة كامنة فيما دون الوعي. وإني لأتساءل: هل وصل المجتمع في زمن 'فرويد' إلى درجة الإباحية السائدة اليوم؟ ولكن لا بد أنها كانت كافية بدرجة تولّد عنها مفهوم للنفس البشرية يسوده الجنس تماما. ولو كان 'فرويد' على صواب لكان ذلك أدعى وأولى ألّا يسمح المجتمع بلهو غير حذِرٍ في جوٍّ من هذه القوى الخطرة.. الخليقة بأن يتولد عنها شرارات مساسٍ كهربية مدمرة.

وا أسفاه ! لم يحاول المناخ الحالي للمجتمعات الحديثة أن يتفهم طبيعة ومميزات الجو الاجتماعي الإسلامي. وسواء وافق الإنسان — أم لم يوافق — على فكرة أن لله تعالى دورا في شؤون الإنسان وتشكيل قدره، وسواء كان الإنسان راغبا أو غير راغب في تعديل سلوكه الاجتماعي بما يوافق كلمة الله التي أوحى بها.. فهناك شيء واحد مؤكد: ذلك هو أنه ليس بمقدور الإنسان أن يهزم فعلَ الله (أي الطبيعة).. ولا كلمةَ الله (أي الوحي الحق). لا بد أن يكون فعلُ الله وكلمته في انسجام مع بعضهما ليكونا صالحين. وكل سلوك اجتماعي يتخذه الإنسان في تعارض مباشر مع كلمة الله حرِيٌّ به أن ينتهي إلى كارثة محققة.

لا يمكن للإنسان أن ينال ملذات غير محدودة أو غير مقيدة مهما كان راغباً فيها.كل ما في وسعه أن يقايض على قيم واختيارات معينة.والمجتمع الذي يسعى للتهرب من المسؤولية أو من حقائق الحياة مستعيناً بالمخدرات والعقاقير.. المجتمع الذي يستبد به الجنس والإثارة العابثة والابتهاج.. المجتمع الذي تُفسَد فيه الأذواق عمدا لتناسب سوقا مختَلَقة مصنوعة لأدوات الملذات ولُعَبها، والتي لا تصلح إلا لخَلْق الإثارة والتعطُّش إلى المزيد منها، سوقاً توجِّهه مؤسسات قوية غرضها الأوحد هو تكديس المال.. مثل هذا المجتمع يختار كل ذلك على حساب القيم الإنسانية النبيلة، وعلى حساب الطمأنينة وأمان المجتمع في مجموعه.. إذ لا يمكنك أن تظفر بالاثنين معاً، وتنال النقيضين في سَلَّة واحدة.

ويؤكد الإسلام على عكس ذلك تماما. إنه يبيح الملذات ولا شك، ولكن ذلك ليس على حساب الطمأنينة وراحة البال وأمن المجتمع. إنه يُحرِّم بشدةٍ كل تلك النزعات التي إن لم تُكبح فإنها تؤدي إلى الانحلال، وإشاعة الأَثَرة والاستهتار والفظاظة والجريمة والعنف.

إن المناخين المتولدين عن الفلسفتين على طرفي نقيض. ويدهشني أن بعض الناس ينسون أنه بإثارة المطامع وإطلاق العنان للشهوات في المجتمع لا يمكنهم الرجاء في الطمأنينة حقاً. فما من مجتمع في العالم – مهما كانت متانة اقتصاده – بقادر على أن يحتمل أجيالا منطلقة وراء شهواتها الشبقة بلا لجام أو حدود. وحتى في أغنى المجتمعات من هذا العالم.. هناك دائما من يملك ومن لا يملك. والذين حُرموا معظم

أسباب ومتطلبات العيش الأساسية يشكلون قطاعا من المجتمع أكبرَ كثيرا من تلك الفئة القليلة نسبيا التي تستطيع سداد ثمن ما تهوى. بل إن هذا أيضا مشكوك فيه.. لأنه مع نماء الثروة تتصاعد المشتهيات أيضا، وربما لا يعود الأثرياء قادرين على تحقيق كل أحلامهم. ولكن حال الأغلبية الفقيرة أشد سوءًا . فهم لا يتوصلون حتى إلى أساسيات مرافق الحياة.. دعك من أسباب الترف التي يستطيعها مجتمع البحبوحة والرخاء. وتتلاعب وسائلُ الإعلام الحديثة بهؤلاء الفقراء تلاعبا مهلكا. يوما بعد يوم.. تأتيهم حتى مساكنهم الحقيرة بصور وردية لأسلوب حياة رائع متألق في قصور فخمة، وحدائق أسطورية، وأسطول من سيارات فارهة، وحوامات وطائرات خاصة، وجيش من الخدم والحشم.. مع أن قِلة من أغنى الأغنياء هم الذين يحلمون ببلوغ هذه الجنة الأرضية. ومثل هؤلاء – بكل تأكيد – يفقدون الاهتمام ببيئتهم الخشنة الفقيرة، ولا يعود في البيت والمدفأة أي جاذبية لهم. وتقف ضحالة الثقافة ونقص الحضارة جنبا إلى جنب مع هذه الرؤية الوردية.. وفي هذا السياق تبدأ حقائق حياتهم تفقد كل معنى. وإذا كان هذا هو أقصى ما ينجزه مجتمع يقتات على ملذات باطلة ورؤى وهمية.. فلسوف يصبح دفء البيت وهدوءه مجرد سراب، ولن يبقى لهم بعد ذلك ما يعيشون من أجله في مستقبلهم.

قد يحتاج الأمر إلى أكثر من إجراء واحد لاستعادة الوحدة الأسرية التقليدية.. التي هي أساس ضروري للربط بين أعضائها بالثقة المتبادلة،

وبركون بعضهم إلى بعض، وبالدفء المولِّد للاطمئنان. ولربما قد تأخر بنا الوقت كثيرا لطَرق هذا الموضوع.

إن للإسلام رسالة واضحة، وخططا محددة.. بها يصون ويحمي ويحفظ نظام الأسرة العالمية، أو يعيد بناءها حيثما تهدمت. وطبقا للإسلام.. يجب أن يكون النظام بصدد كل نشاط اجتماعي منغرسا في الذهن.. من خلال الفهم والاقتناع، كي يعود التوازن المفقود.

الفصل بين الجنسين

بسبب الفصل بين الجنسين.. يسيء أهل الغرب بدرجة كبيرة فهم موضوع الحجاب في النظام الاجتماعي الإسلامي. وينشأ سوء الفهم هذا جزئيا نتيجة لسوء تطبيق التعاليم الإسلامية الحقة في كثير من بقاع العالم الإسلامي، وللدور السلبي من جانب أجهزة الإعلام الغربية. لقد أصبحت قاعدة متبعة لدى أجهزة الإعلام الغربي أن تخلط عقائد الإسلام مع قبائح السلوك حيثما وجدت في عالم المسلمين، وتمتنع في نفس الوقت عن خلط سلوك اليهود والنصارى والبوذيين والهندوس بأديانهم.

يقينا لم تتولد تعاليم الإسلام المتعلقة بالفصل بين الجنسين من موقف عقلي ضيق راجع إلى عصور الظلام الماضية. فالواقع أن مسألة الفجور الجنسي أو خلافه في المجتمع لا صلة لها على الإطلاق بتقدم المجتمع أو

تأخره من الناحية الزمنية.. فعبر عصور التاريخ كلها ارتقت الأمم قممَ الموجات الاجتماعية أو الدينية أو نزلت إلى حضيضها.

ومفهوم تحرير النساء تحريرا مطلقا ليس اتجاها تقدميا بالمجتمع الإنساني.. فهناك دلائل قوية على أن النساء في الماضي البعيد والقريب من تاريخ البشرية وفي أجزاء مختلفة من العالم.. كان لهن — كطبقة اجتماعية — مركز قوي مسيطر في المجتمع.

إن اللقاء الجنسي الطليق بين قسمي الذكور والإناث من المجتمع ليس شيئا جديدا أو مبتكرا. فقد جاءت الحضارات وخلت، ولم تبرح أنماط السلوك تتذبذب بين أسلوب وآخر. كانت أشكال لا تُحصى من الميول الاجتماعية تستقر في أنماط مختلفة، وتمر خلال عمليات تجريب وتشكيل جديد عند كل دورة.. كما يحدث للأجسام أمام المرايا داخل جهاز الكاليدوسكوب. ومع ذلك لم يثبت أي اتجاه منها بحيث نستخلص منه بالتأكيد هل ارتحل المجتمع عبر التاريخ من الفصل بين الجنسين إلى التحلل، أو من التقييد إلى العتق النسبي وتحرر النساء.

فجر عصر جديد لحقوق النساء

من المناسب هنا أن نركز انتباهنا فقط على تلك الفترة المظلمة من تاريخ الجزيرة العربية عندما كان الإسلام وشيك الولادة عن طريق التعاليم الإلهية – بحسب عقيدتنا، أو تعاليم محمد الشخصية – كما

يرى غير المسلمين. ومهما كانت وجهة نظر علماء اللاهوت.. فإن تعاليم الإسلام الخاصة بالفصل بين الجنسين لا تمثل سلوك العرب بتاتا.

كان مجتمع الجزيرة العربية حينئذ شديد التناقض في موقفه نحو النساء. فمن ناحية كان التسيب الجنسي، والاختلاط الحر بين الرجال والنساء، والانغماس المجنون في العربدة بين الخمر والقيان والغناء.. هي المشاهد الهامة في مجتمع العرب. ومن ناحية أخرى كان ميلاد الأنثى يمثل أشد الخزي والعار. وجاء في الأخبار أن بعض المتكبرين من العرب وأدوا بناهم الوليدات بأيديهم تخلصا من العار.

عوملت النساء معاملة المتاع المملوك، وحُرمن من حق معارضة أزواجهن أو آبائهن أو سائر الذكور من أعضاء الأسرة. ومع ذلك كانت هناك استثناءات للقاعدة.. فبين الحين والآخر كانت تظهر امرأة ذات موهبة قيادية متميزة لتلعب دورا بارزا في شؤون القبيلة.

بدَّل الإسلام كل ذلك، ليس كنتيجة تقدمية طبيعية لتوترات اجتماعية، وإنما بوصفه فيصلا بين القِيَم.. فَرض نظاما اجتماعيا سماويا لا ينتمي إلى القوى العادية التي تشكل المجتمع.

وبتعاليم الفصل بين الجنسين توقفت تلك الفوضى الجنسية توقفا فجائيا. ووُضع ترتيب العلاقة بين الرجال والنساء على أساس من مبادئ أخلاقية راسخة. وفي نفس الوقت رُفع الوضع الشرعي للنساء إلى مستويات عالية بحيث لم يعد من الممكن معاملتهن كمتاع بلا حول، وأُعطين نصيبا مساويا في أمور الحياة. كنَّ يُوزَّعن على الورثة

باعتبارهن ممتلكات موروثة.. ويستطعن اليوم الحصول على نصيب مما ترك آباؤهن، بل ويرثن أيضا الأزواج والأبناء وذوي القربى. يستطعن اليوم أن يواجهن أزواجهن ويردُدن عليهم الجواب. يمكن لهن التحاور والجدال معهم، ولهن — من غير شك — حق الاعتراض والاختلاف. وإذا كان بوسع الرجال تطليقهن.. فلهن أيضا حقوق متساوية في أن ينلن الطلاق منهم إذا رغبن في ذلك.

وبوصفهن أمهات.. عُوملت النساء في ظل الإسلام باحترام عميق يصعب أن يوجد له مثيل في مجتمعات أخرى من العالم. إنه هو نبي الإسلام الكريم الذي ساندهن وناضل من أجل حقوقهن عندما أعلن، مؤيِّدا بتوجيهات الوحي القرآني: الجنة تحت أقدام الأمهات.

لم يكن يشير بذلك إلى وعد يتحقق في الحياة الأخروية فحسب.. وإنما أشار بقوله هذا إلى وعد بجنة دنيوية اجتماعية للقوم الذين يُظهرون احتراما وإجلالا عميقا لأمهاتهم، ويقفون حياتهم لإرضائهن وتزويدهن بكل الوسائل الممكنة لراحتهن.

يجب فهم تعاليم الفصل بين الجنسين في هذا الجو وداخل هذا السياق. لم تكن هذه التعاليم ثمرة أي استعلاء رجولي، بل قُصد بها أن ترسي قداسة البيت، وتخلق ثقة أعظم بين الرجل وزوجته، وتعيد الاعتدال إلى الحوافز البشرية.. فبدلا من أن تنطلق كشيطان جبار في المجتمع.. يوضع لها نظام كي تؤدي دورها البنَّاء كالذي تؤديه القوى المسخرة في الطبيعة.

يتضخم سوء الفهم تجاه الفصل بين الجنسين عندما يُنظر إليه على أنه قيد مفروض على إناث المجتمع الإسلامي كيلا يشتركن في كافة مجالات النشاط الإنساني. وهذا غير صحيح. إنما يُدرَك مفهوم الفصل بين الجنسين في سياق التدابير المقررة لصيانة قداسة العفة الأنثوية وشرف النساء في المجتمع.. ولتقليل المخاطر المترتبة على انتهاك تلك التدابير إلى الحد الأدنى.

يحظر الإسلام بشدةٍ الاختلاط السائب بين الجنسين، وكذلك يمنع الزواج السري. ويوصي الرجال والنساء جميعا.. بالامتناع عن النظر إلى بعضهما البعض بنظرات الاشتهاء، ليس ذلك فحسب.. بل وعن الاتصال بطريق النظر أو التلامس الذي يمكن أن يؤدي إلى إغراءات يتعذر السيطرة عليها. ويتوقع الإسلام من النساء أن يسترن أنفسهن باحتشام، ويوصيهن ألا يتصرفن بطريقة تجتذب انتباه الفاسقين من الرجال. ولا يحرِّم استعمال العطور والحلي.. وإنما يجب ألا تُستعمل عند الخروج بين الناس للفت الأنظار.

إننا ندرك تماما أن هذه التعاليم – طبقا للمزاج الحالي في مجتمعات العالم كله.. تبدو جافة ومقيِّدة وغير ممتعة على نحو ما، ولكن بالدراسة العميقة للنظام الاجتماعي الإسلامي بكامله يمكن أن يصل المرء إلى الاعتقاد بأن هذا حكم متسرع وسطحي. لذلك ينبغي فهم هذه التعاليم بوصفها جزءا متكاملا من المناخ الاجتماعي الإسلامي كله.

ومن المؤكد أن دَوْر النساء في النظام الاجتماعي الإسلامي ليس دور محظيات في الحريم، ولا سجينات خلف جدران بيوتهن ممنوعات من التقدم، محرومات من نور المعرفة. هذه الصورة القبيحة لنظام المجتمع الإسلامي ليست إلا من رسم أعداء الإسلام في الداخل أو الخارج، أو من فعل الباحثين الذين أساءوا فهم الأسلوب الإسلامي للحياة إساءة جسيمة.

الشيء الوحيد الذي لا يقره الإسلام هو أن تتحول النساء إلى دُمىً تُستغل أو تُترك تحت رحمة الابتذال الرجالي. لا يسمح الإسلام أبدا بمثل هذه المواقف قِبل النساء.

ومن القسوة البالغة بالنساء إلزامُهن بالحرص الدائم على هيئتهن ومظهرهن وطريقة ملبسهن وتزينهن.. لمجرد أن المجتمع عموما قد أصبح كثير المطالب باضطراد. مفاتن النساء دائما معروضة.. حتى إن وسائل الإعلان عن الطعام والحاجات اليومية كمساحيق الغسيل تتطلب عارضات من النساء. وتُعرض أساليب العيش الصناعية الحديثة والغالية على أنها أساسيات للمرأة وتحقق أحلامها. ولا يمكن لمثل هذا المجتمع أن يبقى لفترة طويلة متوازنا أو معتدلا أو سليما.

ووفقاً للإسلام.. يجب تحرير النساء من الاستغلال.. ومن الاقتصار على أن يكن مجرد أدوات للمتعة واللهو. يجب أن يكون لهن وقت أطول كي يقمن بمسئولياتهن نحو بيوتهن وأجيال البشرية المستقبلية.

حقوق متساوية للنساء

تسمعون كثيرا عن حركات تحرير النساء وحقوق المرأة وما إلى ذلك. ويعلن الإسلام عن مبدأ أساسي شامل يغطي كل المواقف حيث يقرر:
﴿ولهن مِثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾ (سورة البقرة : **٢٢٩**)

..أي أن للنساء حقوقا على الرجال مساوية ومماثلة لحقوق الرجال عليهن. فهناك مساواة كلية، وليس ثمة فرقٌ أياً كان بين الجنسين في حقوق الإنسان الأساسية. ولكن للرجال درجة تمييز واحدة عليهن.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول:
﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضَّل الله بعضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ (سورة النساء: ٣٥)

..فالرجال مكلفون بالوصاية على النساء لأن الله فضل الرجال على النساء لأنهم ينفقون أموالهم.

من اللفظ العربي "قوَّامون" – والقوّام هو الوصي المسئول عن حفظ القاصر في الطريق الصحيح – استنتج بعض الفقهاء من ذوي عقليات القرون الوسطى وادَّعوا بتفوق الرجال على النساء.. في حين أن الآية تشير فقط إلى فضل العائل على عياله. وبهذا يكون القوَّام أكثر أهلية ليمارس ضغطا معنويا على عياله كي يبقوا في المسار الصحيح. أما فيما يتعلق بالحقوق الإنسانية الأساسية.. فلم تشر الآية مطلقا إلى أن المرأة

لا تتساوى مع الرجل، أو إلى تفوق الرجال على النساء. ويشير الجزء الأخير من الآية إلى هذه الميزة، ويوضح بجلاء أنه بالرغم من هذه الميزة لا تزال الحقوق الأساسية للنساء على قدم المساواة مع حقوق الرجال. فحرف العطف «وَ» يعني «بالرغم من حقيقة أن» أو «في حين أن»، ويبدو أن هذا هو المعنى الوحيد الصحيح في هذا السياق.

تعدد الزوجات

من الشائع في بلاد الغرب مجابهة المتحدث في موضوع الإسلام بهذا السؤال: هل يسمح الإسلام للمرء أن يحتفظ بأربع زوجات في وقت واحد؟ ولي خبرة واسعة في الخطاب مع جماهير عديدة، ونُخبٍ من المثقفين في الغرب.. ولا أكاد أذكر مناسبة لم يطرحوا فيها هذا السؤال. كثيرا ما تنهض سيدة من بين الصفوف، وبعد الاعتذار المناسب بالطبع، تتساءل في براءة عمّا إذا كان الإسلام يسمح بأربع زوجات أم لا؟ ومن الواضح أن الجميع يعرفون الجواب. وربما ليس هذا هو الجانب الوحيد المشهور عن الإسلام في بلاد الغرب، فهناك جوانب أخرى مشهورة تماما، منها الإرهاب مثلا، مع أنه لا علاقة للإرهاب بالإسلام. (راجع كتاب: «القتل باسم الدين» للمتحدث: إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية).

أي مساواة هذه التي يقدمها الإسلام عندما يبيح للرجل أن تكون له أربع زوجات.. بينما لا يسمح للمرأة إلا بزوج واحد؟ هذه صيغة

أخرى للسؤال السابق نفسه.. أحسب أنها تُستخدم كحيلة لإزالة أي انطباع حسن قد يبينه المتحدث عن الإسلام. وفي الاجتماعات الأقل تمسكا بالمجاملات الرسمية.. حيث لا تراعى الكياسة والمجاملة بدقة.. يُطرح نفس السؤال في لهجة ساخرة بدلا من أن يكون سؤالا بسيطا.

منذ عدة عقود.. عندما كنت طالبا في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن.. كان لطالبٍ باكستاني زميلٌ إنجليزي يطرح عليه هذا السؤال مرارا وتكرارا، ولم يفشل مرة واحدة في إثارة الضحكات. وأذكر ذات مرة أن الضغط ربما زاد عليه كثيرا فإذا به يلتفت فجأة ويسأل الشابَ الإنجليزي: لماذا تعترض على أن تكون لنا أربع أمهات.. ولا اعتراضَ لديكم أن يكون لكم أربعة آباء؟ (وفي نطق الكلمة الإنجليزية [فُور فاذرْس] تورية بحيث تُفهم بمعنيين: أجداد forefathers، وأربعة آباء 4 fathers). وبهذه التورية انقلبت الأوضاع على المعتدي.

قد تبدو هذه نكتة، ولكن لو أمعنت فيها النظر لاكتشفت أنها أكثر من أضحوكة.. لأنها تشير إلى حال مأساوي يغش المجتمعات، ويتيح لنا فرصة مناسبة للمقارنة بين موقف الإسلام وموقف المجتمعات العصرية.

إنها ليست مسألة اجتماعات طلابية مرحة فحسب.. بل إن أعضاء المجتمع المحترمين الجادين لا يرون استهجان هذا الأمر الديني نكتة مجافيا اللطف والكياسة.

منذ فترة غير بعيدة وصلتني رسالة من قاض كبير في «فرانكفورت»، عرفت عنه شخصيا أنه رجل بالغ الحكمة، متفتح العقل، مجامل، وموضوعي. ولقد اعترض أيضا على سماح الإسلام بتعدد الزوجات المحدود، و لم يستطع كبح الإغراء بأن يسوق وجهة نظره مستعينا بنكتة فجة.. أو هكذا بدت لي. وفكرت للحظة — سرعان ما تلاشت — أن أرد عليه تحيته بنكتة 'الأجداد هذه'، ولكن التعقُّل سيطر علي. وكان مضمون جوابي له بإيجاز: أولاً أن النص الإسلامي للزواج بأكثر من زوجة ليس مبدأ عاماً، وإنما يخص مواقف معينة يصبح فيها ضرورةً للحفاظ على سلامة المجتمع وعلى حقوق النساء في أن يجدن هذا الأمر الاحتياطي في متناول أيديهن.

القرآن الكريم كتاب منطقي، ومن هنا لا يمكن أن يأمر المسلمين بتحقيق المستحيل. لقد خلق الله الرجال والنساء متساوين في العدد تقريبا.. بقليل من الزيادة أو النقصان هنا وهناك. فكيف يمكن لدين عقلاني كالإسلام.. الذي يؤكد مرارا وتكرارا على حقيقة ألاّ تعارضَ بين 'فعل الله وكلماته'.. فيأمر بشيء مخالف للطبيعة والواقع مخالفة واضحة؛ ولو فعله الناس لخلق مواقف خطيرة من اختلال التوازن، وصعوبات وإحباطات كؤود لا تُذلَّل؟ تصوروا قُطراً صغيرا يقطنه مليون من الرجال في سن الزواج، ونفس العدد تقريبا من النساء.. لو أُخذ هذا التعليم القرآني على أنه أمر يتبعه الجميع حرفيا لتزوَّج ١/٤ مليون رجل من النساء جميعهن، وبقي ٣/٤ المليون بدون زواج!

ثم إن الإسلام أكثر ديانات العالم تأكيدا وحثًّا على زواج كل رجل وكل امرأة. ويصف القرآن الكريم العلاقة بين الزوج وزوجته بأنها قائمة على المحبة بطبيعتها، ومصدر للطمأنينة والسلام:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (سورة المائدة:٦)

.. أي يحل لكم الزواج من المؤمنات الطاهرات، ومن السيدات الكتابيات العفيفات.. إذا دفعتم لهن مهورهن، في عقد زواج شرعي سليم.. غير متورطين في زنا أو متخذين خليلات في الخفاء.

وفي نفس الوقت.. يرفض القرآن العزوبة، ويعلن أنها بدعة من صنع البشر ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾(سورة الحديد:٢٨).. ولا ينال المرء شيئا باعتزال العالم، أو بتعذيب نفسه بإنكار الرغبات الفطرية. ونظام الزواج مؤسس في الإسلام تأسيسا حسنا.. ولا يسمح لي الوقت كي أستطرد وأناقش المتطلبات المختلفة عند اختيار شريك الزواج، وعلاج المشاكل المؤدية للطلاق والتعليمات الخاصة به.. إلخ..

ونعود إلى تعدد الزوجات فنقول: إنه لمن الواضح من دراسة القرآن الكريم أن موضوع البحث هو موقف خاص بفترة ما بعد الحرب.. وهو وقت يخرج فيه المجتمع بعدد كبير من الأيتام والأرامل الشابات، ويختل فيه التوازن بين عدد الذكور والإناث بدرجة شديدة. ولقد حدث مثل هذا الظرف في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. ونظرا لأن

الإسلام لم يكن السائد في ألمانيا وقتئذ.. لم يكن بيدها علاج لحل هذه المشكلة، ولم تستطع تعاليم النصرانية الصارمة الملزمة بالاقتصار على زوجة واحدة أن تخفف من وطأة الموقف. وهكذا وجد الشعب الألماني نفسه مضطرا لمعاناة عواقب انعدام التوازن هذا، وكان هناك أعداد كبيرة من العذارى والعوانس المحزونات والأرامل الشابات اللاتي تعذر عليهن الزواج.

لم تكن ألمانيا البلد الوحيد في القارة الأوربية الشاسعة الذي عانى من مثل هذه المشاكل الاجتماعية ذات الخطورة الشديدة والشائعة بِنسَبٍ هائلة. كان المجتمع الغربي بعد الحرب يواجه تحديا ضخما للغاية ليوقف اندفاع المد، ويمنع استفحال الانحطاط الخلقي والانحلال الذي نما وازدهر على خلل التوازنات السائدة بشكل طبيعي نشيط.

وكما يمكن أن يتضح بجلاء لأي شخص غير منحاز أن الرد على كل هذه الاضطرابات التي يصعب التنبؤ بعواقبها.. هو أن نسمح للرجال بأن يتزوجوا بأكثر من واحدة. وليس هذا حلا لإشباع رغباتهم الحسية، بل لسد متطلبات حقيقية لعدد كبير من النساء. وإذا رُفض هذا الحل المنطقي الواقعي.. فالبديل الوحيد الباقي أمام المجتمع هو أن ينحط سريعا إلى مجتمع يزداد فسادا وفجورا.

ويا حسرتاه! هذا فيما يبدو هو الاختيار الذي أخذ به الغرب.

وإذا أعدت فحص الموقفَيْن بنظرة أكثر واقعية وأبعد عن الانفعالية، فلن تعجز عن ملاحظة أن المسألة ليست مساواة بين الرجال والنساء.. وإنما هي ببساطة اختيار بين المسئولية واللامبالاة بالعواقب.

يسمح الإسلام بالزواج بأكثر من واحدة على شريطة أن يقبل الرجال التحدي.. فيواجهوا مواقف صعبة بمسئولية كاملة، ويعطوا حصة تامة من العدل للزوجة الثانية والثالثة والرابعة. يقول القرآن المجيد:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾ (سورة النساء: ٤)

.. أي إذا خشيتم ألا تستطيعوا التعامل بالعدل مع اليتيمات فيباح لكم أن تتزوجوا ما يطيب لكم من نساء غيرهن: اثنتين أو ثلاثا أو أربعا. ولكن إذا أوجستم ألا تتعاملوا معهن بالعدل.. فلتكتفوا بزوجة واحدة فقط، أو تزوجوا ممن لكم سلطان عليهن [من الأسيرات مثلا]. هذه هي أفضل السبل كيلا تقعوا في الظلم.

والبديل الآخر أشد قبحا. لا يُلام هذا العدد الكبير من النساء العازبات إذا حاولن أن يُغوين ويجتذبن الرجال المتزوجين في مجتمعات غير عميقة في تدينها. إن لهن مشاعر ورغبات لم تُشبَع. لقد رفعت الصدمات النفسية الناجمة عن الحرب في المرأة حافز البحث عن شخص تلتجئ إليه.. في حياة فارغة ليس فيها أمان زوج وبيت، وليس هناك شريك

حياة، ولا أمل لها في إنجاب أطفال. وكان المستقبل كالحاضر فارغا مقفراً.

إذا لم تُلبَّ لمثل هؤلاء النسوة حاجاهن، ولم يُستَوعبن بطريقة شرعية بحسب مبدأ الأخذ والعطاء.. لأشَعْن الفساد، ولأثرن الاضطراب في سلام المجتمع. ولحاولن – بأي شكل من الأشكال المحرمة – أن يشاركن الزوجات في أزواجهن. والنتيجة المحتومة سلوك ينافي الآداب: انشقاق في الإخلاص، وفقدان ثقة الحليلات في أزواجهن، وازدياد في الشبهات، واهتزاز قواعد كثير من البيوت.. بسبب نقص الثقة المتبادلة بين الزوج وزوجته. ولسوف يؤدي الإحساس بالذنب والإثم لدى الأزواج الخائنين لزوجاهم إلى مزيد من العُقد النفسية، وجنوحٍ أشد إلى الكذب والجريمة، وليكونن مفهوم الحب النبيل والوفاء من بين أوائل الضحايا، ويفقد الغرام سموه، ويتردى إلى الابتذال والهيام العابر.

ينسى المتحدثون عن المساواة في كل ناحية أن مسألة المساواة هذه تصبح غير واردة في تلك المجالات التي تختلف فيها بِنْية الرجال عن بِنية النساء. فالنساء وحدهن يستطعن الحمل وولادة الأطفال. وهن وحدهن اللاتي يستطعن تغذية بذرة جيل المستقبل البشري لأكثر من تسعة أشهر. والنساء هن اللاتي يستطعن رعاية الأطفال – في المراحل الأولى من حياهم على الأقل – بما لا يستطيع الرجل فعله أبدا. والنساء.. مقارنة بالرجال.. هن وحدهن صاحبات الارتباط النفسي الأقوى بالطفولة نظرا لصلة الدم الطويلة والوثيقة بينهن وبين نسلهن.

فإذا تجاهلت الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية الفارقَ الخَلْقي بين الرجل والمرأة، وما يترتب عليه من فارق في دور كل جنس منهما في المجتمع.. فلا مناص من فشل هذه النظم في إحداث توازن صحي سليم. وفي الغالب - بسبب هذه الفوارق الخَلْقية بين الرجل والمرأة - وضع الإسلام أدوارا مناسبة لكل منهما.

يجب أن تتحرر المرأة بقدر المستطاع من مسئولية كسب عيش الأسرة. ومن ناحية المبدأ يجب أن تقع هذه المسئولية على عاتق الرجال ومع ذلك، ليس هناك سبب يمنع النساء من القيام بدورهن في إدارة عجلة الاقتصاد — إذا وجدن الفرصة لذلك.. أعني بدون إهمال مسئوليتهن الأساسية في التكاثر البشري، ورعاية الأسرة، وما يلحق ذلك من مقتضيات.

ثم إن النساء بصفة عامة.. أضعف نسبيا وأوهى بِنْية من الرجال. ومع ذلك فمن المدهش أن الله تعالى زوَّدهن في أجسادهن بطاقة كامنة للتحمل أشد من الرجل. وتُعزى هذه الصفات في الغالب إلى أن للمرأة نصف كروموزوم (حامل العوامل الوراثية) زيادة في تكوين خلاياها.. وهو المسئول عن الفرق بين الرجال والنساء. ومن البيِّن أنها زوِّدت بهذه الطاقة لتواجه العبء الزائد الموضوع عليها أثناء الحمل والولادة وفترة الرضاعة. وعلى أي حال، فإن هذه الطاقة لا تجعل المرأة أقوى وأصلب من الرجل في الظاهر، ومن ثَم لا ينبغي أن يُعهد إليهن بالأعمال الحقيرة في مجالات الإنتاج الاقتصادي لمجرد التشدق بالمساواة

أو تحت أي مسمىً آخر. ويتطلب هذا أيضا ضرورة أن يعامَلن بمزيد من الرقة والعطف. يجب أن يكون نصيب المرأة من أحمال العمل اليومي أقل، وألاّ تُجبَر على تحمُّل نصيب مساوٍ للرجل في الأنشطة العامة.

يلوح مما سبق أنه إذا كانت مهمة إدارة البيت منطقة خاصة من المسئولية.. يُعهد بها إمَّا إلى الرجل أو المرأة.. فمن الواضح أن المرأة تتمتع بميزة أعظم من الرجل للقيام بمثل هذه المسئولية. ذلك فضلا عن أن طبيعة المرأة قد أُنيط بها مسئولية تنشئة الأطفال ورعايتهم. ومثل هذه المسئولية لا يمكن أن يقوم بها الرجال إلا على سبيل المشاركة الجزئية.

يجب أن تُمنح النساء حق المكث في بيوتهن فترة أطول كثيرا من الرجال. وفي حالة إعفائهما سويا من مسئولية كسب العيش.. يجب أن يستغَل الوقت الحر المتاح لهما لصالحهما أو لصالح المجتمع في مجموعه. ومن هنا نشأ الرأي القائل: "مكان المرأة هو البيت".. إذ ليست المسألة تقييد المرأة بمئزر المطبخ أو سجنَها بين جدران بيتها الأربعة. ولا يُخلّ الإسلام أبدا بحقوق النساء في الخروج في وقت الفراغ للقيام بأمر واجب أو للمشاركة في أي هواية صالحة يَشَأْنَ.. مع ملاحظة ألاّ يخاطرن بمصالح وحقوق أجيال البشرية المستقبلة.. وهم أمانة بين أيديهن. وهذا هو السبب -من بين أسباب أخرى- أن الإسلام لا يشجع على المشاركة المفرطة والاختلاط الحر بين الجنسين . وإذا كان الإسلام يقدم فكرة أن البيت هو مركز أنشطة المرأة.. فتلك فكرة

حكيمة للغاية، كما أنها حل عملي لكل المصائب والبلايا الشائعة في الأزمنة الحديثة. وعندما توجه النساء اهتماماتهن بعيدا عن البيت.. فلا بد أن يكون ذلك على حساب الحياة الأسرية وإهمال الأطفال.

وبناء الأسرة حول الشخصية المحورية للأم.. يتطلب تقوية أواصر قرابة الدم، والحفاظ على ميل حقيقي أصيل بين الأهل و الأقارب. ويساند الإسلام مفهوم الأسرة الكبيرة ويشجعه.. حتى لو عاشت الوحدات الأسرية منفصلة.. وذلك لأسباب عدة، منها :

١) أنه يحول دون حدوث الخلل وعدم التوازن في المجتمع.

٢) إذا تأسست الأسر على الحب القوي والعاطفة الصادقة بين الإخوة والأخوات، والأب والبنات، والأم والأبناء، إلخ..فإن ذلك يؤدي بطبيعته إلى استقرار وصيانة وحدة أسرية صحيحة سليمة. هذا الارتباط الطبيعي يزداد قوة بنظام من العلاقات المحيطة بالأسرة.. في صورة ارتباط وقُرب حقيقي بين العمات والأعمام، والخالات والأخوال، وبنات وأبناء الأعمام والأخوال، والجدات والأجداد والأحفاد. ومن ذلك تتفتح أمام نظام الأسرة الكبرى سبلُ البحث عن دفء ومتعة صحية نابعة من وعي بالانتماء.

٣) وفي مثل هذه الأحوال يكون نظام الأسرة أقل عرضة للتفتت، ولا تكون المشاركة تحت سقف واحد باسم الأسرة شيئا بلا معنى كما نراه اليوم على وجه العموم، ولا ينفك أعضاء الأسرة منجذبين نحو منارة مركزية من كبار الأسرة، وتدور معظم أنشطة الأسرة حول هذا

المركز، ولن يبقى بعد ذلك أفراد يعيشون في وحدة منسيين محزونين متروكين عند القمة أو في القاع من النظام الاجتماعي أو منبوذين من أسرهم كسقط المتاع.

هذا — بالضبط– هو المفهوم الإسلامي عن البيت والأسرة.. باعتبارها أعظم وحدة مركزية في المجتمع. وبسبب هذا الفارق في المواقف يُعزى إلى حد كبير ما نجده اليوم في مجتمعات العالم في مجتمعات الحديثة من كثرة عظيمة في أعداد المهجورين من المسنين والعَجَزة والآباء والأمهات على أنهم أعباء على أسرهم.

رعاية المسنين

أخذت مسئولية رعاية المسنين تنتقل شيئا فشيئا إلى الدولة. وهذا يمثل عبئا ثقيلا على الاقتصاد القومي. ومهما كان استعداد الدولة للإنفاق.. فإنها لا تستطيع أن تكفل لهم السكينة والرضا. ففظاعة إحساس المرء أنه منبوذ متروك مهجور، وإدراكه الأليم بفراغ متزايد من الوحشة والوحدة في داخله.. هو من المشاكل التي يتعذر على الكثيرين حلها. ولقد كاد أن يكون من المستحيل اليوم أن تفكر أسرة غربية في رعاية أحد من ذوي قرباها الأبعدين.

في مثل هذه المجتمعات تزداد الحاجة إلى بيوت المسنين يوما بعد يوم. ومع ذلك ليس من المستطاع دائما للحكومة أن تخصص الأموال بالقدر الكافي ولو لتوفير الحد الأدنى من متطلبات الحياة الكريمة للمسنين. إن

شفاء الآلام البدنية أو تخفيفها أيسر، أما الجراح النفسية العميقة.. التي يعاني منها عدد كبير من الأعضاء المسنين في المجتمعات الحديثة.. فهي أعصى كثيرا على العلاج.

وفي البلاد ذات الأغلبية المسلمة، مهما كانت كثرة القيم التي تدهورت فيها.. فلا تزال سائر الأحوال الأسرية الجارية فيها بعيدة عن التخيُّل. هناك تُعد معاملة الكبار والمسنين بشيء من سوء الأدب أو الفظاظة عملا يجلب العار والخزي على فاعله. وإنه لشيء مخجل عند معظم المسلمين أن يتخلوا عن مسئولية رعاية أهليهم المسنين إلى الدولة حتى وإن كانت الدولة راغبة في رعايتهم.

وهكذا، فإن دور المرأة المسلمة في بيتها وبين أسرتها أبعد من أن ينتهي مع تقدم الأطفال في السن. إنها لا تنفك مرتبطة بالماضي كما هي متصلة بالمستقبل. إن عطفها، واهتمامها الإنساني، وقدرتها الفطرية على رعاية من هم في حاجة إلى الرعاية.. كل ذلك يأتي إلى نجدة العناصر المسنة في المجتمع. إنهم يظلون أعزة موقرين كما كانوا من قبل، ولا ينفكون أعضاء كاملين من الأسرة. وتقوم الأم بالدور الأكبر في رعايتهم، وتوفر لهم الصحبة.. ليس على أنه فرض ممل يؤدي للضجر.. بل كتعبير حي طبيعي عن وشائج القرابة الإنسانية. وتطمئن الأم إلى أن مثل هذا المجتمع لن ينبذها أو يتركها مهجورة كأثر من الماضي عندما يتقدم بها العمر.

بالطبع.. هناك استثناءات في كل مجتمع، فهناك بقايا من الماضي تُعد أحمالا ثقيلة لدى بعض الأسر المسلمة التي تعيش تحت تأثير ما يُسمى بالاتجاهات الحديثة، ولكن المجتمعات الإسلامية في مجموعها تخلو من دُور تُؤوِي آباء وأمهات مهجورين.. وذلك على خلاف ما يُشهد في المجتمعات الأخرى.

ويذكّرني هذا بنكتة قد يضحك لها البعض، ولكنها تُسيل عبرات الآخرين. يحكى أن طفلا لاحظ بألم وقلقٍ ما يلقاه جده من سوء معاملة أبيه. وبالتدريج أخذ الأب ينقل الجد من غرفة نوم واسعة مريحة مؤثثة إلى غرفة أقل اتساعا وراحة.. حتى قرر في النهاية أن يضعه في جناح الخدم. وذات يوم قارس البرد من أيام الشتاء اشتكى الجد برودة الغرفة ورِقة اللحاف.. فلا يكاد يشعر بالدفء أو الراحة.. فبحث الأب عن غطاء إضافي من خرقٍ قديمة مخزونة وقدمه للجد العجوز. عندما شاهد الطفل ذلك رجا أباه قائلا: «مِن فضلك، لا تعط جدي كل الخِرق.. بل اترك لي شيئا منها كي أقدمه لك عندما تتقدم بك السن».

تتركز في هذا التعبير البريء من طفل ساخط كلُّ آلام الأجيال المسنة وعذابها في العصر الحديث.

ويندر أن تصادف في المجتمعات المسلمة مثل هذه الحالات، كما يندر ويزداد ندرة، أن تجد في المجتمعات الحديثة حالات استثنائية لمعاملة المسنين بين الأقارب. يعلم القرآن الكريم المسلمين:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (سورة الإسراء:**٢٤و٢٥**)

.. أي أَمَرَ ربك بأن تعبده وحده، وأن تبدي العطف واللطف نحو والديك. فإذا بلغ واحد منهما أو كلاهما سن الكبر في حياتك.. فلا تعبر لهما عن ضيقك ولا تلومهما أبدا، بل تحدَّثْ إليهما بأحسن القول، وعامِلْهما بتواضع شديد نابع من رقة بالغة. وادع الله لهما كي يرحمهما بمثل ما ربياك في طفولتك.

هذه الآيات هي أكثر ما قيل في هذا الموضوع أهمية وشأنا. فبعد توحيد الله تعالى.. يجب على الإنسان – بدافع من الحب والحنان والعطف – أن يعطي لوالديه الأولوية قبل كل شيء عندما يصلان إلى سن متقدم عسير.

وبالإضافة إلى ذلك.. تتحدث الآية عن مواقف يكون فيها تصرف أحد الوالدين أو كليهما مزعجا للغاية، وأحيانا يكون عدوانيا. فلا ينبغي عندئذ أن يخرج من شفة المرء أي تعبير عن الضيق أو السخط ولو كان خفيفا، بل على العكس.. يجب أن يعاملهما باحترام عميق.

وهكذا التأكيد على أروع العلاقات بين جيل قادم وجيل سابق يقترب من النهاية.. يضمن ألا تنشأ فجوات فيما بين الأجيال.. تلك الفجوات التي تعوق دائما سريان المبادئ الأخلاقية التقليدية.

ولذلك تُعلمنا فلسفة الإسلام الاجتماعية ألا يسمح أي جيل بظهور فجوة بينه وبين الجيل الماضي، أو بينه وبين الجيل القادم. إن الفجوات بين الأجيال غريبة ودخيلة على الإسلام.

وكما ذكرنا من قبل.. لا يقتصر مفهوم الأسرة على أعضاء بيت واحد. فالآية التالية تأمر المسلمين بالإنفاق.. ليس على الوالدين فحسب.. بل وعلى الأقارب الآخرين بحسب ترتيبهم في الآية.. كيلا تُخدش كرامتهم، ولتزداد المحبة المتبادلة بينهم:

﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ (سورة النساء:**٣٧**)

.. عاملوا آباءكم بالحسنى، وكذلك الأهل واليتامى والمحتاجين والجار القريب والجار الغريب، والرفيق المجاور لك، والمسافر، ومن تحت سلطانك. واعلموا أن الله تعالى لا يحب المتكبر المتباهي. يوصي القرآن الكريم أن تكون دائما حريصا على اللطف والعطف مع والديك. ولو تعلمت المجتمعات المعاصرة الدرس من هذه الوصايا لاختفت كثير من المشاكل التي تواجهها اليوم، والتي تمثل وصمة في مجتمع متقدم، وما كانت هناك حاجةٌ لبيوت المسنين إلا لمن حُرموا لسوء الحظ من أهل يرعونهم.

وفي المجتمع الإسلامي تأكدت المحبة بين الوالدين والأبناء إلى حد يستحيل معه على الابن أن يهجر والديه عندما يبلغان الكبر.. ففي ذلك سعادته الذاتية.

جيل المستقبل

أما بالنسبة لجيل المستقبل.. فيتولى القرآن الكريم تعليم المجتمع بطريقة فريدة. فمن تعاليمه أنه من الأساسي – لتحقيق أفضل العلاقات بينك وبين أطفالك – أن تكون العلاقة بين الزوجين أيضا ممتازة. وفي هذا الصدد فإن الآية التي تلوها عليكم من قبل ﴿الرجال قوّامون﴾- تُلقي مسئولية ثقيلة حقا على كتف الزوج. فإذا لم يكن مسلكه مؤديا إلى خَلْقِ - جوٍّ مثالي لحياة عائلية سليمة.. لفشل في القيام بمسئوليته كوصي أو قوَّام. ولنتذكر أن المثل الأعلى للقوَّام كان نبي الإسلام نفسُه. فلم يكن ﷺ على الإطلاق فظّا ولا مستبدا ولا عدوانيا ولا مبالغا في فرض نفسه فيما يتعلق بأسرته. كانت المحافظة على وضعهم على الصراط المستقيم مسئولية خطيرة، ولكن الطريقة التي أدى بها هذه المسئولية كانت مثالا رائعا حيا، يصلح لكل زمان لمن أراد أن يتحقق ويستوعب المعنى الحقيقي لصفة القوام.

في حديث مشهور عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

"أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم."(الترمذي، باب حق المرأة على زوجها).

فإذا أراد الوالدان حقًّا أن يشب أولادهما أعضاءً من مجتمع صالح.. فليتذكرا أن العلاقة بين الزوج وزوجته تلعب دورا هاما في تشكيل شخصية أبنائهما أو تحطيمها. يعلمنا القرآن الكريم:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(سورة الفرقان: ٧٣-٧٥)

لهذا الدعاء جاذبية فريدة، ويمتلئ حكمة عميقة. إنه يُعلم الزوجين أن يدعو كل منهما للآخر ولأطفالهما أن يمنحهما الله تعالى الرضا والسعادة من بعضهما البعض ومن الأولاد، وأن يجعل منهما رائدين وقائدين لجيل من الصالحين الأتقياء.

ويكفي أن يطَبِّق المرء هذا التعليم على نفسه كي يدلك تماما مغزى هذه الآية. إنك إذا رغبت شيئا بشكل غير واضح فإن ذلك قد لا يؤثر بقدر ملحوظ على سلوكك. أما إذا دعوت بلهفة للحصول عليه فلا بد وأن يتأثر مسلكك بهذا الدعاء. ولتوضيح هذا المعنى نقول: إن هناك مِن بيننا مَن يرغب في أن يكون أمينا.. ولكن نادرا ما تُترجَم هذه الرغبة إلى التطبيق العملي. أما الذين يبتهلون إلى الله بإخلاص كي يجعلهم أمناء.. فإنهم يتأثرون في سلوكهم بهذا الدعاء أكثر ممن يرغبون في شيء مبهم. هناك جهد صادق يُبذَل لتشكيل سلوك المرء نحو الأفضل. ولا شك أن

سلوك المرء يعتبر شاذاً لو أنه بعد هذا الدعاء عامل زوجته وأطفاله بطريقة لا تتناسب مع دعائه.

ويلتفت القرآن الكريم نحو الأجيال الناشئة.. حقوقهم والتزاماتهم فيعظ قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾(سورة الحشر:١٩)

..يُحذِّر القرآن الآباء من أن يفشلوا في القيام بمسئوليتهم نحو ذراريهم.. ويتركوا وراءهم جيلا يكون في سلوكهم عيب.. فسلوف يحاسبهم الله على ذلك.

ثم يُحذِّر الآباء ألا يقتلوا أولادهم.. بمعنى ألا يكونوا على نحو ما أداة أو سببا يؤدي إلى تخريب أخلاقهم:﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ﴾(سورة الأنعام: ١٥٢)

ومعاملة الأبناء، بل والأجيال الشابة كافة، بالمحبة والعطف والاحترام.. موضع التأكيد في وصية نبي الإسلام ﷺ :

"أَكرِموا أولادكم." (ابن ماجة، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات)

ولا يغيب عن المرء أن هذا هو تماما ما يحتاجه العالم المعاصر. هناك نقاش جاد يجري في بريطانيا هذه الأيام حول التشريعات الممكنة التي تجعل الوالدين في نظر القانون مسئولين عن جرائم أطفالهم.. وبالتالي يُقدَّمون للمحاكمة في القضايا المنظورة أمام محاكم الأحداث بتهمة التقصير في أداء واجبهم. هناك شعور قوي بأنه لو أدَّى الوالدون

مسئوليتهم في تأديب أطفالهم بجدية أكثر.. لقلّ عدد الجرائم المشهودة في طرقات بريطانيا. ولكن المسألة هي: إلى أي مدى يمكن للتدابير العقابية المقيدة أن تحسِّن من نوعية المجتمع إذا لم تتوفر فيه قاعدة من الأخلاقيات الدينية تكون فعَّالة في كل مجالات الحياة؟

صد الاتجاهات الإسرافية الباطلة

ويمضي القرآن المجيد في تطوير هذا الموضوع الاجتماعي معلناً:
﴿وَالذينَ هُمْ عَنِ اللّغْوِ مُعْرِضُونْ﴾(سورة المؤمنون: ٤)

..فالعاقلون يتحاشون تبديد طاقاتهم في مساعٍ لا طائل منها ولا معنى لها. وتمضية بعض الوقت في ترفيه خفيف ليس سيئا ولا محظورا في الإسلام. أما إذا بدأ الترفيه يُحدِث تأثيرا سلبيا على المجتمع ككل.. فإنه بالتأكيد لا يلقى تشجيعا من الإسلام. إذا أصبح الترفيه هدفا في حد ذاته بدلا من أن يكفل متنفّسًا حقيقيا لضغوط الحياة.. فيدمَغه القرآن حينئذ بوصفه لغواً.. أي باطلا صرفاً لا نفع منه. عندما يتدخل الترفيه سلبيا في مساعي الحياة اليومية، أو يفرض ضريبة على وقت المرء الذي يمكن أن يُنفقَ فيما هو أفضل وأجدى.. فإنه يدخل تحت مفهوم «اللغو».

لقد أسدى التلفاز خيرا للمجتمع.. ولكن الأطفال يجلسون أمامه طول اليوم وعيونهم شاخصة إلى شاشته. وعندما يرجع الرجال من أعمالهم

لا يبرحون ماكثين أمامه طويلا مهما كان البرنامج المذاع. وهم بفعلهم هذا يهملون مسئولياتهم نحو أطفالهم وزوجاتهم وأصدقائهم ومجتمعهم كله. لقد صار التلفاز حقاً لعنة عصرية. ويضيع في هذا الزمن وقت طويل في مشاهدته.. حتى أصبح أمرا صعبا بل وتحديا لمن يريد أن يقيِّم ما للتلفاز وما عليه تقييما صحيحا. وليس هذا كل شيء.

كثيرا ما يعرض التلفاز أفلام الجرائم.. ويصور الجريمة بكيفية لا تخلق في قلوب الأطفال إحساسا بالنفور منها.. وإنما تؤدي إلى عكس ذلك. وقد تجد في الأفلام المخصصة للأطفال شخصيات تخلق الشر.. عن طريق ابتكار حركات عبثية ساذجة، توقع الفوضى في سلام البيت. ومهما كان في هذه البرامج من تسلية وترفيه فهي بالتأكيد غير تربوية. لا ريب أن مشاهدة هذه البرامج قد خلقت كثيرا من الأطفال المشاكسين.. الذين يشبون على استعداد كامن ليكونوا مجرمين.

ويجد البالغون في برامجهم تعليما غير مقصود عن وسائل مبتكرة في ارتكاب الجرائم، وتُرسَم أمامهم صورة وردية لحياة ناعمة من اللهو واللعب.. تترك انطباعا كاذبا في العقول. وا أسفاه! قليلا ما يدركون الفارق بين الخيال والحقائق، وبين ما يجب أن يكون وما هو كائن.

إن المتع الفارغة المحرمة التي يصدها القرآن الكريم.. ليست متعا تافهة أو ثانوية كما يحسبها الكثيرون، بل إنها من الوسائل الترفيهية التي تلعب دورا هاما في خلْق جوٍّ يؤدي إلى الإحباط المتزايد. ويتعجب المرء.. متى الوصول إلى نقطة التشبع يا تُرى؟

كبحْ الشهوات

يطالب القرآن الكريم بكبح الرغبات؛ فلا يسمح للحسد أن يلِد شهوات جامحة نهمة لا تشبع. ويحتوي هذا التعليم على رسالة هامة جدا تتعلق بضبط وتشذيب الشهوات. وليس الإسلام بالطبع دِينا يصرف عن الواقع ويفر إلى الخيال، أو يرفضه ويلجأ إلى التنسك والرهبانية.. حيث يراد من الإنسان أن ينفي كل رغباته الطبيعية لأجل تحقيق «النرڤانا» أي الخلاص من قيود المادية. وفلسفة النرڤانا هي أن الشهوات تقيِّدنا بالمادة وتعبّدنا للمادية؛ والعلاج البسيط لذلك هو أن يحرم المرء نفسه من كل الرغبات. يرفض الإسلام هذه الفلسفة لأنها من صنع البشر وتخالف الطبيعة وغير كافية لحل المشكلات. ومفهوم النرڤانا أقرب إلى الموت منه إلى السلام والطمأنينة. ويقدِّم الإسلام حلا مختلفا تماما، لأن الإسلام لا يرى في قتل الرغبات الإنسانية حلاًّ للغز الحياة.

وثمة تدابير كثيرة مقترحة لتحقيق السلام.. منها النصح بأن يقوِّمَ الإنسان رغباته ويحُدَّ منها ويتحكم فيها.. وإلا استحال على أي إنسان أن يبلُغ السلام من خلال إشباع رغباته.. فإن الرغبات — كما أسلفنا — تجري بأسرع مما يلاحقها المرء. ومع أن هذه التدابير تبدو صغيرة إلا أنها ذات إمكانيات شديدة التأثير والأهمية. فمثلا ينصح القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(سورة طه: ١٣٢)

.. لا تُجهد عينيك في التطلُّع إلى ما أنعمنا به على فئات من الناس من متاع دنيوي قصير الأجل نبتليهم فيه.. فما يمدك ربك به أحسن وأبقى.

ويُحرِّم القرآن الكريم إساءة الظن بالآخرين، والتدخل في خصوصياتهم، والسؤال عما لا يعني السائل، وحديث الغيبة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(سورة الحجرات: ١٣)

.. يأمر المؤمنين أن يتحاشوا كثيرا سوء الظن لأنه خطيئة في بعض الأحيان. كما ينهى عن التجسس ويحرم الغيبة ويشبِّهها بأكل لحم أخ ميت. ويوصيهم بخشية الله تعالى الذي يعود عليهم كثيرا بعطفه ويشملهم برحمته.

حفظ الأمانات وصون المعاهدات

في المجتمع الإسلامي يقوم احترام المواثيق بدور شديد الأهمية. وتُعَد المحافظة على المواثيق والمعاهدات الدولية مفهوما أساسيا من مفاهيم الوحدة في المجتمع الإنساني. يصف القرآن جماعة المؤمنين بأنهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون﴾(سورة المؤمنون: ٩)

إجتثاث جذور الشر مسئولية جماعية

لم يُعهد بمسئولية تعليم الجمهور إلى الحكومات وحدها.. بل إن فعل الخيرات واجتناب الشرور هي مسئولية الشعب نفسه. ففي المجتمعات المتطورة.. يقوم جامعو القمامة بجمع النفايات من البيوت والطرقات للتخلص منها، أما في البلاد الفقيرة فتلقي ربة البيت ببساطةٍ المهملات والنفايات في الطرقات العامة فتمتلئ بالأقذار ولا تصلح للمارة. وطبعا تقع على السكان مسئولية المحافظة على النظافة داخل البيوت، ولكن لا بد من أن يكون هناك نظام يحفظ الطرقات وسبل المرور نظيفة.

ومما يؤسف له أن الغرب الذي تعلم أهمية المسئولية الجماعية في المحافظة على نظافة الأماكن العامة.. لم يدرك بعد حاجته الماسة إلى حمل مسئولية تطهير المجتمع من نفايات الإجرام البشري.. التي تنسكب كل يوم في البيوت والطرقات والأماكن العامة!

يعامل الإسلام هذه المسألة بشمول أوسع. ويقع العبء الأول على كبار العائلة لتقليل النفايات الإنسانية.. كي يكون الإسهام بالخير نحو المجتمع أكثر منه بالشر. ثم يثبِّت الإسلام المسئولية على المجتمع – على المستوى الفردي والجماعي – في شنِّ حرب مقدسة ضد الشر.. ولا يتوسل إلى ذلك بالسيف أو بالقوانين المقيدة للحرية..بل بالوعظ والنصح والحكمة وحسن المشورة. إن الوعظ والترغيب بصبر – في

نظر القرآن – هما أفضل الوسائل لتطهير المجتمع من الأمراض الاجتماعية:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(سورة آل عمران: **١٠٥**)

.. ينبغي أن يكون من بينكم جماعة تكرس جهودها لوعظ الناس بفعل الخير، وتأمرهم بفعل ما هو طيب واتباع الإنصاف، وتنهاهم عن الشرور. وهؤلاء هم المفلحون.. أي أن مثل هذه المجتمعات سوف تفلح وتزدهر ويكتب لها البقاء.. لأنه يمكن فهم المفلح هنا على أنه الأصلح للبقاء.

وينبغي ألا يُفهم من هذه الآية أن أسلوب الإسلام في صيانة الصحة العامة والرخاء يعفي الحكومة فلا تؤدي أي دور فيه.. كلا، فالجانب القانوني وتطبيقاته هي بالطبع من اختصاص الحكومات، ولكن الحقيقة التي أحاول التأكيد عليها – طبقاً للإسلام – هي أن الأجهزة الحكومية وحدها غير كافية لكبت ومنع وتقليل الجريمة.

فإذا سُمح للميول الإجرامية أن تنمو وتزدهر في البيوت والمجتمعات بصفة عامة.. فإن خير ما تستطيع الحكومة فعله هو إزالة أعراضها من وقت لآخر. أما الجذور المسببة للشر فهي أعمق من أن تصل إليها ذراع القانون مهما طالت. إن اجتثاث الشر هو المهمة الأولية للأسر والقادة الدينيين وقادة الرأي العام في كل مجتمع.

وبهذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم تحت نظر نبي الإسلام ﷺ .. أعلن ذات مرة أن الأمم السابقة وصلت إلى حال مأساوي لأن الناس عصوا السلطات ومالوا إلى العدوان.. فلم ينه بعضهم بعضا عن ارتكاب المظالم. ثم عقَّب على ذلك بقوله: "كلا والله لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر ولتأخذُنَّ على يد الظالم ولتأطِرُنَّه – أي تردُّنه – على الحق أطْراً ولتقصُرنه – أي تحبسُنه – على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم لَيلعنكُم كما لعنهم.".. (رواه أبو داود والترمذي)

وعن النبي ﷺ أن من أخطر علامات انحطاط الأمم أن الناس يفقدون الشجاعة فلا يبدون سخطهم على المجاهرة بأعمال الفسق وسوء السلوك.. ويضرب النبي ﷺ مَثلَ هذه الأمم في حديث له ﷺ عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال ﷺ :

"مثل القائم في حدود الله – أي من يدفع ويزيل المحارم التي نهى الله عنها – والواقع فيها – أي مرتكبها – كمثل قوم استهموا – أي اقترعوا – على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا – أي فرجة يصلون منها إلى الماء – ولم نؤذ مَن فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم – أي منعوهم من فعل ذلك – نجوا ونجوا جميعا.".. (رواه البخاري).

وأخشى أن هذا المثلَ ينطبق إلى حد كبير على المجتمعات في عالمنا المعاصر.

أوامر ونواهٍ

وأتلو على مسامعكم آيات من القرآن الكريم.. تتناول بعض المسئوليات الاجتماعية الأخرى التي توطد أركان السلام:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾(سورة الفرقان:٦٤)

..فعباد الله يمشون على الأرض برزانة ووقار، وجوابهم للجاهلين هو السلام.

﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾(سورة النساء: ٨٧)

.. إذا حييتم بدعاء فردوا بأحسن منه أو بمثله، فالله تعالى يحصي كل صغيرة وكبيرة.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(سورة لقمان: ١٩و٢٠)

.. لا تلفت وجهك عن الناس كِبرا، ولا تمشِ في استعلاء.. فإن الله لا يحب المتكبر المتباهي. واعتدل في مشيتك واخفض من صوتك فإن نهيق الحمير أبغض صوت.

إن الشخصية التي يسعى الإسلام إلى طبعها في نفوس المسلمين هي في نفسها مانعة لنمو الجريمة والسلوك غير المسئول. ويخلق الإسلام تربة صحية مانعة لنمو الطفيليات والأعشاب الضارة.

ويتحقق هذا الهدف بتعاليم من الأوامر والنواهي تتسم بغاية التفضيل والشمول وتبلغ عدة مئات. ولب هذه التعاليم مألوف في معظم الديانات. وبدلاً من تركيز الأضواء على الفوارق المذهبية بين ملة وأخرى.. أضع أمام أنظاركم بعضاً من هذه التعاليم مع الإشارة إلى بعض آيات القرآن المجيد التي تتصل بها.

فمن الأوامر ما يلي:

العفة:

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾(سورة الإسراء: **٣٢**)وأيضا **٢٣: ٦-٨، ٢٤: ٣١، ٣٤، ٦١؛ ٢٥: ٦٩؛٣٣: ٣٦؛ ٧٠: ٣٠-٣٢.**

النظافة:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ﴾(سورة البقرة: **٢٢٣**، وأيضا **٤: ٤٤؛ ٥: ٧؛ ٢٢: ٣٠؛ ٧٤: ٥-٦.**

كظم الغضب:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: **١٣٥**)

التعاون في الخير:

﴿....وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾(سورة المائدة: **٣**)

فعل الصالحات:

﴿....وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (سورة البقرة: **١٩٨** وأيضا **٣**: **١٣٥**؛ **٥**: **٩٤**؛ **٧**: **٧٥**.

الشجاعة:

﴿....وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾(سورة البقرة: **١٧٨** وأيضا **٣**: **١٧٣-١٧٥**؛ **٩**: **٤٠**؛ **٢٠**: **٧٣-٧٤**؛ **٣٣**: **٤٠**؛ **٤٦**: **١٤**.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾(سورة آل عمران: **١١١**)

التسابق في فعل الخيرات:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾(سورة البقرة: **١٤٩**)

أداء الأمانة:

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ **الأَمَانَاتِ** إِلَى أَهْلِهَا﴾**(سورة النساء: ٥٩)** راجع أيضا: ٢: **٢٨٤**؛ **٢٣**: **٩**؛ **٧٠**: **٣٣**.

إطعام الجائع:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(سورة الإنسان: ٩) راجع أيضا: ٩٠: ١٥؛ ١٥: ١٧.

العفو والصفح:

﴿إِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(سورة التغابن: ١٥) راجع أيضا: ٢: ١١٠؛ ٣: ١٣٥و١٦٠؛ ٤: ١٥٠؛ ٥: ٧ و٩٠؛ ١٤: ٨؛ ٤٦: ١٦.

الشهادة بالحق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ﴾(سورة المائدة: ٩) راجع أيضا: ٤: ١٣٦؛ ٢٥: ٧٣.

حسن المعاملة:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾(سورة النساء: ٣٧) راجع أيضا: ٢: ١٧٨؛ ١٦: ٩١؛ ٣٠: ٣٩.

الاعتراف بالجميل وشكر الصنيع:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾(سورة إبراهيم: ٨) راجع أيضا: ٢: ١٥٣؛ ١٧٣؛ ١٨٦؛ ٢٤٤؛ ٣: ١٤٥؛ ٥: ٧، ٩٠؛ ٣٩: ٨؛ ٦٧؛ ٤٦: ١٦.

التواضع:

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(سورة الأعراف: ٥٦) راجع أيضا: ٦: ٦٤؛ ٧: ١٤، ١٤٧؛ ١٦: ٢٤، ٣٠؛ ١٧: ٣٨؛ ٢٨: ٨٤؛ ٣١: ١٩، ٢٠؛ ٤٠: ٣٦

العدل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّه شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(سورة المائدة: ٩) راجع أيضا: ٦: ١٥٣؛ ١٦: ٩١؛ ٤٩: ١٠.

إشاعة السلام بين الناس:

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (سورة النساء: ١١٥) راجع أيضا: ٤٩: ١٠.

الصبر:

﴿....ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (سورة القصص: ٨١) راجع أيضا: ٢: ٤٦، ١٥٤، ١٥٦، ١٧٨؛ ١١: ١٢؛ ١٣: ٢٣؛ ١٦: ١٢٧، ١٢٨؛ ٢٩: ٦١؛ ٣٩: ١١؛ ٤٢: ٤٤؛ ١٠٣: ٤.

الاستقامة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(سورة فصّلت: ٣١) راجع أيضا: ١٣: ٢٣.

النقاء والطهر:

﴿.... فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(سورة التوبة: ١٠٨) راجع أيضا: ٢: ٢٢٣؛ ٥: ٧؛ ٩: ١٠٣؛ ٢٤: ٢٢؛ ٣٣: ٣٤؛ ٧٤: ٥؛ ٨٧: ١٥؛ ٩١: ١٠، ١١.

ضبط النفس:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(سورة النازعات: ٤١، ٤٢) راجع أيضا: ٤: ١٣٦؛ ٧: ٢٠٢؛ ١٨: ٢٩؛ ٣٠: ٣٠؛ ٣٨: ٢٧.

الإخلاص:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾(سورة الزمر: ٣) راجع أيضا: ٩٨: ٦؛ ١٠٧: ٥، ٧.

الصدق:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(سورة التوبة: ١١٩) راجع أيضا:٤: ١٣٦؛ ٩: ١١٩؛ ١٧: ٨٢؛ ٢٢: ٣١؛ ٢٥: ٧٣؛ ٣٣: ٢٥، ٣٦، ٧١؛ ٣٩: ٣٣.

الإيثار:

﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان..... ﴾(سورة الحشر: ١٠). راجع أيضا: ٢: ٢٠٨، ٢٦٣؛ ١١: ٥٢؛ ٦٤: ١٧؛ ٧٦: ٩، ١٠؛ ٩٢: ٢١،٢٠.

ومن النواهي ما يلي:

الزنا:

﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾(سورة الإسراء: ٣٣)

التكبر:

﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار ..﴾ (سورة الأعراف:٣٧. راجع أيضا: ٢: ٣٥، ٨٨؛ ٤: ١٧٤.

الغيبة:

﴿ولا يغتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم ..﴾(سورة الحجرات: **١٣**).

التفاخر:

﴿... والله لا يحب كل مختال فخور﴾(سورة الحديد: **٢٤**).

السخرية والاستهزاء:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يَسخــر قومٌ من قوم ... ﴾(سورة الحجرات: **١٢**).

اليأس:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله.. ﴾ (الزمر: **٥٤**).

الحسد:

﴿قل أعوذ برب الفلق...﴾(سورة الفلق).

الإسراف:

﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد ...﴾(سورة الأعراف: **٣٢**.

راجع أيضا: **١٧: ٢٧، ٢٨**.

اتباع المجهول:

﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم... ﴾(سورة الإسراء: **٣٧**).

الغطرسة:

﴿ولا تصعر خدك للناس ....﴾(سورة لقمان: **١٩**) راجع أيضا: **١٧: ٣٨؛ ٢٣: ٤٧**.

غش الكيل والميزان:

﴿ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون...﴾(سورة المطففين: **٢-٤**).

البخل:

﴿وأنفقوا خيراً لأنفسكم....﴾(سورة التغابن: **١٧**). راجع أيضا: **٤: ٣٨؛ ٤٧: ٣٩؛ ٥٧: ٢-٥؛ ٥٩: ١٠**.

الخيانة والغدر:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسولَ وتخونوا أماناتكم﴾(سورة الأنفال: ٢٨). راجع أيضا: **٤: ١٠٦، ١٠٨؛ ٨: ٥٩**.

التشكك:

﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن...﴾(سورة الحجرات: **١٣**).

الكذب:

﴿واجتنبوا قول الزور﴾(سورة الحج: **٣١**) راجع أيضا: **٢٥**: **٧٣**.

السرقة:

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيدِيهما جزاءً بما كسبا..﴾(سورة المائدة: **٣٩**).

ويدعو الإسلام قادة الأديان جميعا ليتكاتفوا معا في الدعوة إلى الخير وترويجه، والنهي عن المنكر وارتكاب الشرور. ولو كان الحال هكذا .. لكانت الدنيا أفضل كثيرا مما هي عليه.

نبذ الحقد العنصري

الحقد العنصري هو أشد اللعنات العصرية خطورة على سلام العالم. ويذكِّر القرآن الكريم المسلمين.. بل وبني البشرية جميعا قائلا:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ...﴾(سورة النساء: **٢**).

... فليس لأحد تميزٌ على الآخرين. ويقول القرآن المجيد أيضا:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾(سورة الحجرات: ١٤).

...فالتنوع في بني البشر جنسا أو لونا أو شكلا.. ليس تمييزا لأحد على غيره، بل تيسيرا للتعارف فيما بينهم. أما التفاضل في نظر الله تعالى فأساسه التقوى.. وهذا ما يحيط به العليم الخبير. ويقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يَسخر ...﴾(سورة الحجرات: ١٢).

...فلا يسخرَنْ أحدٌ من أحد.. فلعل هذا أفضل عند الله من الساخر به. ولا يرميَنَّ أحدٌ أحدا بما يشينه أو يعيِّره. فهذا كله سلوك معيب من مساوئ الجاهلية لا يليق بمن تحلّى بالإيمان.. ومن لا يكف عن ذلك يكن من الظالمين.

ومن حيث الظاهر.. يبدو أن المجتمع المعاصر يمضي مبتعدا عن الحقد العنصري والتفرقة، ويزداد إدراكه لأهوالها، ولكن لو نظرتم في الموضوع بمزيد من العناية والتعمق لتبين لكم أن العنصرية موجودة في كل مكان.

ومن المصاعب الأساسية في تعريف التمييز العنصري أنه يبدو مختلفا من زوايا مختلفة. من العسير أن ترسم خطا فاصلا بين التمييز العنصري وبين الإحساس بالتفوق الطبقي أو الديني؛ أو بينه وبين القَبلية؛ والفاشية؛ والإمبريالية؛ والقومية. قد يُعتبر الاضطهاد المأساوي والمعاملة اللاإنسانية التي تعرض لهما اليهود على يد المسيحيين في أوروبا الغربية

لفترة تزيد عن الألف عام، من أمور الماضي التي دفنت بمرور السنين.. ولكن ما تعرض له اليهود أخيرا في الثلاثينيات والأربعينيات على يد النازيين الألمان لا يزال حيًّا في ذاكرتنا لا ينسى.

ولذلك فبمجرد أن نسمع كلمة "الحقد العنصري" تتجه أفكارنا على الفور نحو "معاداة السامية" والتاريخ الطويل من سوء المعاملة تجاه الجنس "السامي" على يد "الأمميين".

وهذا بالطبع فهمٌ محدود للحقد العنصري. إنه فهم محدود لدرجة أنه يصرف انتباهنا بعيدا فلا نلحظ المضامين الأخرى لنفس المشهد، ولا نكاد نتوقف للتفكر في المتطرفين من اليهود الذين ينظرون نحو 'الأمم' بنظرة التعصب البغيض ذاته الذي كانوا هم أنفسهم هدفا له.

وليس هذا كل ما هنالك.. فهناك كثير من الحقد العنصري يفوق ما تراه العين منه. فالحقد العنصري – وإن لم ينطبق عليه هذا التعريف انطباقا واضحا– فهو موجود بالفعل تحت أزياء مختلفة.. والقومية واحد منها. ثم إن التحاملات الدينية والقَبَلية والإقليمية ما هي إلا أمثلة قليلة يعمل الحقد العنصري فيها تحت مسميات مختلفة. وتحاملات العناصر البيضاء ضد غير البيضاء أشكال أخرى للحقد العنصري أيضا.. وإن كان مما يخالف الإنصاف لومُ البيض وحدهم على ما يَكِنونه من تحيز ضد من لا يماثلونهم في اللون والملامح؛ فهناك أيضا حقد عنصري أسود، وحقد عنصري أصفر، وحقد عنصري للألوان الأخرى.

إن جوهر الحقد العنصري هو التحيز الطائفي. ولعل هذا هو أفضل تعريف للحقد العنصري. فعندما يشرع قوم في التصرف المتحيز ضد طائفة أخرى من الناس متذرعين بمصالحهم الطائفية فإن الحقد العنصري يزحف ويرفع رأسه القبيح السام. وعند التعبير عن مثل هذه البغضاء لا يؤخذ في الاعتبار ميزة فردية.. بل يكون التعميم هو القانون.

منذ قرون غير بعيدة.. كان العالم الغربي بصفة أساسية منقسما في جانب النصرانية ضد الإسلام. وكان الدور الذي لعبه اليهود خلال هذا العصر من تحيزات دينية قوية إزاء المسلمين دورا خفيا نسبيا. وكان المعروف–من ناحية أخرى– أن اليهود كانوا جزءا من أوروبا النصرانية التي كانت تكره الأمم الإسلامية الواقعة حول حوض البحر المتوسط ولا تثق فيها، وكانت قلقة متخوفة من اندفاع هذه الأمم نحو الغرب. وأثناء هذه الفترة من الأعمال العدائية الشديدة بين مسيحيي الغرب وبين المسلمين.. كان هناك عامل إضافي من الحقد العنصري أساسه اختلاف اللون. وفي ذلك الوقت بقي مسلمو إندونيسيا وماليزيا والصين والهند آمنين وبعيدين تماما. كان النزاع أشبه بأن يكون بين المحور التركي العربي ضد مسيحيي أوروبا بصفة عامة.

وبالرغم من أن هذا التاريخ يبدو دفينا منسيا.. فإني أراه يرفع رأسه مرة ثانية. ولعل المشاكل البشرية لا تموت أبدا مهما بدا قبرها عميقا. وعَوْداً إلى عصرنا الحاضر.. فما دام العالم مستقطَبًا بين القوتين العظميين وحلفائهما كان من صالح الغرب أن يثير هذه القضايا أو يسمح

بإثارتها. ولكن منذ أن بزغ فجر العصر الجديد للعلاقة بين الشرق والغرب.. يوشك فارس أسود من فرسان العصور الوسطى أن يُلقي أيضا بظل هذه العصور المشئومة.

هناك خطر حقيقي من إحياء المنافسات الدينية والسياسية التاريخية بين النصارى والمسلمين في المناخ الجديد الذي خلقته التغيرات الخطيرة في الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية. ويمكن أن تزيد المصالح الموروثة من هذه الإثارة بين كلا الجانبين. وأخشى في هذا الصدد أن يقوم رجال الدين من النصارى ومن المسلمين بدور مقيت في تفاقم هذا الموقف ومزيد من التدمير لاحتمالات السلام والوفاق بين المسلمين والنصارى. ولو حدث هذا لكان بالتأكيد في صالح إسرائيل.. وإن كانت إسرائيل بعيدة عن أن تخطر في بال مراقب غيرِ مهتم أو غير معنِيّ.

ثم إن هناك خطوطَ انقسامات سياسية واقتصادية.. توَلَّد منها نوع جديد من الحقد العنصري.. ذلك هو الحقد العنصري بين الشمال الثري والجنوب الفقير وبين الغرب والشرق.. يعبر عنه قولهم:

الشرق شرق، والغرب غرب   هيهات لِلفريقين أن يتلاقيا

ولربما أدى التقارب والوفاق الحديث بين القوى العظمى إلى إحياء الخلافات والخصومات التاريخية في الدين والسياسة بين الغرب النصراني والشرق المسلم. ولا يندهشنّ أحد أبدا إذا ما طفق الشرق والغرب

يتباعدان نتيجة للاستعمار الجديد وحِقد عنصري عريض ينجم حتماً عن هذا الوفاق بين القوى العظمى.

وقد يبدو- بحسب التسمية المقبولية عالميا- أني أخطى خارجا عن تعريف الحقد العنصري.. وأمدُّه إلى مناطق لا يُفهم أن لها دلالات عنصرية، ولكن ملاحظتي مؤسسة على دراسة مستقلة عميقة للدوافع البشرية. وما دامت القوى المحركة هي ذاتها.. فيستوي أن تسمي تعبيرا معينا لسلوك بشري شائه باسم الحقد العنصري، أو تسميه بأي اسم آخر متلطف متحضر.. إذ يظل الداء أساسا هو نفسه.

وينبغي أن يفهم الحقد العنصري بمفهومه الأوسع على أنه تحاملات وتحيزات طائفية تتعارض مع اعتبارات العدالة المطلقة والإنصاف.

إن انحسار التناقض بين الكتلتين الأمريكية والروسية قد أدخلنا في عهد جديد تماما.. نتحرك فيه بالأحرى نحو تعديلات عالمية بدلا من اختفاء الأقسام. ومع تلاشي الأقسام الأيديولوجية فإن المقدر للأقسام المعروفة في السابق عند مستويات مختلفة من العلاقات الدولية أن تكون أكثر نماء وتحديدا. وخلال عصر المنازعات المتصاعدة بين الرأسمالية والاشتراكية تراجع التقسيم التقليدي القديم بين الغرب والشرق إلى مرتبة ثانوية عديمة الأهمية نسبيا. ولما لم يعد الحال هكذا.. فإن التقسيم إلى شرق وغرب سوف يبرز مرة أخرى ليكون أوضح خط فاصل بين أمم الغرب المتطورة وأمم الشرق المتخلفة.

أما بلاد شرق أوروبا التي تحررت، وروسيا بالمثل، فسوف تتحول بالتدريج حتى تندمج في النهاية مع الحكومات الرأسمالية وتتخذ نفس مواقفها تجاه العالم الثالث. ومع أنه سوف تنشأ منازعات جديدة من التنافس على الأسواق الأجنبية ومحاولة احتكارها.. لكن بلاد الغرب في مجموعها سوف تقف كوحدة سياسية اقتصادية أكبر كثيرا مما كانت عليه من قبل، هادفة إلى استيعاب الكتلة الشرقية، ولسوف يُحدث هذا جلاء وتأكيدا للتقسيم التقليدي بين الغرب والشرق.

أَضِفْ إلى هذا مولد الاشتراكية الجديدة حيث تحل الأمم محل الأفراد والطبقات. وعندئذ لن يكون الاستقطاب إلى 'مالكين' و"معدمين" بين الأغنياء في أمة وتفاعلهم مع فقراء بلد آخر. قد يبقى هذا الاستقطاب الفاجع لسنوات معدودة قادمة خامدا كليلا.. ولكن المواجهة النهائية الواسعة لا يمكن تفاديها.

إن لدي مخاوف عميقة من أننا ندخل الآن إلى عصر جديد لعنصرية عالمية شاملة من أبشع نوع.. تجد دفعا مساعدا وتحريضا من قطاع في القيادة السياسية الصهيونية. فلو أخذنا مأخذ الجد كتاب "بنيامين البيت-لحمي".. من جامعة حيفا، ومؤلف (أصدقاء إسرائيل): مَن تسلحهم إسرائيل ولماذا؟ (توريس وشركاه، لندن ١٩٨٨)؛ ولو اعتبرنا الشواهد التي ساقها في تشكيل جيد وتحديد دقيق لفلسفة السياسة الصهيونية حقيقية وأصيلة.. لكانت نذير شر حقًّا لاحتمالات السلام العالمي.

وتبرز أمامنا هذه الصورة للدور الذي تلعبه وسوف تلعبه إسرائيل في الشؤون العالمية:

* في يناير **١٩٥٧** قال دافيد بن جوريون – الأب المؤسس لإسرائيل: "من وجهة نظر وجودنا وأمننا فإن صداقة قطر أوروبي واحدٍ أفضل كثيرا من كل شعوب آسيا" (مدزيني Medzini، **١٩٧٦**، ص**٧٥**).

*.... إن اهتمام إسرائيل باستعادة تفوقها على العرب يتوافق مع الهدف الأمريكي لوقف تدهور الإمبريالية. ص**٢٠٥**

* إن ما يحبه الجناح اليميني الحديث هو: الإسرائيلي الطويل الفارع، الشديد، المسلح برشاش الأوزي (Uzi) ، يقتل به ذوي البشرة الداكنة.. منتصرا على عنصرية قوى العالم الثالث. وهذا ما جعل جنرالات الأرجنتين وكولونييلات الباراجواي وبريجاديرات الأفريكان يحبون الإسرائيليين. ص**٢١٨**

* إن الشعار الجديد 'فليسقط العالم الثالث' الذي نشأ في الولايات المتحدة منذ السبعينيات كان مرتبطا بإسرائيل، وكان أبطاله من أمثال 'دانييل باتريك موينيهام Daniel Patric Moyniham وجين كير كباتريك Jean Kirkpatrick ' يعتبرون إسرائيل حليفا ملهما. ص **٢٢٢**

* كان 'فلاديمير جابوتنسكي Vladimir Jabotinsky' – زعيم الجناح اليميني الصهيوني قبل الحرب العالمية الثانية- صريحا تماما إزاء

التحالف بين الصهيونية والإمبريالية.... وللحركة الصهيونية عزم لا يهتز للاحتفاظ بكل منطقة البحر المتوسط في أيدٍ أوربية...

'سنكون دائما في جانب الغرب في كل نزاع بين الشرق والغرب.. لأن الغرب ما برح يمثل تراثا أسمى من الشرق على مدى الألف سنة الماضية بعد تدمير الخلافة في بغداد على يد المغول.... ونحن اليوم أبرز حَمَلَةِ هذا التراث المخلصين.... لا يمكن أبدا أن نساند الحركة العربية التي تقف ضدنا اليوم، ونحن سعداء تماما بكل سيئة تصيب هذه الحركة'.

(برنر، **١٩٨٤** ص**٧٥- ٧٧**). ص**٢٢٧**.

* إن فكرة التحرر لدى مجموعة العالم الثالث تهدد جوهر الصهيونية. كما أن مفهوم الحقوق الإنسانية شديد الخطورة على الجهاز السياسي الإسرائيلي.... إن ما نزل بالفلسطينيين من ظلمٍ واضحٌ ومُلفت للنظر حتى إنه لا يمكن مناقشته علانية، وكل مناقشة لما تقوم به إسرائيل في العالم الثالث لا بد وأن يؤدي إلى دراسة حقوق الفلسطينيين... (الإسرائيليون) يسارعون إلى اتهام سائر العالم بالنفاق عندما تُبحث مسائل الحقوق الإنسانية والعدل الدولي. وهم في هذا يماثلون الأفريكان البيض. ص**٦-٢٣٧**

* من مانيلا بالفليبين.. إلى تيجوسيجالبا في هندوراس.. إلى وندهوك في ناميبيا.. ما برح المبعوثون الإسرائيليون مشتبكين في حرب مستمرة،

وهي حرب عالمية حقا. وأي عدو تحاربه إسرائيل؟ إنهم سكان العالم الثالث الذين لا يمكن أن يُسمح لثورتهم بالانتصار. ص**٢٤٣**

* تبدو التكهنات طيبة بالنسبة لإسرائيل فحَسْبُ ما بقي العالم العربي وسائر العالم الثالث منقسما وضعيفا. وأي تغير في هذه الصورة ينذر بالشر. ص**٢٤٧**

* إن الذي تصدِّره إسرائيل هو منطق المستبد، أَيْ رؤية العالَم مقيدا تحت السيطرة الناجحة. وما يُصدَّر ليس مجرد التكنولوجيا والأسلحة والخبرة، ليس مجرد المعرفة.. بل إطار فكري معين. ص**٢٤٨**

ومن المأمول بقوة في مواجهة صيحة الحرب الصهيونية هذه أن يتغلب صوت القطاع المعتدل في قيادة إسرائيل. ويبدو 'هَركَبي Harkabi' نموذجا مثاليا بين من يمكن وصفهم بالاعتدال والمنطق في كُتاب إسرائيل. فهو لا يستهجن موقف صقور الصهاينة المتطرفين فحسب.. بل ويعتبره بإخلاص عملا انتحاريا ضد مصالح الصهيونية نفسها. ولا تلقى هذه الآراء التي يعبر عنها 'هَركَبي' مشاركة بنفس القدر لدى غيره من المفكرين والمثقفين بين اليهود. وعلى سبيل المثال.. يتخذ 'هركبي' وجهة نظر أكثر واقعية وعملية نحو نفس المشكلة .. وخصوصا اقتراحه 'الأرض في مقابل السلام' الذي يفتح سبيلا للأمل لدى العرب.

وإني أعتقد اعتقادا راسخا بأن التحامل، وأي جهد للتفرقة بين البشر عند أي مستوى قد ينتج عائدا قصير الأجل للبعض.. ولكن عواقبه على المدى الطويل ستكون شرا حتما لكل المعنيين.

وفي المشهد العالمي المعاصر يملك الإسلام رسالة إيجابية للغاية، ودَورًا مؤثرا ليؤديه. إن الإسلام ليشجب الحقد العنصري والتباغض بين الطبقات بأشد العبارات. كما أن إثارة الفوضى والاضطراب في أي صورة عمل ممقوت. والآيات القرآنية التي سقناها آنفا قليل من كثير في هذا الموضوع.

إن الصفة المميزة لنبي الإسلام ﷺ هي أنه نور الله الذي لا ينتمي إلى شرق أو غرب.. وإنما هو مشترك بين الجميع. يقول القرآن الكريم:

﴿الله نور السماوات والأرض. مَثل نوره...﴾(سورة النور: ٣٦)

كما قدَّمه للدنيا بصفته رحمة ومنبع بركة للعالم أجمع ولكل بني البشر فقال:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(سورة الأنبياء: ١٠٨)

وإنه ليروعني أن أرى كثيرا من علماء الدين المسلمين المتمسكين بفكر القرون الوسطى المتخلفة.. الذين يُسمَّوْن خطأ (السلفيين).. يُقرُّون الرأي القائل بأنه يجب على المسلمين مواجهة غير المسلمين بجهاد مسلح، وأن تستمر الحرب معهم حتى تستأصلهم أو يدخلوا في الإسلام. والإسلام -كما يؤكد القرآن المجيد- لا علاقة لـه بتاتا بهذا

المفهوم الشائن الفاسد عن 'الجهاد المقدس'. لقد اقتبسنا آيات قرآنية عديدة تحت عنوان 'السلام الديني'.. فلا حاجة لتكرارها هنا.

اسمحوا لي أن أختتم هذا الباب مؤكداً مرة أخرى على أن الإسلام يؤيد ويقدِّم التدابير التي تقرِّب بين بني البشر.. من خلال عملية سلمية.. بهدف توطيد السلام العالمي وتوحيد الجنس البشري.

وفيما يتعلق بموقف نبي الإسلام الكريم ﷺ فيكفي أن تستمعوا إلى المقتطفات التالية من 'خطبة الوداع'.. وهي خطبته الأخيرة التي ألقاها قبيل وفاته.. أمام أكبر حشد من البشر خطب فيه:

"أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا.

أيها الناس، إن الله قد حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم. إن الله قد أدَّى لكل ذي حق حقه (يعني من الميراث)، وأنه لا تجوز وصية لوارث (أي لا تُقبل شهادة بوصية تضر بصالح الوارث الشرعي)، الولد للفراش (أي ينسب الطفل إلى رب البيت الذي يولد فيه)، وللعاهر الحجر (أي من طعن في أبوته أقيم عليه الحد الشرعي). ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولَّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقا. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه. وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة....فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا

بالنساء خيرا، فإنهم عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئا، وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله..

(يعني: أوصيكم، وتواصوا فيما بينكم بحسن معاملة النساء، فقد تزوجتموهن أمانة من الله تعالى، وبحسب شريعة الله، وجعلكم قوامين على رعايتهن، وهن ضعيفات لا يستطعن حماية حقوقهن، فلا تخونوا أمانة الله التي وضعها في أيديكم).

أيها الناس، أرقّاءَكم أرقاءكم.. أَطعِموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون. وإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم....

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه. تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم. وأن المسلمين إخوة.. فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس.. فلا تظلمُن أنفسكم. كلكم سواء. الناس جميعا سواء مهما اختلفت أممهم أو قبائلكم أو أحسابهم. (ثم رفع يداه وشبك أصابع يديه مع بعضها وأضاف:) الناس متساوون كتساوي أصابع اليدين. لا فضل لأحد على أحد. كلكم إخوة.

أيها الناس، إن إلهكم لواحد. وإن أباكم لواحد. لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي. ولا فضل لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم....

إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. إن الله قد حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا.

بلِّغوا عني إلى أقصى الأرض.. فرب سامع أوعى من مبلغ." (الصحاح الستة، تاريخ الطبري، السيرة النبوية لابن هشام، تاريخ الخميس، البيهقي).

إنها لخطبة قوية بيِّنة غنية عن التعليق.. ولكن يجدر بنا التنبه إلى ما ذكره النبي الكريم ﷺ من أننا أبناء لأب واحد. وهذا في الحقيقة دلالة بيِّنة على أنه لا يُسمح لاختلاف الديانات بتفتيت الأخوّة البشرية العالمية المنبثقة من أبوة واحدة.

(٣)

السلام الاجتماعي الاقتصادي

١- مقدمة.

٢- العدالة الاقتصادية في ظل كل من الرأسمالية والاشتراكية والإسلام.

٣- الإنفاق في سبيل الخير في السراء والضراء.

٤- الإنفاق على الفقراء.

٥- العرفان بالجميل.

٦- لا جزاء على المعروف من البشر.

٧- ماذا يُعطى للسائل؟

٨- العطاء سراً وعلانية.

٩- المسئوليات الاجتماعية.

١٠- حدود ممتدة للإنفاق.

١١- مثال من صدر الإسلام.

١٢- تحريم الخمر والميسر.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (سورة البقرة: ٢٦٦)

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (سورة آل عمران: ١٥)

مقدمة

وللإسلام أيضا كلمة نصح فيما يتعلق بالمجالات التي تتلاقى عندها آفاق المجتمع والاقتصاد. ولو وضعت هذه التعاليم موضع التنفيذ فإنها قادرة على تبديل غسقنا وشفقنا إلى سطوع نور غاية في الجمال.

العدالة الاقتصادية في كل من الرأسمالية والاشتراكية والإسلام

العدالة الاقتصادية شعار جميل. ومع أن محاولات جرت لاحتكار هذا الشعار وحجبه عن الآخرين إلا أنه مشترك بين كل من المجتمع الرأسمالي ذي السوق الاقتصادي الحر.. والمذهب الاجتماعي العلمي في المادية الجدلية؛ فكلاهما يتحدث عن العدالة. ولكن يجب عليَّ — مع تقديم الاعتذار اللائق — أن أعبر عن خشيتي من أن النظامين قد فشلا في تحقيق العدل التام نحو مبدأ العدالة الاقتصادية الذهبي؛ وسنعرض الكثير من هذا فيما بعد.

إن المفهوم الإسلامي للعدالة المطلقة غلَّاب عبق. إنه يشمل كل جانب للتعليم الإسلامي. ليس ذلك فحسب.. بل إن الإسلام يتقدم خطوة أخرى إلى الأمام.

في الاشتراكية العلمية هناك محاولة لتسوية أرض الاقتصاد تسوية تامة حتى لا يبقى فيها ارتفاع أو انخفاض. وعند ريّ هذه الأرض فإنها تأخذ نصيبها من الماء بالتساوي. فليس هناك أي مطالبة ممن لا يملكون، أو أي تهديد لمن يملكون.. من جانب قطاعات المجتمع الأقل حظا عن طريق 'سلبهم' الجبري من 'فائض ثروتهم'.

وفي المجتمع الرأسمالي يتحدثون عن الفرص المتكافئة، والملاعب الممهدة، والاقتصاد الحر.. أ:ثر مما يتحدثون عن التوزيع المتساوي للثروة. وهكذا يكون هناك مجال دائم للمطالبة بالحقوق وخلق جماعات الضغط كنقابات العمال وغيرها.. التي تسعى للحصول على أقصى ما يستطاع من الحكومات أو من الرأسماليين الآخرين من أجل الموظف والعامل اللذين يعيشان تحت إحساس دائم بالحرمان.

ولو طُبقت الاشتراكية العلمية بصورة مثالية ما كانت هناك حاجة لأي قطاع من المجتمع في أن يتقدم بطلبات. وإما أن يكون هذا المجتمع غنيا بما فيه الكفاية لتوزيع الثروة القومية بالقسطاس طبقا للحاجات؛ أو أن يكون فقيرا بحيث يعجز عن الوفاء بحاجاتهم.. فيبقى كل عضو في المجتمع مشاركا بنصيب من البؤس معادلا لنصيب غيره. وفي كلا الحالين.. يؤول الأمر إلى مجتمع لم تعد للحاجات فيه دور ذو مغزى يؤدى.

والنظام الرأسمالي على الجانب الآخر له اتجاه طلبي. ولا بد لقطاعات المجتمع الأقل حظاً من أن يُعطى لها الحق في التعبير عن عدم رضاها،

وفرصة حرة كي يُسمع صوتها.. ومن ثَم كانت الحاجة إلى تكوين جماعات الضغط، والإضرابات، والمنازعات الصناعية، ووقف العمال، وما إلى ذلك.

يسعى الإسلام إلى خلق موقف عن طريق تذكير الحكومات وأهل الثراء بأن مصلحتهم النهائية هي في أن يؤسسوا نظاما اقتصاديا عادلا. كما أنه يحثهم حثا متواصلا كي يتنبهوا لحقوق الآخرين. يجب ألا يُنكر على الضعفاء والفقراء حقوقهم الاقتصادية الأساسية: مثل حرية المرء في اختيار مهنته، والمساواة في إتاحة الفرص والمتطلبات الأساسية للحياة. ولقد تسبب الافتقار إلى هذا الموقف ذي الأهمية الكبرى في كثير من الشقاء والألم والاضطراب في تاريخ نضال البشرية طلباً للبقاء. لذلك نجد في الإسلام تأكيدا أكبر على 'العطاء' أكثر من 'الأخذ' أو 'الاحتفاظ'. فيجب على الحكومات والأثرياء أن يكونوا دائما متيقظين كيلا يكون هناك قطاع من المجتمع محروم من الحق الإنساني الأساسي في الحياة الكريمة. والحكومة الإسلامية الحقيقية هي التي تشعر بالحاجات وتتخذ التدابير اللازمة للوفاء بها.. قبل أن يصبح الغمُّ صراخا واحتجاجا، وقبل أن يتهدد الأمن والنظام.. يجب إزالة أسباب الغم والوفاء بالحاجات.

وفي هذا الصدد، يبدو من حيث الظاهر أن الإسلام يشترك مع المجتمع الاشتراكي في صفته هذه، والواقع أن التشابه سطحي فقط. إن الإسلام

يتوصل إلى هدفه.. ولكنه لا يلجأ إلى وسائل الإكراه نفسها التي تسنها الاشتراكية العلمية لتحقيق ذلك.

لا يتيح لي الوقت أن أعرض أمامكم وصفا تفصيليا للكيفية التي يسعى بها الإسلام لتحقيق هذا الهدف السامي، ولكن بوسعنا أن نذكُر هنا أن المدخل الإسلامي إلى هذه المسألة ليس مدخلا آليا أو عديم الحياة مثل الفلسفة الجدلية المادية. ويبقى النظام الاجتماعي الإسلامي على ارتباط عميق بالقوانين الفطرية للنفس البشرية.

ومن بين أشياء أخرى.. يخلق الإسلام جوًّا يجعل طلب المرء لحقوقه يتراجع أمام اعتبارات حقوق الآخرين. ويسمو مستوى وعي المرء لمعاناة إخوانه في الإنسانية إلى درجة تجعل أعضاء المجتمع في مجموعه يهتمون بما عليهم للمجتمع أكثر مما يهتمون بما لهم عنده. جاء في الحديث النبوي: أعطِ الأجير فوق حقه. هكذا كان النبي الأكرم يذكّر أتباعه بمثل قولهﷺ : أعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه. هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويُلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم. إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه - فإن لم يجلسه معه — فليناوله أكلة أو أكلتين فإنه وليَ عِلاجه. ولقد حذّر النبي ﷺ أحد صحابته الأجلاء من عقاب الله تعالى عندما آذى عاملا تحت يده بقوله: اعلم أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام.

الإنفاق من أجل الخير في السراء والضراء

يؤكد الإسلام بعبارات قوية على كرامة الإنسان في كل مناحي الحياة. وتقدم الآيات القرآنية التالية قانون الأخلاق فيما يتعلق بحاجات الفقير والمحتاج وكيف يمكن الوفاء بها. فالله تعالى يجزل ثوابه لهؤلاء:
﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(سورة آل عمران: **١٣٥**)

الإنفاق على الفقراء

إن للصدقة عند الناس عموما جانبين: فهي من ناحية ثناء على الخصال الممتازة التي يتمتع بها المعطي، وهي من الناحية الأخرى صورة محرجة.. إن لم تكن مخزية لمتلقيها. إن أخذ الصدقات في ذاته يحط من مركزه. ولكن الإسلام يطور هذا المفهوم ويحدث فيه ثورة.
في الآية القرآنية التالية نجد تحليلا مُبهرا لكون بعض الناس فقيرا معدما والبعض الآخر كثير المال:
﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(سورة الذاريات: ٢٠)..
.. أي أن جزءًا من ثروة هؤلاء حقٌّ واجب للسائلين.. أي الشحاذين، ولمن لا يسألون، أي الفقراء.
وعموما فإن الحلقة المفقودة عادة هي استخدام مدلول كلمة «حق».. وهو مدلول يملأ مجلدات عن موقف من يعطي الصدقات وموقف من

يتلقاها. يُذكّر القرآن المحسن على الفقير.. أن ما يعطيه هو في الحقيقة ليس له. لا بد أن هناك خطأ كبيرا في اقتصاد يُترَك فيه الناس محرومين أو مجبرين على الاستجداء كي يستطيعوا العيش. لا ينبغي- في ظل نظام اقتصادي سليم- أن يوجد محروم، أو توجد حاجة حقيقية ليستجدي أحد من أجل أن يعيش.

ورسالة القرآن إلى من يتلقى الصدقات تذكّره ألا داعي للشعور بالحرج من جانبه، أو لمعاناة أي عقدة نقص.. ذلك لأن الله تعالى قد أعطاه حقا أساسيا في العيش بكرامة وشرف؛ وكل ما يعطيه لك المحسن هو في الواقع حقك.. وصل إلى يد المحسن على نحو ما.

وكما سبق بيانه.. ترون أن التعاليم الإلهية تتعلق تعلقا مباشرا بالطبيعة الإنسانية. كل أمر يُحتمل منه الإخلال بهذا التوازن يوضع له التدابير التصحيحية للمحافظة عليه.

عرفان الجميل والشكر عليه

على ضوء ما قلناه آنفا هناك خطر محتمل بالطبع من أن يكون بعض الناس ناكرين لجميل المحسنين، وبدلا من إبداء امتنانهم لأي معروف يتلقونه قد ينتهي بهم الحال إلى قول: إننا ما أخذنا سوى حقنا، ولسنا بحاجة للامتنان نحو أحد. وإذا وجد هذا الميل فيهم تشجيعا لكان ذلك على حساب السلوك والمجاملة والأدب. ويتوجه القرآن الكريم إلى من يتلقى إحسانا، ويذكّره مرارا بواجب عرفان الجميل والتعبير عن امتنانه

لأقل إحسان يُقدَّم إليه. كما يُخبر المؤمنَ أن الله تعالى لا يحب جاحد الفضل، فيقول مثلا:

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(سورة الزمر: ٨)

إذا كفرتم النعمة والفضل، فإن الله تعالى غني ولكنه لا يرضى لكم الكفر، ويرضى منكم الشكر والامتنان. ولن يحمل أحد عن غيره حمله، ومصيركم النهائي إلى ربكم فيخبركم بكل ما عملتم. وإنه لمطلع تماما على كل ما يجول بأفكاركم.

ثم يؤكد النبي ﷺ على أهمية موقف الشكران ويذكِّر المؤمنين بأن «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

ومضمون هذا القول النبوي أن جحد معروف إخوانه من البشر، فإن الله تعالى لن يتقبل منه الشكر إذا شكر له. فرسالة القرآن المجيد في الآية السابقة لا يثبِّط مواقف الأدب واللياقة والامتنان.. ولكنه رسالة هادئة إلى من يتلقى معروفا ألا يعاني من أي عقدة نقص وأن كرامته ستبقى مصانة لا تُمس. والنتيجة أن التعبير عن الشكر ليس ضد كرامة الإنسان، بل إنه يسمو بها.

ويلتف الإسلام إلى المحسن ويقف منه موقفا مختلفا تماما. ويعلمه أنه لمما يناقض الكرامة والتواضع أن يتقبل الشكر كما لو كان مستحقا له. وهذا الميل موجود كجزء من السلوك المتحضر في كل مكان من العالم،

ولكن ثمة فرق جوهري بين هذا السلوك العالمي المتكلِّف وبين تعاليم الإسلام عن السلوك النبيل. يعلم الإسلام المحسن أن يخدم البشرية لهدف أسمى وأنبل من مجرد إشباع حافز فطري، أو لاكتساب سمعة طيبة على أعمال الخير.. ولكنه لا ينفك يذكِّره أن يفعل الخير في سبيل الله تعالى ولاكتساب مرضاته ونيل فضله وحده.

ومن هذا يتبين أن المسلم الصادق الحق عندما يعطي شيئا لمحتاج فإنه في الحقيقة لا يفعل ذلك من أجله ومن أجل أي إنسان آخر.. وإنما لإرضاء خالقه الذي أنعم عليه أصلا بكل ما لديه.

وفي ضوء هذا المبدأ.. فإن كل ما ينفقه على الآخرين ما هو إلا تعبير عن امتنانه لربه وليس على سبيل الإحسان لأحد. ولهذا الموقف السامي جذوره في آية قرآنية في بداية القرآن تذكّر المؤمنين بقاعدة ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾(سورة البقرة: ٤)

.. إنهم ينفقون في سبيلنا من كل نعمة أنعمنا بها عليهم. وإذن، عندما يتحرج المؤمن الصادق من سماع عبارات الامتنان لا يكون ذلك نابعا من مجرد التجمل وآداب السلوك.. ولكنه يؤمن أن المتلقي إذا كان مدينا لأحد.. فهو مدين لله تعالى وحده وليس لي. ويشعر المؤمنون الصادقون الذين يدركون حقا معنى الإيمان بشعور الحرج الشديد عندما يُرد على صنائعهم بالشكر. يصف القرآن هؤلاء في قوله:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا﴾(سورة الإنسان : ٩-١٠)

.. إن مجرد تقديم الطعام للناس ليس كافيا، ولكن أطعِمهم وأنت تعرف معنى الجوع والمعاناة وتشاركهم ألمهم.. لا تبتغي مكافأة أو شكراً في مقابل ذلك.

والجمال في هذه الآية يبهر النظر. لو علِّم المؤمنون أن يُبدوا موقفا سطحيا متواضعاً لكان فيه خطر النفاق. عندما نقول: لا، شكرا، فنحن في الواقع مدركون أن قولنا هذا سوف يرفع شأننا في نظر متلقي المعروف. وتعاليم الإسلام أسمى من ذلك بكثير. إنها تذكر المحسن بأنه لا يستطيع بيع بضاعته مرتين لعميلين مختلفين؛ عمل الخير إما أن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى أو لاكتساب الحظوة عند الناس. وطبقا لمضمون هذه الآية الكريمة لا يستطيع المرء أن يجمع بين المقصدين في وقت واحد.

عندما يقول العبدُ المهذَّب للمحتاج أنه يريد حقا وجه الله تعالى.. ففي هذا تذكير له أن الله هو المحسن الحقيقي.. وهذا يزيل أي عقدة نقص قد تتولد في نفسه.

لا أجر على المعروف من البشر

في نظر الإسلام ينبغي ألا تكون معاملة الناس بلطف وأدب عادةً ظاهرية مكتسبة من قيم حضارية، وإنما يجب أن تكون جذورها ضاربة في أعماق الإيمان بالله تعالى. وينبغي إعطاء الصداقات للمحتاجين دون

أن يكون هناك أي دافع للحصول منهم على مقابل لها. يقول الله تعالى:

﴿ولا تمنن تستكثر﴾(سورة المدثر: ٧)

.. لا تصنع المعروف لتطلب به معروفا أعظم.

يريدك الإسلام إذا ما أسديت حسنة لأحد أن تنساها كما لو كانت لم تحدث قط. إن الفرح بفعل الحسنات والإكثار من ذكر الأفضال عملٌ قاتل مدمر لها. وعلى العكس من ذلك فإن المؤمن الصادق يتصرف بحسب قول الله تعالى في الآيات التالية.. وهي تعرض مقارنة شاملة بين المسلك الصحيح وغير الصحيح.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(سورة البقرة: ٢٦٢-٢٦٥)

فالإنفاق في سبيل الله تعالى كحبة قمح مثلا.. أنبتت سبع سنابل، وحملت كل واحدة منها مائة حبة.. وبذلك زادت الحبة سبعمائة مرة..

والله تعالى يزيد الجزاء أكثر من ذلك.. لأنه واسع العطاء عليم بالنوايا والأهداف. والصدقة إذا صاحبها معايرة أو جرح لمشاعر المحتاج صارت عملا باطلا؛ وأفضل منها عند الله تعالى أن يقول كلمة طيبة واعتذارا رقيقا.. كذلك ومن ينفق في سبيل الله تعالى دون معايرة أو جرح لمشاعر المحتاج فأجره عند الله، ولن يقع في خوف أو حزن. والكلمة الطيبة مع الاعتذار الرقيق خير عند الله تعالى من الصدقة المصحوبة بالأذى.. لأن الله تعالى غني حليم. إن المن والأذى يبطل أثر الصدقات ونفعها.. وتكون نفقة للتظاهر أمام الناس، لا يبعث عليها إيمان، مثلها كمثل صخرة عليها تراب فهطل عليها المطر وتركها ملساء صلبة لا تنبت خيرا. وهؤلاء الناس لن يضمنوا شيئا مما كسبوا. والله لا يهدي المرائين الكافرين.

الاستجداء

ويقول الله تعالى :

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾(سورة الضحى: ١١)

.. لا يجوز أن تعنف من يطلب المساعدة منك.

ينبغي معاملة الشحاذين باحترام، فلا تتحدث إلى شحاذ بخشونة. ومع أن الشحاذة مستنكرة إلا أن حق السائل مكفول لمن كان في حاجة ملحة شديدة. ولا يُسمح لأحد أن يجرح كرامة أولئك الذين اضطروا للسؤال. وفي أيام الإسلام المبكرة، رغم أن كرامة الفرد كانت محفوظة

وإن كان سائلا- إلا أن المجتمع في عمومه فهم جيدا أن الامتناع عن الاستجداء خير على أي حال. ولقد ركز النبي ﷺ على هذه المسألة وقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى».. يعني أن اليد المعطية خير من اليد الآخذة. ونتيجة لذلك فضَّل عدد من المسلمين الموت في عوز على المسألة من أجل العيش.

وتوفيرا لحاجات هؤلاء يذكِّر القرآن الكريم مجتمع المسلمين عموما أن هناك من بينهم أناسا وقفوا حياهم للعمل في سبيل الله وليس لهم مخرج من حالة الفقر التي يعيشون فيها.. فيقول:

﴿ لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّه لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيم﴾(سورة البقرة: **٢٧٤**)

.. فالصدقات لهؤلاء الفقراء الذين احتجزهم السعي في سبيل الله فلا يستطيعون الحركة طلبا للرزق.. ويتعففون عن السؤال.. فيحسبهم من يجهل حقيقتهم أغنياء.. ولكن أمارات الفقر بادية على حالهم.

ويتضح هذا المبدأ من الآية التالية:

﴿مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّه وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب﴾(سورة الحشر: ٨)

.. يجب أن يوزع ما ينعم الله به على رسوله من الغنائم التي تقع في يده بدون قتال على مصارفها المذكورة هذه.

ويذكر رسول الله ﷺ هذا المبدأ في حديث له:

«عن حكيم بن حزام عن النبي ﷺ أنه قال: اليد العليا خير من اليد السفلى. وابدأ بمن تعول. وخير الصدقة عن ظهر غنىً. ومن يستعفف يُعفه الله. ومن يستغن يغنه الله... ».

.. فمعطي الصدقة خير ممن يتلقاها. وابدأ العطاء بمن تعول، وخير الصدقة ما أعطيت من فضل مالك.. أي مالٍ فائض بعد النفقات الضرورية. ومن يمتنع عن السؤال وتعفف فسوف يعطيه الله ما يغنيه. ولكي تكون يدك هي العليا في الخدمة.. أنفقْ وأعط الصدقات وانفع الآخرين لا أن تأخذ منهم الصدقة والمعروف.

ماذا يُعطى في الصدقات

بالإضافة إلى الطريقة التي تُقدم بها الصدقات فإن نوعية ما يُعطى هام أيضا. إذا أعطيت شيئا تستحيي من أن تأخذه.. فإنّ هذا الذي أعطيته يخرج من تعريف الصدقة عند القرآن الكريم؛ بل هو بمثابة شيء رميت به إلى سلة المهملات.. يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(سورة البقرة: ٢٦٨)

.. فالإنفاق يكون من الطيبات التي تكسبونها أو تحصلون عليها مما أخرجه الله لكم.. ولا تتعمدوا إنفاق الشيء الخبيث الذي تأنفون من أخذه إلا بحرج شديد. وتذكروا أن من تنفقون في سبيله غني حميد.

ويقول تعالى:

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُم﴾(سورة الحج: ٣٨)

.. لا يصل شيء من الأضاحي إلى الله تعالى.. ولكن تقواكم هي التي تصل إليه.

النفقة سرا وعلانية

يخير الإسلام بين النفقة علانية أو سرا. يقول الله تعالى:

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَة أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٧١-٢٧٢)

.. الله تعالى مطلع على أعمالكم من نفقة أو نذر. الصدقة العلنية فهي خير حقا، ولكن الصدقة المستترة إلى من يستحقها أفضل لكم.

المسئوليات الاجتماعية

في الإسلام، يعتبر من الأهمية بمكان أن يكون أهل السلطة حساسين بالشعب إلى درجة لا يكون معها حاجة إلى تكوين جماعات ضغط.
ويتكرر في القرآن الكريم أن الحاكم مسئول ومحاسب أمام الله تعالى عن حال رعيته ومن في أمانته. كما نقرأ في حديث النبي ﷺ : «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته.... »
فالحاكم كراعي الأغنام مؤتمن على رعايتها ولسوف يسأل عنها. ويعدد هذا الحديث العلاقات التي يمكن أن يكون المرء فيها متوليا شؤون أناس آخرين.. مثلا: السيد مع الخدم، وربة البيت مع الأسرة، ورب البيت مع أهل بيته، وصاحب العمل مع عماله وما إلى ذلك.. ويكرر النبي ﷺ مع كل علاقة قوله: «وهو مسئول عن رعيته».

مثال من صدر الإسلام

كان من عادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يسير متنكرا في طرقات المدينة ليتفقد أحوال رعيته بنفسه. وذات ليلة، كان يعُس في ناحية من المدينة فسمع بكاء أطفال ينبعث من أحد البيوت. ولما دنا وجد ثلاثة أطفال يجلسون مع أمهم حول نار عليها قدر يغلي. فلما حيا واستفسر عن سبب بكائهم قالت الأم: إن أطفالي جوعى، وليس

عندي ما أطعمهم، ولذلك أعللهم بماء وحصوات في القدر لعلهم يهدأون .. وهذا ما ترى.

وأسرع سيدنا عمر في ألم عميق وكرب شديد إلى بيت المال، وأحضر قدرا من الطحين والدهن واللحم والتمر، ووضع الجميع في كيس، وطلب من غلامه أن يعينه ليحمله على ظهره. وقال الغلام مندهشا: لماذا لا تدعني أحملها عنك؟ فأجاب أمير المؤمنين: لا شك أنك قادر على أن تحمله، ولكن من سيحمل عني وزري يوم القيامة؟

أراد أن الخادم لن يقدر على أن يجيب عن سيدنا عمر يوم القيامة كيف أدى مسئولياته: فعليه أن يؤديها بنفسه. ولعل ذلك كان نوعا من عقاب النفس.. لأنه – رضي الله عنه – شعر بمسئوليته عن هذه المرأة الفقيرة وأطفالها الذين شاهدهم بنفسه. ولعله في الحقيقة شعر بأن المدينة كلها وشؤون أهلها مسؤوليته وحده، وأنها أمانة لا بد أن يؤديها بنفسه.

لا يمكن لكل رئيس حكومة أن يفعل بيده ما فعله سيدنا عمر، ولكنه الروح والموقف العُمَريّ يبقيان مثلا رائعا. هذه هي الروح التي ينبغي اتباعها في المجتمعات الحديثة في كل مكان. إذا أصبحت الحكومات حساسة لقضايا الشعب ومعاناته، فإن المسئولين فيها سوف يضطرون إلى اتخاذ الخطوات العلاجية ليس بسبب متطلبات الخوف وإنما بدافع من صوت ضميرهم.. قبل أن تخرج أصوات الشعب معربة عن آلامه ومشاعر حرمانه.

حدود الإنفاق

يمدُّ القرآن الكريم حدود ما يمكن إنفاقه في سبيل الله إلى أبعاد شاسعة، وتتردد هذه العبارة فيه بما لا تجد له نظيرا في كتاب غيره:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(سورة البقرة: ٤)

.. فالمؤمنون الصادقون ينفقون في سبيلنا من كل ما أنعمنا عليهم به. وهذا الإنفاق يشمل كل الملكات والمواهب والقدرات.. وطبعا كل الممتلكات المادية والعلاقات والروابط. كما تشمل أيضا القيم مثل الكرامة والسلام والدعة.. وما إلى ذلك. وموجز القول: لا يخرج شيء عن نطاق هذا التعبير الشامل ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

والعجيب أن حرف "مِن" يجعل هذا التوجيه القرآني في متناول كل إنسان. ليس المراد أن ينفق الإنسان كل رزقه، أو جزءا محدودا منه في سبيل الله تعالى. إنما المطلوب أن ينفق شيئا من كل ما أنعم الله عليه .

ومجال «مِنْ» متغير إلى حد أن الفقراء الضعفاء الذين لا يجدون قدرة على التضحيات الجسمية بوسعهم أيضاً أن يشاركوا على الأقل بقدر ما يطيقون. هذا هو جو الخدمة الاجتماعية التي يسعى الإسلام جاهداً لتنميته. إنه ينتمي جزئياً إلى السلوك الاجتماعي للإنسان وجزئياً يتعلق بأنشطته الاقتصادية .

وفي نظام اقتصادي يتجه فيه المجتمع كله إلى الامتلاك، ولا يهتم إلا بما يستطيع أخذه.. يكون رسم خط فاصل بين ما هو إنصاف وما هو

جور أمراً صعباً وغير عملي. الأكثر ترجيحاً أن يعتدي هذا المجتمع على حدود الآخرين بدلاً من أن يبقى في حدوده.

وفي الجانب المقابل.. فإن المجتمع الذي يُذكّر دائماً ويربّى على العطاء للآخرين أكثر مما يستحقون.. لا بد أن يكون الأبْعد عن اغتصاب حقوق الآخرين. يصعب تصور أن الاستغلال يزدهر في مثل هذا المناخ.

خدمة الآخرين

والمبدأ الذي يقوم عليه المفهوم الإسلامي للخدمة نجده في آية قرآنية واحدة.. تعرضه بجمال وشمول فتقول:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» سورة آل عمران: **١١١**

..يا أمة الإسلام. أنتم خير أمة أقيمت لخير البشرية لأنكم خلقتم لتأمرون بالخير،وتنهوا عن الشر. وتؤمنوا بالله. وستظلون خير الأمم ما دامت أذهانكم تتجه نحو الخدمة. وإذا قصّرتم في خدمة الآخرين فلن يكون لكم حق التفاخر بتفوق الإسلام وأمة الإسلام.

تحريم الخمور والقمار

عندما يدور الحديث عن الإدمان يتجه الفكر عادة نحو المخدرات. وهناك مدلول آخر للإدمان قلّما يُذكَر مع كلمة الإدمان. أشِير هنا إلى ما تعتبره المجتمعات من أساليب المتعة_ وأخص منها شراب الخمر ولعب الميسر_ التي لا تساعد على سلام المجتمع وصالحه.

لقد نُظّم القمار في كل البلاد المتقدمة من هذا العالم. وهناك بعض بلاد العالم الثالث حيث لم يتم تنظيم القمار فيها على نطاق واسع.. ومع ذلك تجده في كل مستوى كوسيلة لتزجية الوقت لفترة قصيرة. وشرب الخمور هو الإدمان الثاني الذي سقطت فيه مجتمعات العالم.

ويحرّم القرآن الكريم كلًّا من الميسر والخمر في قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(سورة المائدة: ٩١ و٩٢)

.. فالخمر وكافة ألعاب الحظ والأصنام دنس من عمل الشيطان.. يجب عليكم تجنبها جميعا كي تفلحوا في حياتكم. يريد الشيطان أن يزرع بينكم العداوة والكراهية عن طريق الخمر والميسر، ويريد أن يصدكم عن ذكر الله والصلاة. فهلاّ انتهيتم عن كل ذلك؟

ولقد أطلق النبي ﷺ على الخمر «أم الخبائث». وكلتا العادتين المستحكمتين منتشرتان على مستوى العالم. لا يندمج الشرق والغرب من الناحية السياسية أبدا، ولعل الجميع شرقا وغربا، شمالا وجنوبا قد التقوا في ميلهم المتزايد نحو الخمر والميسر.

الخمر والميسر كلاهما شر اجتماعي اقتصادي. وما يُنفق على الخمر في يوم واحد في بريطانيا مثلا.. يكفي أسابيع كثيرة لإطعام الجموع الفقيرة التي ضربتها المجاعة في أفريقيا وفي قارات أخرى.. ومع ذلك فإن شرب الخمر في معظم البلاد الجائعة من أفريقيا وغيرها لا يعتبر من الكماليات التي لا يطيقونها، ورغم أن الملايين في أفريقيا لا يقدرون على تزويد أنفسهم بضروريات الحياة الأساسية وتكاليف تعليم أطفالهم.. فإنهم يجدون طريقهم إلى احتساء الكحول. وفي جنوب الهند الفقير حيث لا يجدون خمرا من إنتاج المصانع فإنهم يحتسون خمرا محليا كبديل لها. لم يستطع الفقر أن يحد من انتشار «أم الخبائث» إلى أي حد.

وإذا ارتفع الدخل العام ارتفع معه الإنفاق على الخمر، ويبدو أن أحداً لا يهتم بهذه المسألة إلا إذا أصبح أحدٌ سكيرا مدمنا.

وقد يتعجب المرء أن لماذا يُعامل الخمر والميسر على أنهما من مشاكل العالم المعاصر مع أنهما قديمان قِدمَ تاريخ الإنسان؟! الحق أن الخمر والميسر كانا موجودين في كل عصر وفي كل مكان من العالم، ولأنهما بطبيعتهما ليس لهما عمر محدود فمن الممكن اعتبارهما مشكلتي كل

عصر. ومن الناحية الاقتصادية يكون الاعتراض على الميسر أكثر منه على الخمر، لأن النقود في الميسر تتداولها الأيدي دون أن تدفع عجلة الاقتصاد.. تماما مثلما يجري في أسواق المال حيث تتداول النقود في مقابل نقود دون تبادل بضائع. وفي الميسر تنتقل النقود من يد إلى أخرى ولا تشارك في عملية تطور الاقتصاد وإنتاج الثروة. ومع أن هناك هدفا اقتصاديا يتحقق في أسواق المال.. فلا يكاد يوجد هدف في القمار.

وفي محيط صناعي وتجاري حر.. لا يتنقل المال بين الأيدي دون خدمة اقتصادية في صورة مادية. وتبادل القيمة في المجال التجاري والصناعي نافع لكل الأطراف، ففي أكثر الأحوال لا يُتصور أن معظم التجار يعانون الخسارة في أغلب الأحايين.. بينما القاعدة أن أغلبية المقامرين يقعون في الخسارة معظم الوقت. فمثلا.. قليل من الكازينوهات تنهمك في قصف ومرح.. ولكي يربح عدد قليل لا بد أن يعاني مئات الألوف الخسائر. وكل ما يخرجون به في مقابل نقودهم التي يخسرونها هو تلك الإثارة والتهيج.. إلى أن يدركوا أخيرا أنهم قد خسروا رهانهم. بعدها يبدأون في المراهنة مرة أخرى مع فرصة ضئيلة لتعويض خسارتهم.. إلى أن يصل التوتر والضغط إلى ما وراء متعة الإثارة التي يتلقونها في هذه الصفقة.. عندها لا يبقى الألم وحرقة القلب مسألة شخصية للفرد وحده، وإنما تُلقي بظلالها الكئيبة على العلاقات

الأسرية. وفي القطاعات الفقيرة من المجتمع يُضَحّى بالحاجات اليومية لأعضاء الأسرة على مذبح المقامرة.

وعندما يحرِّم القرآن الكريم الخمر والميسر.. يعترف أن هناك منفعة جزئية لبعض الناس، ولكن لا شك أبدا في أن ضررهما يفوق أي نفع منهما:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون﴾(سورة البقرة: ٢٢٠).

.. نعم هناك قليل من المنفعة لبعض الناس، ولكن ضررهما أكبر كثيرا من نفعها. ويسألون ماذا ينفقون. أنفِقوا مما فاض عن حاجتكم. وتفكروا في آيات الله التي يوضحها لكم.

وقد يُحتج بأن المسرة التي يحصل عليها المرء بنقوده لا تهم أحدا آخر؛ فدعوا كل إنسان يمتع نفسه كما يشاء. لا حق للمجتمع للتدخل في حرية الإنسان إلى حد أن يقولوا له أين ينفق ماله الذي اكتسبه.

ولكن ينبغي ألا يغيب عن البال أن معظم تعاليم الدين هي على سبيل الموعظة والتحذير. فليس في تعاليم الديانات أية تدابير عقابية دنيوية إلا إذا ارتكبت جرائم معينة ضد الآخرين.. جرائم معروفة حتى من وجهة النظر غير الدينية.. منها القتل والسرقة والغش والإفساد واغتصاب حقوق الغير.

ولكن هناك جرائم اجتماعية أخرى تعتبر في نظر الدين سامة للمجتمع في مجموعه.. ولا يتلقى عقابها الفرد وإنما يعاني منها المجتمع كله؛ ويصدر الحكم بناء على القوانين الاجتماعية الأبعد مدى.

ولا يحتاج تعاطي الخمور ولعب الميسر وقتاً طويلا ليصبح انهماكاً زائدا من المجتمع ككل.. وليس ثمة مفاجأة في ذلك.

ثم إن مثل هذه المجتمعات تصبح أكثر تكلفة ونفقة، ويستنزف جانب كبير من الثروة القومية، ويزداد الإحباط في مثل هذا الجو. وتسير الجريمة يدا بيد مع الخمر والقمار. ومن نواتجها تفاقم البؤس والمآسي التي تصيب بيوتا كثيرة بعد أن يتحطم سلام الأسرة. وكم من بيت، وكم من زواج انهار ثمرة للخمر والميسر.

ولهما عواقب اجتماعية واقتصادية خطيرة.. أشارت إليها المجلة (Scientific American) فبالإضافة إلى العنف داخل البيوت هناك إيذاء الأطفال، وزنى الأقارب، والاغتصاب.. كل ذلك بسبب انعدام الوازع بتأثير الكحول.

إحصائيات الوفيات

- ١٠ سنوات نقص في العمر المتوقع للمدمنين.
- زيادة معدل الوفيات بين الرجال إلى الضعف، وبين النساء إلى ضعفين.
- زيادة نسبة الانتحار في مدمني الكحول ستة أضعاف.

- الكحول سبب رئيسي في الأسباب الأربعة الأولى المؤدية للموت في الرجال بين سن **٢٥** إلى **٤٤** وهي: الحوادث **٥٠**٪ ، والقتل **٦٠**٪ ، والانتحار وتشمُّع الكبد. (التشمع مرض يصيب الكبد بسبب الخمر).

خسائر سنوية

- فقد في الإنتاج **١٤,٩** بليون دولار
- نفقات صحية **٨,٣** بليون دولار
- خسائر حوادث **٤,٧** بليون دولار
- خسائر حريق **٠,٣** بليون دولار
- خسائر جرائم عنف **١,٥** بليون دولار
- خسائر المجتمع **١,٩** بليون دولار

- المجموع الكلي **٣١,٦** بليون دولار

في معظم مجتمعات العالم يُعد الخمر والميسر والموسيقى والرقص وغيرها من وسائل المتعة على العموم من الاهتمامات البريئة، وتعتبر من الأساسيات في ثقافات مختلفة. ومع أن الأسلوب يختلف من مجتمع لآخر فإن السمات الأساسية تبقى كما هي بدون تغيير. وباستثناء النحت والرسم وما أشبه.. لم تعد معظم الاهتمامات السابقة ملامح بريئة في ثقافة المجتمع، وإنما أصبحت عبئا مجهدا ينوء به ظهر المجتمع وينكسر. لم يعد المجتمع متحكماً في اتجاهاته. وقد أخذت الخمر

والقمار والموسيقى والرقص وملحقاتها تلقى اهتماما متزايدا من المجتمع لا يتغير. ولن تلبث خطى الشباب إليها حتى تتحول إلى عدو سريع.

وبالنظر إلى مثل هذه المجتمعات قد يعتقد المرء أن الجري وراء المتع الباطلة والاستسلام الكلي للرغبات الحسية هو الهدف الحقيقي من خلق الإنسان.

وليس الحال هكذا في الإسلام

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(سورة آل عمران: ١٩١- ١٩٢).

هذا الإعلان ينسبه القرآن الكريم إلى أهل العقل والحكمة من عباد الله الذين يتفكرون في لغز الخلق والحياة.. ثم إذا بهم يهتفون من أعماقهم أن الغرض من الخلق لم يكن باطلا.

ولعل هذه الآيات القرآنية تذكرنا بصيحة عظيمة تعبيرا عن البهجة عندما هتف أرشميدس: يوريكا! لقد وجدتها!

هناك إذاً مناخان مختلفان تماما. عند القرآن الحكيم خُلق الإنسان لتحقيق هدف نبيل.. ألا وهو اتباع الطريق الموصل إلى الخالق. وعن هذا المعنى العريض للعبادة قال القرآن الكريم:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾(سورة الذاريات: ٥٧).

وبفحص كل أسلوب من أساليب طلب المتع هذه، يجد المرء في كل منها عيبا كافيا لتبرير تحريمها. ويصعب على الناس كثيرا.. وخصوصا في المجتمعات المتحررة.. أن يفهموا لماذا يبدو الإسلام هكذا متشددا إلى درجة الجفاف. والحق أن الإسلام ليس جافا ولا باعثا على السأم.. وإن بدا كذلك من بعيد.

فأولا: إن الذين يكتسبون ذوق الخير يتعلمون أيضا اكتساب المتعة الرفيعة من فعلٍ قد يبدو بلا متعة عند الغريب.

وثانيا: إن السعداء القلائل من بين الذين جربوا الحب الصادق لله تعالى يَسمون إلى حال من الرقي يرون عنده المتع الدنيوية وضيعة ومنحطة ولغواً عابرا.

وثالثا: إن المجتمع الذي لم يستسلم لمطاردة المتع.. لا يعود آخر النهار خاوي الوفاض. فبالتحليل النهائي يتبين أنه ليس إلا مقايضة.. ففي مقابل الإثارة والحبور، والأحاسيس الشديدة، والطرب المتفجر.. يأخذ هو السلام والسكينة والاتزان والإحساس المتزايد بالأمان، والنبل والقناعة.. وهذه تعد أشرف جزاء.

عند مقارنة المناخين الاجتماعيين وجوّها بنظرة إجمالية.. لا يصعب أبدا إدراك أن شجرة محبة الله تعالى والإخلاص له لا يمكن أن تمد جذورها في مناخ مادي لمجتمع محب للهو. بالطبع هناك استثناءات.. ولكن الاستثناء لا يصنع قاعدة. نعم، إنهما مناخان جدُّ مختلفين.

(٤)

السلام الاقتصادي

١- فلسفة الاقتصاد في الإسلام والرأسمالية والشيوعية.

٢- الرأسمالية.

٣- الاشتراكية العلمية.

٤- المفهوم الإسلامي.

٥- أربع خصائص للمجتمع الرأسمالي.

٦- الرأسمالية تؤدي في النهاية إلى الخراب.

٧- النظام الاقتصادي متغير.

٨- النظام الاقتصادي الإسلامي.

٩- الزكاة.

١٠- تحريم الفائدة الربوية.

١١- أسعار الفائدة في بريطانيا.

١٢- مساوئ أخرى للربا.

١٣- الربا تهديد للسلام.

١٤- تحريم اكتناز الثروات.

١٥- البساطة في أسلوب الحياة.

١٦- نفقات الزواج.

١٧- قبول دعوة الفقير.

١٨- الاعتدال في عادات الطعام.

١٩- اقتراض المال.

٢٠- الفوارق الاقتصادية بين الطبقات.

٢١- قوانين الإسلام للوراثة.

٢٢- تحريم الرشوة.

٢٣- أخلاقيات التجارة.

٢٤- الحاجات الأساسية.

٢٥- العبادة كوسيلة للوحدة الاقتصادية.

٢٦- الالتزامات العالمية.

يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (سورةالبقرة: ٢٧٧).

كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ * وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا * وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا (سورة الفجر: ١٨-٢١).

فلسفة الاقتصاد في الإسلام والرأسمالية والشيوعية

النظام الاقتصادي الإسلامي لا ينتمي إلى الرأسمالية ولا إلى الاشتراكية العلمية. إنه يقوم على فلسفة علمية ولكنها غير آلية. إنه نظام مفروض ولكن دون مبالغة في القيود. إنه يسمح بالملكيات والمشروعات الخاصة ولكنه لا يشجع على الجشع وتكديس الثروة في أيدٍ قليلة.. بينما يتحول القطاع الأكبر من المجتمع إلى معوزين وأرقاء تحت وطأة نظام استغلالي قاسٍ لا يلين.

الرأسمالية

يُجازى رأس المال في النظام الرأسمالي بعائد ربوي. ومن المقبول فيه تلقائيا أن لرأس المال الحق في النمو. ويقوم الربا بدور القوة المركزية الدافعة لنمو رأس المال، ثم توجه الزيادة في القنوات الاستثمارية كما توجه الطاقة في الأنابيب.. ليقيم خط تجميع الإنتاج ويحفظ مسيرته. وموجز القول: إن الفائدة الربوية تمثل حافزا ليبقى رأس المال دائرا.

الاشتراكية العلمية

مع أن رأس المال لا يجد في الاشتراكية العلمية حافز الفائدة الربوية ليستمر دورانه في آلية إنتاجية، إلا أن الدولة تحتكر رأس المال، ومن ثم فلا حاجة هناك للحفز.

أما في المشروعات الحرة الخاصة.. فسيان أن يدفع المرء فائدة ربوية أو لا يدفع.. فإحساس المرء بملكيته الشخصية كاف ليخلق فيه دافعا كي يعمل على تنمية رأسماله بأكبر سرعة ممكنة. وإذا كان على المرء أن يدفع رِباً على ما يقترضه من مال فإن معدل الفائدة يعمل كمؤشر. إنه كنافذة يمكن للمرء أن يرقب من خلالها النمو أو التناقض النسبي في رأس ماله. وفي نظام الاقتصاد الاشتراكي لا تجد هذا الحافز: لأن من يستخدم رأس المال لا يملكه، ولا تجد أي وسيلة للمقارنة كي يحكم المرء على معدل النمو الاقتصادي ومدى كفاءته. ويؤدي استحواذ الدولة في هذا النظام على رأس المال الكلي إلى أن يصبح نظام الفائدة الربوية غير ذي موضوع ولا معنى. والسر في ذلك أنك إذا لم تكن تحت ضغط ليكون ربحك أكثر من الربا الذي عليك سداده فإنك سوف تفقد كل حافز أو إحساس بالمسئولية. وعلى سبيل المثال.. لو أمكن تقييم رأس المال الكلي في دولة شيوعية على أساس ما يمكن أن يحققه من فائدة ربوية لو أنه أودع في بنك.. فإن ذلك يعطي جانبا واحدا من الصورة. ويمكن إدراك الجانب الثاني بتقييم الاقتصاد على أساس من المكسب والخسارة. وبالطبع سيكون هناك كثير من التعقيدات مثل تقدير الأجور وغيرها. ولكن إذا اهتم بها خبراء الاقتصاد أمكن التغلب على هذه الصعاب.. وسوف تقدم المقارنة بين الاثنين احتمالات شيقة.

وهناك احتمال كبير أنه باستعمال هذه الطريقة يتحدد المجرمون الحقيقيون المتسببون في انحطاط مستويات المعيشة. بل إنه ليس من العسير -دون اللجوء إلى هذا العمل الضخم- تحديد الأسباب وراء هذا الانحطاط. وأعتقد أن الدولة -عندما أصبحت رأسمالية- حُرمت من نظام المراقبة الذي يحذرها من الفشل والإسراف والتخبط فيما يتعلق بطريقة تناولها لرأسمال الدولة.. لأنه ليس لديها التزامات مالية تحققها، وتستطيع أن تتصرف في رأس المال دون أن تخشى حسابا. ومثل هذا الحال يحمل أخطارا ذاتية. فانعدام الاهتمام الشخصي، وغيبة نظام للإنذار بما يترتب على استخدام رأس المال من ربح أو خسارة.. يحدثان فوضى شديدة في النسبة بين الدخل والمصروف، ويزداد حجم الفاقد باضطراد.

ثم إنه لا يوجد ضبط على سياسة تصريف رأس المال. فمثلا.. ليس لدى الحكومات الاشتراكية مرآة لتحكم بها على المعدل الحقيقي للنمو الاقتصادي بالمقارنة مع اقتصاديات السوق الحرة في العالم الخارجي. وثمة مشكلة إضافية أخرى: فالحكومات الشيوعية تحتاج إنفاقا أكثر على متطلبات الدفاع والمراقبة وإدارات تطبيق القانون. وإذا كانت الظروف الأخرى متعادلة.. فإن مستوى الإنفاق على هذه الأمور -أي الدفاع والمحافظة على القانون والنظام- يكون غير متناسب مع إنفاق الأسواق في الاقتصاد الحر. ويؤدي هذا -بالإضافة إلى عوامل أخرى

مشابهة- إلى استقطاع إتاوات ثقيلة من الاقتصاد. قد يتأخر الانهيار النهائي لهذا النظام لبعض الوقت.. ولكن بالطبع لا يمكن تجنبه تماما.

المفهوم الإسلامي

بينما لا تقدم الشيوعية أي حافز من أجل الانهماك المباشر المخلص في إنتاج الثروة.. فإن الإسلام — رغم تحريمه للربا - يقدم حافزا لهذا الغرض. يستغني الإسلام تماما عن نظام الربا دون أن يحمل نصيبا من المصاعب النوعية الخاصة بالعالم الشيوعي. وفي غيبة رأس المال الذي يسحب الفائدة الربوية عبر قنوات غير إنتاجية.. يعترض الإسلام طريق رأس المال الخامل. ويتمثل هذا الاعتراض في ضريبة تعرف باسم الزكاة.. وهي ضريبة مفروضة على رأس المال نفسه، وليس على الدخل أو الربح. والتباين واضح جدا. ففي المجتمعات الرأسمالية يتكتل رأس المال في أيد قليلة بسبب الجشع لزيادة رأس المال بطريق تجميع الفائدة الربوية، ثم يدار مرة أخرى في عجلة الاقتصاد لغرض محدد.. هو إنتاج ربحية أكبر من سعر الفائدة الساري. وإذا لم يتحقق هذا الهدف اتجه الاقصاد حتما نحو الهبوط. أما في الإسلام —فكيلا يتآكل رأس المال العاطل شيئا فشيئا بسبب فريضة الزكاة- لزم على كل صاحب مال مدخر أن يستخدمه في اكتساب الربح كي يعوض تأثير الزكاة.

وطبقا للإسلام.. لا يوجد حل للمشكلات الاقتصادية في العالم، لا في الاشتراكية العلمية ولا في الرأسمالية. ولا يسعني الآن تفصيل هذا

الموضوع. ولكن ينبغي أن نلقي نظرة موضوعية على عدم التوازن الاقتصادي الذي أحدثته الرأسمالية حاليا. لعل في ذلك دروسا لنا.

أربع خصائص للمجتمع الرأسمالي

السمات الخاصة لعدم التوازن الذي نشأ في المجتمع تعدِّدها لنا بوضوح تام الآياتُ القرآنية التالية:
﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا *وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(سورة الفجر)

ويمكن إجمال هذه الخصائص فيما يلي:

١ــ معاملة سيئة لليتامى.

٢ــ إطعام الفقير لا يلقى تشجيعاً.

٣ــ اغتصاب ميراث الآخرين.

٤ــ تكديس الثرة بلا حدود.

الرأسمالية تؤدي في النهاية إلى الخراب

وفضلاً عن عدم تأييد الإسلام لفلسفة الاشتراكية العلمية فإنه يرفض بعض جوانب الرأسمالية لأنهم ــ كما يقول لهم القرآن الكريم:
﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون﴾(سورة التكاثر)

.. لقد شغلهم التنافس على الاستكثار من أسباب الدنيا وصرفهم عن الله تعالى.. واشتغلوا بها حتى أوصلهم إلى القبور. ولسوف تتبين لهم الحقيقة عاجلاً.

النظام الاقتصادي متغير

إن الاستغلال الرأسمالي القائم على الربا للمواطنين الفقراء.. ذلك الذي نجم عنه التمرد الاشتراكي.. يبدو ابتعاداً عن مجرى التاريخ، ولكن الدراسة العميقة تكشف أن الأمر لم يعْدُ تغيراً في المظهر فحسب. لقد انقسم العالم من قبلها إلى مالكين ومعدمين.. وكان ذلك أساساً بفضل الاستغلال الذي مارسته البلاد الرأسمالية الغنية. أضف إلى هذا الحال ذلك الارتداد الخطير نحو الرأسمالية من جانب الكتلة الشرقية التائبة. وعندئذ لا يملك المرء أن يمنع رعدة تدب في أوصاله عندما يتصور الكمّ الهائل من الدماء التي سوف تستترف من أمم العالم الثالث التي أنهكوها وأضعفوها من قبل .. إذ يبدو أن مصاصي الدماء الرأسماليين يلزمهم سحب كميات من الدماء أكثر وأكثر !

من الواضح أن زمان المواجهة بين الفلسفتين الاقتصاديتين الرئيسيتين المتعارضتين_ الرأسمالية والشيوعية _ قد انقضى، وودعت النظم الاقتصادية القائمة على الماركسية اللينينية مسرح الشؤون الإنسانية.

ويبدو في الجانب الآخر أن ما يسمى بالاقتصاد الغربي الحر قد هلل فرحاً بانتصاره الظاهري. وباستثناء دولة الصين.. لا تزال بلاد الكتلة

الشرقية في عيد حريتها الجديدة تكافح كي تلطِّف من شقاء جماهيرها المحرومة المعدمة.

والفجوة الاقتصادية بين الشرق والغرب ليست بقدر تلك الفجوة بين الشمال والجنوب. فبلاد العالم الأول في الشمال تتفاوت فيما بينها عند مستوى آخر غير مستوى تقسم بلاد العالم الثالث في أفريقيا وأمريكا الجنوبية. ومع أن الفجوة بين شمال أمريكا وجنوبها بمعيار التفاوت الاقتصادي مؤلمة ولا شك.. إلا أنها لا تُقارَن بتلك التي بين أوروبا وأفريقيا. إن أفريقيا —وهي الأقرب مكانا من أوروبا– تعد الأبعد منها بمقياس التفاوت الاقتصادي.

سرعان ما يتلاشى ذلك الإحساس بالأمان الذي أحست به ذات يوم بلادُ العالم الثالث الضعيفة بسبب التنافس الذي كان فيما بين القوى العظمى، يوم كانوا يجدون في مياه الحرب الباردة فرصة للصيد تنتفع منها البلاد الفقيرة. لسوف تكون هناك منافسة أعظم وأشد لهفة بين الولايات المتحدة وروسيا وسائر دول أوروبا للفوز بأسواق العالم الثالث واحتكارها والاحتفاظ بها.

لن تبقى اليابان المنافس الخطير الأوحد لأمريكا، ولكن هناك أوروبا جديدة تنبعث بفضل النمو السريع في المجتمع الأوروبي، بالإضافة إلى المساهمة المتوقعة من جانب أوروبا الشرقية في سوق مشتركة كبرى.. كل ذلك سوف يفرض منافسة رهيبة تكون في وجه أمريكا أشد منها بين بلدان أوروبا المتنافسة.

إن الملايين الغفيرة من شرق أوروبا وروسيا تتطلع وتقف في عوز شديد إلى رفع مستويات حياتهم. ولا يكفي مجرد إصلاح سوق مغلق لسد حاجة هذا النظام الشامخ، الذي يتوقع له أن يزداد طولا بمضي الوقت. قد تقوم بلاد السوق الأوروبية وأمريكا واليابان بسد هذه الحاجة الماسة إلى أسواق خارجية من أجل مساندة رفع مستوى الحياة في أوروبا الشرقية وروسيا. وهذا يترك أملا قليلا لبلاد العالم الثالث، وإنها لصورة قاتمة حقا لهذه البلاد، ويدع أملا ضئيلا لشعوب أفريقيا الأقل حظا.

إن ساسة بلاد العالم المتقدم اقتصاديا وسياسيا يزدادون اهتماما بالثورة الاقتصادية الرأسمالية الجارية في الشرق الأقصى: في اليابان وجنوب كوريا وفُرموزا وهُنج كُنج وسنغافورة. ويبدو أنه قد أقيم جسر يصل المسافة بين الشرق الأقصى وأوروبا، يمر فوق رؤوس كثير من بلاد آسيا الأقل حظا: أندونيسيا وماليزيا وكامبوديا وتايلاند وبورما وبنغلاديش والهند وسريلانكا وباكستان.

ومن الممكن أيضا ألا تظل سائر بلاد الشرق الأقصى مستفيدة من البراعة ورأس المال الأمريكي.. في مجابهة للتحدي المتنامي من جانب اقتصاد اليابان العملاق، ولكبح توسعه السريع. وعلى الجانب الآخر.. من الممكن أيضا أن تزداد أمريكا اعتمادا على حلفائها في الشرق الأقصى لتواجه تحديات تتضامن فيها اليابان مع أوروبا جديدة ذات اقتصاد أعظم وأشد اتحادا. وينذر ذلك بالشر على مستقبل الجنس البشري، ومن الممكن أن ينتهي إلى تحطيم تطلعات البشرية نحو سلام

يقوم على مستوى يختلف تماما عن المنافسات العقائدية بين الرأسمالية والشيوعية.

ولا يزال الوقت مبكرا على التنبؤ بتأثير التغيرات في شرق أوروبا وروسيا على ميزان الاقتصاد العالمي، وهل ستكون رِدتهم إلى الرأسمالية كاملة أم جزئية، بطيئة أم سريعة. ومهما يحدث.. هناك شيء واحد مؤكد.. ذلك أن هذه التغيرات سوف يكون لها تأثير معاكس على اقتصاديات العالم الثالث. ولا يمكن لمثل هذا الحال أن يبقى بلا نهاية.. فالعالم من قبل ذلك متجه نحو كارثة كونية.

وللإسلام كلمة نصيحة يقدمها للبلاد الرأسمالية المزدهرة حاليا بناء على أساس أجوف من نظام الربا والربح الدنيوي. إن نهايتهم الحتمية هي العثار والدمار. إن ما يزعمونه الآن نصرا للرأسمالية على الاشتراكية سوف يمنحهم سلاما وقتيا فحسب. ولسوف تلد الفلسفات الرأسمالية نفسُها شياطينَ قوية سرعان ما تكبر في غيبة المنافسين الاشتراكيين ثم تتحول إلى عمالقة. وفي نهاية المطاف، سوف يثور بركان الرأسمالية بشدة فتهتز له الأرض وترتج جنباتها وتتزلزل أركانها.

النظام الاقتصادي الإسلامي

وكما هو الحال في النظام الاجتماعي الذي يتبناه الإسلام.. يبدأ النظام الاقتصادي الإسلامي بمقدمة تقول إن كل ما في السماوات والأرض خلق لله تعالى.. الذي وهب الإنسان نعما متنوعة على سبيل الائتمان.

والإنسان – بوصفه مؤتمنا – مسئول عن أداء أمانته. فامتلاك الثروة أو الحرمان منها إنما هو وسيلة للاختبار.. كي يتميز الواعون لمسئولياتهم – سواء في الرخاء أو الشدة – عمن يلوذون إلى القسوة وعدم المبالاة بآلام غيرهم من بني البشر.

يكرر القرآن تذكيرنا بقوله:

﴿وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾(سورة آل عمران: ١٩٠).

ثم يعلمنا بأنه ما دام كل شيء قد خلقه الله تعالى للجميع.. فينبغي أن يكون للناس نصيب منه.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾(سورةالنساء: ٥٤).

.. هل لو كان لهم شيء من ملك الله.. ألا يعطون الناس شيئا ضئيلا منه ولو كان قدر نقير نواة؟

﴿وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُون﴾ (سورة النحل: ٧٢).

.. لقد زاد الله بعضكم عن بعض في العطايا الدنيوية، ولكن الذين حصلوا على الكثير منها لا يعطون شيئا لم تحت إشرافهم ليكونوا شركاء متساوين في هذه العطايا. أهُم بذلك يجحدون نعمة الله؟

ومسئولية الإنسان أن يؤدي هذه الوديعة بأمانة وإنصاف. يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾(سورة النساء: ٥٩).

.. فمن تعاليم الإسلام الواجبة أداءُ الأمانات إلى مستحقيها، والحكمُ بين الناس بالعدل.. وإنها لتعاليم رائعة ولا شك.. يراقب الله العمل بها.. وهو سميع بصير.. لا يفوته شيء من مخالفتها.

والواقع أن الثروة المادية وسيلة للاختبار كما يعبر عن ذلك القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيم﴾(سورة التغابن: ١٦).

.. فالأموال والأولاد اختبار، ولكن الأجر الحقيقي العظيم فهو ما عند الله تعالى.

الزكاة

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ إقامة الصلاة؛ صوم رمضان؛ إيتاء الزكاة؛ وحج البيت الحرام في مكة. وترِد الزكاة كثيرا في أوامر القرآن الكريم.. فمثلا يقول الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(سورة النور: ٥٧).

وكلمة الزكاة في اللغة: تطهير الشيء. وفي سياق الحديث عن الفريضة المالية تعني أن أداء الزكاة يعيد ما تبقى من الثروة طاهرا وحلالا للمؤمنين.

وتقدر الزكاة العادية بنسبة ٢,٥ % على الأموال المتوفرة فوق مقدار 'نصاب' محدد إذا بقي في يد مالكها سنة كاملة. ومع كثرة ما قيل عن نسبة فريضة الزكاة هذه.. إلا أننا لا نجد في القرآن الكريم ذكرا لأي قيمة محددة عنها. وفي هذا الصدد اسمحوا لي أن أختلف مع الرأي العقائدي الذي يقول به علماء القرون الوسطى.. وأعتقد أن مسألة النسبة هذه تبقى مرنة، وتتحدد في كل بلد حسب حالته الاقتصادية.

ولما كانت الزكاة ضريبة معينة مفروضة على رأس المال فوق النصاب.. فإنها لا يمكن استعمالها إلا في نطاق مصارف محددة.. عدَّدها القرآن الكريم في قوله:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(سورة التوبة: ٦٠)

.. فينفق منها على الفقراء والمعوزين والمشتغلين بجمع الزكاة وتوزيعها، ولتأليف قلوب غير المسلمين، ولتحرير الرقيق، وأداء الدَّيْن عمن يثقلهم أداؤه، والعاملين في سبيل الله، والمسافرين المحتاجين.

ويتولى بيت المال — أي خزانة الدولة — الجانب الإداري لتنفيذ هذا القانون الشرعي. وفي الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام.. كان كل من

سيدنا أبي بكر الصديق – الخليفة الأول، وسيدنا عمر بن الخطاب – الخليفة الثاني رضي الله عنهما.. مشهورا عنهما القيام بنفسهما للتأكد من سرعة إنفاق هذه الصدقات في مصارفها.. وقد سُمي عهدهما بأنه حكومة الرخاء الأولى. ولقد جرى العمل بهذا النظام قرونا بنجاح كبير أثناء العصر العباسي.

وكما بينت من قبل.. استبدل الإسلام القوة الربوية المحركة للاقتصاد الرأسمالي بالقوة الدافعة لفريضة الزكاة. وإذا تفحصنا هذا النظام عند تطبيقه لظهرت إلى النور فوارق أخرى عديدة بين النظام الاقتصادي الإسلامي وغيره من النظم؛ ولبدت أمام الأعين ملامح اقتصاد مختلفٍ تماما.

لا يمكن لقدر من المال العاطل — صغيرا كان أو كبيرا — أن يبقى هكذا لمدة طويلة ما دام لا يتزايد بأسرع من نسبة الزكاة. وهذا بالضبط ما يسيِّر الاقتصاد في حكومة إسلامية حقة.

افترضْ حالة شخص يملك مبلغا صغيرا من المال.. لا يستطيع أن يشارك به في عمل تجاري، وليس ثمة بنوك تعطيه ربا على وديعته المالية. لو كان هذا المال بالغا نصاب الزكاة لجاءه جامعو الزكاة كل عام يدقون بابه ليأخذوا النسبة المقررة على رأسماله.. إلى أن يبلغ قدرا دون النصاب. هذا الشخص وأمثاله لا يجدون أمامهم سوى اختيارين: إما أن يستخدموا أموالهم بطريقة تدر عليهم ربحا، أو أن يضموا أموالهم إلى بعضها في مشروع صغير أو كبير.

وهذا سوف يشجع على قيام المضاربات الجماعية، والمشاركة في العمل، وإنشاء الشركات الصغيرة، وشراء الأسهم في الشركات الكبيرة على أساس تام من الربح والخسارة. ولن تكون مثل هذه الشركات مدينة لأي مؤسسة مالية يلزم أن تسدد لها ديونها ورباها. ولو أنك — من الناحية النظرية — قارنت بين مصير مثل هذه الشركات ونظائرها في الاقتصاد الرأسمالي.. لوجدت أنهما — في زمن المحن والأزمات– يواجهان حكمين مختلفين تماما. عندما تواجه التجارة والصناعة كسادا في الاقتصاد الرأسمالي فإن تباطؤ الإنتاج بسبب قلة الطلب يمكن أن يؤدي بهما إلى حافة تصفية الأعمال. ولسوف يزداد ما عليهم أداؤه من فوائد ربوية لخدمة ديونهم.. ويتصاعد مقدارها دون هوادة إلى أن تعجز هذه الشركات عن البقاء على السطح.

وعلى الجانب الآخر، لو أن عجلة الاقتصاد تجري بحسب المبادئ الإسلامية.. فإن البطء في نشاط الأعمال والتجارة سوف يدفع بها إلى حالة من السُّبات. وهذا ما تؤمِّن به الطبيعة بقاءَ الأصلح من الكائنات عندما تكون أحوال البيئة غير ملائمة والظروف شديدة الوطأة. عندما تتناقص مصادر الطاقة لا بد من خفض منها لئلا ينـــزل منسوبها عن الحد اللازم للحياة. وما دام لا يوجد في النظام المالي الإسلامي ذلك الضغط القاسي لخدمة الديون الربوية.. فإن بوسعه أن يصمد أكثر أمام تحدي فترات الركود الاقتصادي.

تحريم الفائدة الربوية

يقوم نظام الاقتصاد الإسلامي على أساس الغياب التام للعامل الربوي. ومع ذلك.. فليس هناك في الماضي أو الحاضر ما يدل على أن غياب الربا أدى إلى انفلات شيطان التضخم من عقاله وأطلق الأسعار كالسهم الذي لا يوقفه شيء. ولدينا في الزمن الحالي فرصة شيقة كي نعقد المقارنات بين أثر وجود معدلات الفائدة أو غيابها على التضخم المالي. ولقد قامت حكومة الصين في عهد «ماوتسي تونج» بتجارب عديدة على اقتصادها.. تأرجح بعضها، وحقق بعضها نتائج ممتازة. ولكنه الربا - خلال فترة ماوتسي تونج كلها - لم يسمح له أن يلعب أي دور في الاقتصاد.. سواء على الصعيد المحلي أو الدولي. ومع ذلك لم يحدث أن كان هناك أي زيادة بارزة في التضخم، بل الواقع أنه عندما زاد مستوى الإنتاج الإجمالي في نهاية الأمر أخذت الأسعار تسجل هبوطا.

ومقارنة مع هذا.. نجد في دولة إسرائيل- ولعلها أشد دول العالم رأسمالية - وصل معدل التضخم فيها إلى أعلى القِيَم التي سُجلت في أي مكان من العالم.. فيما عدا بالطبع بلادَ أمريكا اللاتينية، وظاهرة التضخم في أوروبا بعد الحرب، وخاصة في ألمانيا. ولكن هذه لم تكن أياما عادية. وعندما تكون الظروف الأخرى متساوية لا يمكن أن يوصف دور الربا في أي اقتصاد إلا بأنه دور تضخمي.

ارتفاع سعر الفائدة الربوية في بريطانيا

والجدل الساخن الذي يجري اليوم في بريطانيا حول أسعار الفائدة المرتفعة: ما لها وما عليها.. يقدم لنا مثالا هاما للدراسة. لقد أبقت حكومة المحافظين أسعار الفائدة مرتفعة بصفة مؤقتة، ولفترة طويلة حتى اليوم، وأعلنت أن هدفها الوحيد من ذلك هو كبح جماح الاستهلاك الخاص، والسيطرة على التضخم. وها هو الاقتصاد يصرخ ويئن تحت وطأة هذه السياسة.

ويمكن أن يُستخلص من هذا عدة دروس. منها أنها تقدم لنا مثالا ملائما لقرار اقتصادي فعال.. اتُّخِذ بناء على نظرية هي في ذاتها موضع خلاف. ويبدو أن الرأي القائل بأنه كلما ارتفع سعر الفائدة انخفض التضخم هو السبب الوحيد لتبرير الإبقاء على أسعار فائدة مرتفعة إلى مستوى غير طبيعي لهذه الفترة الطويلة.

ومن دراستنا الحالية لما يجري في بريطانيا.. فإن سعر الفائدة لم يكن أبدا المذنبَ الحقيقي في مسألة الاتجاه التضخمي. لا بد أن كان هناك سوء إدارة في كثير من نواحي الاقتصاد، وسياسة اقتصادية شاملة.. نجم عنهما هذا التضخم المرتفع نسبيا في الوقت الحاضر. وكان دور الارتفاع في معدلات الفائدة صرْفَ الانتباه عن الأسباب الجذرية لتتجه نحو كبش فداء سهل المنال. قد تشير هذه الاستراتيجية إلى معيار للنجاح في محاربة التضخم كبداية.. ولكنها قد حركت عوامل قوية

تولدت عنها تأثيرات ثانوية، دفعت بالبلد نحو حالة غير طبيعية من الكساد، وزادت البطالة زيادة كبيرة.

و من المستحيل التصديق بأن الجهاز المفكر في حكومة المحافظين البريطانية لا تجد النصيحة من المخططين الماليين المتمرسين أو من المصارف المركزية أو غيرهم من الخبراء. لا بد أن يكون هناك سبب ما لهذا التأخير الطويل المتعمد في خفض معدلات الفائدة المرتفعة.. بناء على ادعاء أجوف بأن خلاص الاقتصاد القومي يوجب خفض الاتجاه التضخمي بعَتَلَة أسعار الفائدة المرتفعة. فيا ترى هل توقيت خفض أسعار الفائدة غير مناسب من الناحية السياسية للحكومة الحالية؟ ربما لو أخروا هذا التوقيت حتى قبيل موعد الانتخابات العامة القادمة.. يتحول الارتياح الفوري –الذي سوف تحس به جميع قطاعات المجتمع بعد خفض معدلات الفائدة – إلى ميزة سياسية لحزب المحافظين. ولو أنهم بكَّروا كثيرا في هذا الإجراء فلسوف تظهر المؤثرات الثانوية التي ألمحتُ إليها آنفا وتقلب هذه المزية وتفسد أثر الارتياح المذكور.

وهاكم بعض العوامل التي يمكن أن تطلق العنان لظواهر غير مرغوبة:

أ- سعر الفائدة المرتفع خنَق القدرةَ الشرائية لدى الجمهور عامة، فضلا عن أنه عصَر وريد الصناعة.

ب- لا شك أن قطاعا كبيرا من الشعب البريطاني قد تأذى في سعيه وراء متطلبات الحياة الأساسية. والذين اقترضوا مبالغ مالية كبيرة ليكون لهم سقفٌ يظلهم قاموا بعمل حساباتهم بحذر قبل أخذ القرض.

لقد اعتصَروا قدرهم من أجل سداده وضيقوا ميزانيتهم اليومية لمواجهة الأقساط. ومثل هؤلاء الناس كانوا يشددون على أنفسهم فلا يسرفون ولا ينفقون فيما لا ضرورة له. وعلى أي حال فإن فرصتهم إلى ذلك كانت ضئيلة. ومن المؤكد أن هذا القطاع من المجتمع البريطاني مسئول عن الاتجاهات التضخمية، ولكنه — لسخرية الأقدار– نال القدر الأكبر من العقاب بما أسموه 'التدابير المضادة للتضخم'.. تلك التدابير التي قامت بها الحكومة بهدف تخفيض الأسعار لصالح عامة الناس. وفي نفس الوقت أخذت قيمة بيوتهم في الهبوط السريع، ووجدوا أنفسهم في مأزق لا يخرج منه: فهم لا يستطيعون سداد قيمة الأقساط المرتفعة، ولا يستطيعون العثور على مشترٍ لبيوتهم.

ج– التضخم ظاهرة مركّبة، وليست موضوعَ هذا الخطاب، ولن أخصص لها وقتا أطول بلا ضرورة، ولكني – لأسباب سوف تتضح بعد قليل – ألتمس المعذرة من السادة الحاضرين.

فبالإضافة إلى أسباب أخرى.. يمكن لكرة التضخم أن تأخذ في التدحرج عندما تكون هناك كثرة من النقود في أيدي المشتركين، فيزداد الطلب زيادة مصطنعة.. مع بقاء المعروض من السلع منخفضا. هو مال كثير وبضاعة قليلة. هناك طلب كبير على الشراء ونقص كبير فيما يُشترى. وربما يكون الحال السائد في الاقتصاد البريطاني غير ذلك. فقد كان الحجم الكبير للنقود الدائرة يساند الصناعة البريطانية إلى درجة كبيرة عن طريق زيادة الاستهلاك من السوق المحلية.

كانت النتيجة المرتقبة والأكثر معقولية أن يحدث انخفاض في أسعار البضائع المصنّعة. كان على زيادة الإنتاج أن تمتص النفقات العامة الثابتة، وتبقى فقط التكاليف الهامشية لتتحملها الأسعار السابقة لهذه السلع من المصانع. بل وكان من الممكن لهامش ربح أكبر أن يترك للمصانع مجالا كافيا لخفض الأسعار.

لقد أدى استمرار معدلات الفائدة المرتفعة لمدة طويلة إلى قلب هذا النمو الطبيعي في الاقتصاد البريطاني.. وما سوف يترتب على ذلك في المستقبل من عواقب رهيبة. وفي نفس الوقت سوف يصعب عليهم استعادة الأسواق الخارجية التي أفلتت من أيديهم.

د- وتعمل التغيرات التي جرت في أوروبا على نقل مزيد من الدماء في شرايين اقتصاد ألمانيا الغربية.. أو الأصح أن نقول ألمانيا فقط.. الذي كان قد اشتد عُوده من قبل. وتنذر التأثيرات الثانوي السلبية — التي أشرنا إليها آنفا – الاقتصاد البريطاني بالشر.

قد تُناور الحكومة البريطانية الحالية مناورة فاشلة في توقيت خفض معدلات الفائدة.. والحاجة ماسَّة إليه، ولكن الحكومة القادمة –إذا كانت من المحافظين – سوف ترث عن سلفها مصاعب رهيبة.

والمسألة التي تنشأ عن كل هذا تمثل درسا هاما لصنَّاع السياسة في أنحاء العالم. إن الفائدة الربوية – كوسيلة للتحكم في الاقتصاد –تفرض نفسها على مفهوم اقتصاد السوق الحر ذاته، ولا يمكن لاقتصاد يسير على فلسفة رأس المال الربوي أن يُعلن عن كونه اقتصادا حرا حقا إذا

كانت حكومته تملك كل السلطة في أن ترفع أو تخفض معدلات الفائدة الربوية. ونظام الاقتصاد الإسلامي لا يمنح الحكومة مثل هذه الإجراءات الاستغلالية.

مساوئ أخرى للربا

ربما يكون من الناسب هنا أن نذكُر بعضا من الجوانب الأخرى للربا. إن الفائدة بين البنوك تُدفع فقط على الودائع الإجمالية ولا تدفع على حسابات توفير المودع العادي. وبالرغم من الأثر التراكمي للفائدة الربوية فإن العائد منها على وديعة صغيرة أقل كثيرا من القوة الشرائية الحقيقية للنقود. ومع أن المعدلات على المدد القصيرة تتذبذب، فإنه على المدى الطويل تكون الفائدة المدفوعة أقل كثيرا من معدل التضخم. ومن ناحية أخرى فإنه لو استُثمر مبلغ مماثل في مشروع تجاري لكانت له إمكانية النمو بشروط حقيقية.

وفي المجتمع الربوي يكون أصحاب رؤوس الأموال دائما مستعدين لإقراض النقود دون التحري عن مقدرة المقترض على السداد. ومن جانب المقترضين.. نجد قلة منهم تنظر بعين الاعتبار إلى مقدرتهم على السداد، ولا يكادون يعلمون أن الاقتراض من وحوش المرابين من أمثال شايلوك وبيوت المال والبنوك العملاقة.. هو بمثابة الاقتراض من ثمرات أعمالهم المستقبلة، ويشجع عادةً العيش في مستوى يفوق دخل المرء الفعلي. ويترتب على ذلك إسراف في الإنفاق وزيادة العجز عن السداد

والوفاء بالعقود. ومثل هذه المجتمعات تعطي للإنتاج تشجيعا غير واقعي كي يفي بالطلب على الاستهلاك.

ويستحق هذا الجانب السيء في الاقتصاد الربوي مزيدا من التفصيل والبيان. ففي مجتمع تصبح فيه مُجاراةُ "مقاييس جونس" وسواسا قهريا.. يعمل الإعلان عن آخر أنباء هذه المقاييس على تحريض هذا الوسواس المتسلط. ويعرض على الجمهور أسلوب الحياة المترفة عند الأثرياء بطريق الإعلان عن آخر الصيحات في الأثاث الفاخر والفيلات المزودة بمعدات المطابخ الحديثة والحمامات الفاخرة وما إلى ذلك.

والذين ليست لديهم المقدرة على شراء كل وسائل الترف هذه.. يجدون – طوعا أو كرها – نقودا بلاستيكية باطلة تحقق لهم رغباتهم. ومن الواضح أن ذلك يعني الشراء بما يفوق دخولهم. وحتى لو كان سداد هذه القروض بدون فائدة ربوية.. فإن ذلك مماثل لزيادة القدرة الشرائية للمرء على حساب تخفيض قدرته الشرائية في المستقبل.

لو أن رجلا يبلغ دخله ١٠٠٠ جنيه أسترليني في الشهر.. تسوَّق سلعا غالية اقتراض لها ٤٠,٠٠٠ جنيها مثلا.. فإن طاقته على السداد تتحدد بمدخراته الشهرية. فلو افترضنا أنه يستطيع الاكتفاء بإنفاق ٦٠٠ جنيه شهريا لكانت مدخراته ٤٠٠ جنيها في الشهر. وعليه إذن أن يعيش في حدود هذه الميزانية الضيقة لمدة ١٠٠ شهر كي يسدد دينا نجم عن إنفاق ٤٠,٠٠٠ جنيه بدون فائدة ربوية. فالذي فعله هو أنه اقترض مالا من مستقبله لمدة ١٠٠ شهر – أي ٨,٥ من السنوات – لينفقه في أول

هذه المدة. والميزة الوحيدة التي جناها من كل ذلك هو إشباع قلة صبره وإرضاء رغبته.. بدلا من الانتظار ثماني سنوات أو نحوها.

أمّا لو كان عليه أيضا أن يسدد ربا هذا القرض.. فإن موقفه المالي سيكون أسوأ كثيرا من المثال الذي سقناه آنفا. فإذا كان سعر الربا ١٤ % مثلا لزاد ما يستقطع من دخله في المستقبل زيادة كبيرة على المبلغ الذي اقترضه بالفعل. وهذا سوف ينقص من قدرته على السداد، ويمد في فترة السداد إلى حد كبير. وعلى مثل هذا الشخص أن يعاني في صبر لمدة تبلغ نحو عشرين عاما.. عقابا لـــه على تعجله.. ويدفع **٥٠٠** جنيه شهريا ليصل المجموع إلى **١٢٠,٠٠٠** جنيها سدادا للقرض وفائدته الربوية المركبة.

لا شك أن الخسارة محققة للمقترض وليس للمقرض.. فهذا جزء من نظام استغلالي شديد البأس يضمن – فضلا عن مقابل التضخم والخسائر المحتملة للديون – أن ينتهي الأمر بالمقرض ليحصل على مزيد من النقود في جيبه.

ثم إن موقف المقترض مع وجود التضخم سوف يزداد سوءا. لسوف تستمر قدرته الشرائية في التناقص بحيث يتعذر عليه العيش في حدود مبلغ **٦٠٠** جنيه، ولن يستطيع مواكبة هذا الحال بنجاح مع مرور الزمن. وهناك قلة من المحظوظين الذين يتلقون علاوة سنوية تعادل معدل التضخم. ثم ليزداد الموقف تفاقما في مجتمع يصبح أهله أكثر بحثا عن المتعة.. يكون من العسير عليهم أن ينتظروا لمدة طويلة في ضيق

مطبق، فرضوه على أنفسهم بعد لحظات قليلة من الإنفاق المتهور. فيلجأون إلى اقتراض مزيد من المال بتهور أشد، ويزداد الإنفاق إلى ما فوق وسائل دخلهم. وفي الواقع فإن دخل المرء لعقود قادمة يصبح رهينةً بيد البنوك والمؤسسات المالية المقرضة.. مع ازدياد مصاعب خدمة الدين والتزاماته.

ومثل هذه النظم الاقتصادية في مجموعها تتجه إلى أزمة كبيرة لا مناص منها. إنكم لا تستطيعون رهن مستقبلكم من أجل حاضركم بلا حدود قبل أن تصلوا إلى حضيض أزمة اقتصادية ناشئة عن إنفاق لا مسئول.. يرفع بعد ذلك معدلات التضخم أكثر. إن محاربة التضخم برفع أسعار الفائدة الربوية – على أمل أن يقلل ذلك من النقد المتاح للإنفاق – لا بد من أن يطلق سلسلة من الأحداث تنتهي بكساد اقتصادي.

هذه النتيجة سيئة على المستوى القومي بما فيه الكفاية، ولكن إذا أحدثت نفس العوامل كسادا في معظم أقطار العالم.. فإن ركودا عالميا يوشك أن يتهدد الجنس البشري. ومثل هذا الكساد يمهد الطريق لحروب عالمية وكوارث رهيبة.. فتأخذ عمليات الإفلاس وتصفية الأعمال في الازدياد. وتدخل الصناعة والتجارة في حالات من الفتور والركود، وتتجه معدلات البطالة المقنَّعة في الارتفاع، وتنهار تجارة العقارات. هذا الإحباطُ العام في كل المجالات يساعد ويحرض على

التشرد والحرمان والخديعة والجريمة. وعندما يحدث هذا.. فلا يفاجأ أحد بذلك، وخصوصا أبطال الرأسمالية الصامدين.

ولا ينحصر الموقف في الاقتصاد الرأسمالي في أن أفرادا يتمولون بما يفوق قدرتهم على السداد، فالواقع أن المخاطرة تجري بمستقبل الصناعة كلها في مقابل مكاسب وقتية. ففي البداية طبعا.. تستفيد الصناعة الوطنية إلى درجة كبيرة. وهذا يساعد على خفض أسعار السلع المصنوعة محليا. وانتقال النقود إلى يد الفرد لا يرفع قدرته الشرائية فحسب.. بل له تأثير أيضا على إنتاجية الصناعة الوطنية. وعلى أثر زيادة الطلب يزداد الإنتاج، ومع هذه الإنتاجية المتزايدة تنخفض الأسعار. وهذا يعطي الصناعة الوطنية هامشا تنافسيا في الأسواق العالمية. وتبدو المشاهد كلها وردية متألقة.. ثم تأتي بعدها العواقب المحظورة.

وعندما يكون المجتمع بوجه عام – بسبب العجلة والإنفاق الذي يتجاوز حدود ما لديه من وسائل – غارقا في الديون للبنوك.. فإن القدرة الشرائية لهذا المجتمع كله سوف تصل إلى نهاية مداها. وليس أمام هذه الصناعة إلا أن تبحث عن أسواق خارجية أكبر كي تبقى في ميدان المنافسة. فإذا كانت قاعدة الاقتصاد في البلد صغيرة أسرعت في الوصول إلى زقاق مسدود. وإذا كانت قاعدة الاقتصاد كبيرة طالت الفترة قبل أن يدركوا الأزمة الوشيكة.

تعالوا نرَ إلى الولايات المتحدة كيف تجري الأمور فيها. لا شك أنها بلد يتمتع بأكبر سوق محلي يدعم صناعتها.. ويعتقد بعض الاقتصاديين أنه

لو انفصلت الولايات المتحدة عن المجتمع العالمي فإن سوقها المحلي بقاعدته الواسعة يضمن لها استمرارية صناعتها. ولكن هؤلاء الاقتصاديين لا يأخذون في اعتبارهم عوامل أخرى ذات صلة بالموضوع. فعلى سبيل المثال.. لو طبقتم الحالة التي تناولناها آنفا على المسرح الأمريكي لتبين لكم أنه لا يوجد هناك استنتاج منطقي سوى الذي وصلنا إليه من قبل. إنها مسألة وقت فحسب. فمع عجز هائل في الميزانية؛ وديون غير مسددة بلغت بلايين من الدولارات.. تكون الولايات المتحدة في مجموعها قد تجاوزت الحد في الإنفاق، ويصبح الجمهور الأمريكي تحت دين ثقيل لمستقبل أيامه. ومن المحتم أن تتباطأ القدرة الشرائية للأمة و إلا أفلست بيوت الإقراض فيها. إنها فقط مسألة حجم. ولكن قوانين الطبيعة التي لا مندوحة عنها سوف تعمل عملها وتسري في كل المواقف المشابهة على حد سواء.

في حرارة الصيف سرعان ما تسخن مياه البرك والمستنقعات لتصل إلى درجة حرارة الجو.. ولكن البحيرات تحتاج إلى وقت أطول. وكذلك تصل البحار الصغيرة إلى درجة الدفء قبل الكبيرة.. ولكنها جميعا تسير بحسب القدر المحتوم. يحتاج المحيط الهادئ إلى وقت طويل كي تدفأ مياهه بحيث أنه عندما يصل إلى هذا الحال يكون الشتاء قد حلّ .بمعظم البلدان التي تطل على مياهه الهائلة.. ولهذا السبب يكون الطقس فيها أكثر دفئا عن البلدان التي تطل على محيطات أصغر.

وهكذا يكون الحال أيضا في محيطات الاقتصاد. إن فلسفة الإنفاق من الأموال المقترضة في حد ذاتها فلسفة ملتوية من أساسها.. بحيث إن توقع أي نتائج أمينة مستقيمة منها لَهُوَ ضرب من الجنون.

وهناك عامل آخر جدير بأن يوضع في بؤرة الانتباه. ذلك أنه عندما تصل الصناعة والاقتصاد القومي إلى نقطة الاختناق.. فإن البلاد الأفقر والأقل تطورا تواجه خطرا متزايدا من غبار المواقف المتفجرة في البلاد المتطورة المتقدمة.

يبدأ الأمر من جانب القادة السياسيين في البلاد الصناعية فيرون ضرورة ملحة في تصدير بضائع أكثر إلى الأسواق لحماية الصناعة من التباطؤ وللمحافظة على مستوى الحياة لجماهيرها. وعندئذ يواجهون مشكلة ذات جانبين:

١- الجمهور وقد اعتاد الرفاهية الحديثة.

٢- الصناعة — من أجل بقائها- تعمد إلى حثهم واستثارتهم بأدوات واختراعات جديدة تحقق لهم مزيدا من الرفاهية والمتعة في بيوتهم.

ولا يمكن لحكومة سياسية أن تبقى تحت ضغط الجمهور الذي لا ينفك يطالب بمستوى أعلى للمعيشة. ولا بد أن يبقى الاقتصاد طافيا بأي ثمن!

ومن الجلي أنه لا بد من أن يزداد نزيف «العالم الثالث» كي يكفل هذا الارتفاع المصطنع في مستويات المعيشة بالبلاد المتقدمة. وماذا بشأن التحدي الجديد الناجم عن إعادة تشكيل الاقتصاد الروسي ودول شرق

أوروبا؟ وماذا عن الحاجة المتنامية إلى أسواق خارجية لدى البلاد الرأسمالية الناشئة التي كانت في العالم الشيوعي فيما مضى؟ ثم ماذا بصدد الإفساد الذي يقوم به الإعلام الغربي في رغبات وطموحات الفقراء والعامة المعدمين في البلاد الاشتراكية والعالم الثالث؟ إن هذه العوامل مجتمعة بالتأكيد لن تعمل على تغيير وجه البسيطة إلى ما هو أفضل.

الربا تهديد للسلام

هذا هو فحوى التحذير القوي الذي بلّغه القرآن الكريم للبشر قبل ١٤ قرنا بشأن الدمار الشامل الذي يسوق إليه الاقتصاد الربوي الإنسانيةَ:
﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِن

كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون﴾(سورة البقرة: ٢٧٦- ٢٨١).

والإنذار بحرب من الله —كما تقول الآية- يعني أن سُنن الله تعالى في الطبيعة سوف تعاقب المجتمع الرأسمالي عندما تسوقه العوامل التي ذُكرت آنفا إلى خلل في التوازن ووقوع الحروب. إن الاضطرابات والثورات والحروب تأتي في أثر الاستغلال واغتصاب حقوق الفقراء. وقول الله تعالى ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني أن الدولة التي تترعرع على الربا لا مناص من أن تنتهي إلى الحال الذي تفزع فيه الأمم إلى السلاح ضد بعضها البعض.

إن الوقت لا يسمح لي أن أفيض في شرح هذا الجانب من الربا. وفي القرآن الكريم تأتي الآيات التي تحرم الربا دائما بعد الآيات التي تتناول موضوع الحرب.. وهذا يشير إلى العلاقة بين الربا والحرب. والذين يعرفون تاريخ الحربين العالميتين الأولى والثانية يذكرون أن الرأسمالية قامت بدور مفجع.. ليس في أنها سبّبت الحرب فقط وإنما لأنها أيضا أطالت هذه الحرب.

تحريم اكتناز الثروات

ينبذ الإسلام كافة طرق الاستغلال والجور مثل اكتناز الثروة ورأس المال والسلع والمؤن.. والتي تحرك الأسعار صعودا وتنتهي إلى تضخم عام. يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(سورة التوبة: **٣٤،٣٥**).

ومع ذلك يمنح الإسلام الحرية للأفراد كي يربحوا المال بأي وسيلة مشروعة في إطار المبادئ الإسلامية للسلوك الاقتصادي. ومن ثَم فهناك حرية وحق للأفراد كي يتملكوا ويدخلوا في مشروعات خاصة.

وعند تشكيل اقتصاد البلاد.. يتركز اهتمام معظم الحكومات على كيف يكسب الفرد في المجتمع معاشه. وتفرض الضرائب على حركة المبيعات، والأرباح التجارية والصناعية والدخل الوظيفي. وبعد إتمام ذلك لا يبقى إلا القليل من التدخل في الأمور المالية للفرد. ومجمل القول إن الاهتمام القومي محصور في جانب الدخل، ولا تهتم معظم الحكومات بكيفية إنفاق الفرد لدخله، أو ماذا يكتز منه. إذا ما أراد الفرد.. فله أن يرمي بدخله أو ثروته إلى الضياع، أو أن يحيا حياة مسرفة مبذرة.. أو يعيش في مشقة إن شاء رغما عن ثرائه.. لا دخل للحكومات بالكيفية التي ينفق بها الفرد ماله أو يستخدمه.

ومع ذلك فهذه منطقة تدخل إليها الأديان، وعن طريق النصح والتحذير والمشورة، ترشد الفرد إلى الطريقة التي يكسب بها قوت يومه، بل وتهديه إلى الكيفية التي ينفق بها أو لا ينفق بها ما كسبه.

ومعظم الأوامر المتعلقة بالإنفاق هي توجيهات أخلاقية وروحية أساسا. فمثلا يحرم الإسلام الإنفاق في شرب الخمر ولعب الميسر والانهماك الزائد في طلب مختلف المتع. ومع أن هذه الأوامر لا تهدف مباشرة إلى تشكيل ميزانية الإنفاق.. فهي نتيجة للتعاليم الأخلاقية والروحية للدين. وفي الاقتصاد الرأسمالي تعتبر مثل هذه الوصايا إغارة على الخصوصيات وتدَخُّل في حق المرء أن ينفق ماله كيف يشاء. وهذا الموقف ليس جديدا على الإنسان.

وبحسب ما جاء في القرآن الكريم وقفت الشعوب والحضارات القديمة مثل هذا الموقف بإزاء الدين.. ونجم عن ذلك مناظرة لتبرير تدخل الدين في الشؤون الشخصية للناس. وعندما حاول النبي شعيب عليه السلام أن يعلم أهل «مَدْيَن» كيف ينفقون أموالهم وما يجوز لهم وما لا يجوز لهم الإنفاق فيه.. أنّبَه قومه وقالوا:

﴿.... يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيد﴾(سورة هود: ٨٨).

أسلوب حياة بسيط

يحض الإسلام على انتهاج أسلوب بسيط للحياة، ويحرم الإسراف ويشجع الإنفاق. يقول الله تعالى:

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(سورة الإسراء: ٣٠).

.. لا تحبسن يدك تماما عن الإنفاق، ولا تمدها مدا زائدا.. حتى لا تكون محلا للوم أو فريسة للاستنـــزاف.
﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾(سورة الإسراء: ٢٧،٢٨)

نفقات الزواج

إن نمط حفلات الزواج في الأسر الغنية والفقيرة قد يكون منطقة حساسة، ويمكن أن تسبب حسرة وحرقة لدى الآباء الفقراء الذين لهم بنات في سن الزواج. يستنكر الإسلام الإنفاق المفرط في حفلات الزواج التي تعرض فيها مظاهر الأبهة والثراء والمشاهد الفخمة. والواقع أننا نلحظ منذ التاريخ المبكر للإسلام أن حفلات الزواج كانت من البساطة بحيث تبدو أحداثا باهتة في نظر الكثيرين. وبالرغم من تأثير العادات والتقاليد القادمة من المجتمعات المحيطة، وتسرُّبِ كثير من البدع والممارسات الخاطئة.. إلا أن المظاهر الرسمية تبقى مع ذلك كما هي: بسيطة، سهلة، قليلة التكاليف للغني وللفقير على حد سواء.. فيتم إعلان الزواج غالبا في المساجد وبحضور الكل جماعات وأفرادا، الغني مع الفقير سويا.. فالمسجد بيت للعبادة وليس مكانا لاستعراض الأبهة.
وفيما يتعلق بمآدب الاستقبال وغيرها تعبيرا عن البهجة والسرور.. يُحذَّر الأغنياء من أن الولائم التي لا يُدعى إليها الفقراء مذمومة في نظر

الله. ولذلك سوف تجد في مثل هذه الولائم بين أعضاء المجتمع الذين يرتدون أغلى الملابس أناسا في ملابس فقيرة.. وفي ذلك تنبيه للغني، وفرصة خاصة للفقير كي يتذوق ملذات الأغنياء وأطباق طعامهم.

قبول دعوة الفقير

وينصح الإسلام بقوة لذوي المكانة العالية في النظام الاجتماعي أن يقبلوا دعوة الفقراء إذا ما دعوهم إلى بيوتهم المتواضعة. وبالطبع، ليس الأمر إلزاميا إذا كان للغني ارتباطات ومشاغل مسبقة، ولكن كانت سُنة النبي ﷺ أن يلبي أي دعوة وإن كانت من أفقر الناس. وينظر كل الذين أحبوه سيدا مقدسا إلى هذه الوصية نظرةَ تأثر وإعجاب شديد. وإذا قُبلت كل هذه الدعوات في المجتمع المعاصر.. فقد يجد الأغنياء أنفسهم وكأنه لا شاغل لهم إلا تناول الطعام مع الفقراء. ولكن يمكن الإبقاء على روح هذه الوصية حية في المجتمع إذا هم قبلوا مثل هذه الدعوات من حين لآخر.

ولقد ذكرنا من قبل أن الخمر والميسر محرمان، وبذلك تم الخلاص من الإنفاق المسرف والاحتفال الصاخب. ولا ينطبق هذا التعليم — الذي يشجب الإسراف في النفقة ومستوى الحياة الباذخ — على حفلات العرس وحدها، بل يشمل كل مجالات النشاط الإنساني.

وجمال هذا التعليم أنه لا يُفرض بالإكراه، وإنما يُلقَّن بكلمات النصيحة والمحبة.

الاعتدال في عادات الطعام

يقول القرآن الكريم:
﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(سورة الأعراف: **٣٢**).

لا يسمح لي الوقت للإطالة في الحديث عن الحاجة إلى شن حرب ضد الجوع، ويمثل الامتناع عن تبديد الطعام سبيلا ومِرقاة إليها، ومع ذلك فسوف أشير إلى هذا الموضوع بإيجاز فيما بعد.

اقتراض المال

وفيما يتعلق باقتراض المال النقود من أجل الحاجات الأساسية للحياة.. فإن الإسلام يؤكد ويكرر أن القروض من أجل الضروريات الطارئة والحالات العاجلة تكون بلا ربا. وأمر أيضا بوضوح أنه إذا كان المدين غير قادر على سداد الدين في وقته المحدد بسبب ظروفه المعسرة.. فيجب أن يُمنح فترة سماح أطول. وعلى عشيرته الأقربين مساعدته. ويمكن استرداد الدين من ممتلكات الميت. ويمكن أيضا أن تنفق الزكاة لتخفيف الالتزامات المالية عن كاهل المدين. وإذا استطاع الغني أن يعفو عن الدّين فليفعل، فذلك أفضل عند الله تعالى. ولكن الواجب على المدين القادر أن يسدد دينه في خلال المدة المحددة، وينبغي عليه أن

يضيف إلى الديْن شيئا على سبيل الإكرام. وهذه الزيادة ليست إلزامية أو مقررة سلفا كيلا تدخل تحت معنى الربا. يقول القرآن الكريم:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(سورة البقرة: **٢٨٣، ٢٨٤**).

ومن المهم جدا تذكُّر أن هذه الآيات قد أسيء تطبيقها تماما، واستعملت بكيفية تخرج عن سياقها على يد علماء ينتمون إلى مدرسة القرون الوسطى، ويصرون على أن شهادة امرأة واحدة لا تكفي

بحسب شريعة الإسلام بزعمهم. يقولون إنه يلزم في جميع الحالات أن يكون هناك شاهدتان من النساء في مقابل رجل واحد تصلح شهادته. ولما حملوا الآيات على غير محملها فإنهم أخطأوا وأخذوا بظاهر دور شهادة الرجل والمرأة في الشريعة الإسلامية، فظنوا أنه إذا طلب القرآن رجلا واحدا شاهدا فإنه يمكن إحلال امرأتين شاهدتين محله. وإذا كان المطلوب شهادة رجلين يمكن أن يقوم مقامهما أربع نساء، وإذا كان عدد الشهود المطلوب هو أربعة رجال يجوز أن يحل محلهم ثماني نساء.

وهذا المفهوم غير واقعي ومُناف للتعاليم القرآنية لدرجة أن المرء يشتد سخطه عندما يرى موقف أهل القرون الوسطى هؤلاء من هذه المسألة القضائية الهامة. والنقاط التالية جديرة بالملاحظة حول هذه الآيات:

١- الآيات لا تطلب أبدا شهادة المرأتين كلتيهما.

٢- دور المرأة الثانية محصور في المساعدة كما تبينه الآية في وضوح.

٣- إذا رأت المرأة الثانية —وهي التي لا تقدم شهادتها- أن جانبا من الشهادة على لسان الشاهدة لا يدل على فهم تام لروح الصفقة.. فإنها تذكِّرها وتساعدها في مراجعة فهمها أو تنعش ذاكرتها.

٤- الأمر متروك تماما للمرأة الشاهدة لتوافق أو ترفض المساعدة. وتبقى شهادتها مستقلة، وكلمتها هي الأخيرة في حالة أي خلاف مع شريكتها.

وبعد هذا الاستطراد الموجز نعود إلى الموضوع الأصلي. فكتابة عقد الاتفاق بالدين، حيث يملي المدين شروط العقد في حضور شهود بيع

البضاعة.. لهي أمانة مطلقة، واستحضار الله تعالى من أجل الوفاء بتعهداته، وأداء المؤتمن أمانته بصدق.. وهي سمة أساسية للالتزامات التعاقدية في الإسلام.

ويجب ملاحظة أنه في اقتصاد يتجه الإقراض فيه إلى تجنب الربا لن يلجأ فيه المقرض إلى إغراق الاقتصاد بالديون والائتمانات بدون مبرر، ولذلك سوف تبقى القدرة الشرائية للمجتمع في حدود واقعية تتعلق بالظروف الحاضرة.

وسوف يتحول النظر تلقائيا بعيدا عن الاقتراض في المستقبل. والصناعة التي تقوم على هذا المنهاج يقدَّر لها البقاءُ متينة وقادرة على اجتياز مخاطر التقلبات الاقتصادية.

ويجب ألا تسير الثروة العامة صاعدة إلى المستوى الأعلى تجاه الأثرياء.. بل يجب أن تنساب في اتجاه المستوى الأدنى للفقراء.

ويغرس الإسلام أسلوبا للحياة يتسم بالبساطة. ومع أنه ليس شظفا إلا أنه ليس زاهيا أو مسرفا بأي حال إلى المدى الذي يثير حفيظة الفئات الفقيرة، أو يحرق قلوبهم ويوسع الشقة بين قطاعي المجتمع.

الفوارق الاقتصادية بين الطبقات

ينبغي أن يكون من المفهوم جيدا أن الطبقات لا تنشأ نتيجة تجمع الثروة في أيد قليلة، وإنما من تقسيم رأس المال بين ملاك وعمال أو بين أصحاب الأراضي والمزارعين.

وهناك ما هو أكثر من خلق مجتمع طبقي. ولا يمكن هنا أن أذكر كل العوامل وكيف تُسهم معا وبشدة في خلق الطبقات داخل المجتمع.

ودراسة المجتمع الهندي التقليدي تقدم مثالا رائعا لوجود بناء طبقي تطور عبر آلاف السنين. و لم يتأثر مسار هذا التطور بتوزيع الثروة، وإنما تأثر بالعوامل العنصرية والاجتماعية والدينية والسياسية. ويوجد هناك تاريخ طويل من الغزو والتراع الداخلي والصراع من أجل البقاء والسيطرة.. كل ذلك محفوظ في النظام الطبقي الهندي الذي قطّع المجتمع إلى طبقات عديدة.

ولقد أخذ "ماركس" هذا الحال بملحظ جاد. وفي سلسلة من الرسائل كتبها إلى نيويورك هرالد تربيون New York Herald Tribune.. اعتبر حال المجتمع في الهند مناقضا للفلسفة الاشتراكية العلمية. واستنتج من ذلك أن وجود النظام الطبقي جعل من الهند الدولة الأقل احتمالا في تحولها نحو الشيوعية.

ومن وجهة النظر الإسلامية.. فإن خلق الطبقات في المجتمع يبدأ عند إحداث الألم إذا لم يكن هناك قواعد أخلاقية تحكم الطريقة التي يتم بها إنفاق المال. تصوروا مجتمعا يعيش فيه الناس حياة بسيطة، ليس فيه إنفاق مسرف على اللباس والطعام والمسكن، والتباين في أسلوب الحياة غير ملحوظ بوضوح. ليس بالأمر المهم كم من الثروة يتجمع في أيد قليلة.. فالإنفاق هو الذي يؤلم وليس تكدس الثروة في أيد معدودة. إن الألم يبدأ عندما تُنفق الثروة أو تضيع على سُدى وباستخفاف سفيه.

إن نمط الحياة المترفة عند الأثرياء وطبيعته الملازمة له من استعراض وأبهة وفخامة.. عندما يلاحظ ذلك من الوضع الأقل ملائمة.. حيث الفقراء البائسين المكروبين الذين يناضلون من أجل المحافظة على حياتهم.. عندئذ يأخذ التفاوت في توزيع الثروات يحفر هوة فيما بين الفريقين يتعذر عبورها.

ومن ثم فإن الإسلام لا يتدخل بلا مبرر في حرية الفرد: كيف يكسب وكيف يدخر، بل على العكس، فإن الإسلام يشجع ويروج للقطاع الخاص أكثر من القطاع العام. ويضع قانونا محددا تحديدا جيدا فيما يتعلق بأسلوب الحياة.. بحيث لو اتُّبع لفظاً وروحاً لجعل الحياة في مجموعها سهلة بدرجة تنعش الجميع. ولما كان هذا الجانب من فلسفة الاقتصاد الإسلامي قد سبق بحثه آنفا.. فلا حاجة بنا للإطالة فيه أكثر من ذلك.

قانون الوراثة الإسلامي

يقوم قانون الوراثة الإسلامي بدور هام في توزيع الثروة من المتوفى إلى عياله. فتوزَّع أنصبة معروفة محددة للآباء والأزواج والأبناء والأقارب والمعارف والأصحاب. ولا يملك المرء أن يحرمهم من حقوقهم في الميراث كما قدرها الله تعالى لهم.. ما لم يكن هناك مبرر جيد تقدره المحكمة في الدولة الإسلامية وليس المرء نفسه. وفي أحسن الأحوال يستطيع المرء أن يوصي بجزء من ثروته لا يتعدى الثلث ليكون من

نصيب أفراد آخرين أو هبة للمجتمع ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دَين غيرَ مُضارٍّ وصيةً من الله والله عليم حليم﴾(سورة النساء: ١٣). وتعمل هذه التدابير عملا مؤثرا في منع تكدس الثروة في أيد قليلة.

وبحسب قانون الوراثة الإسلامي تحرُم قاعدة البكورية، أي توريث الولد البكر وحده؛ والقواعدُ التي تتضمن المساواة في توزيع العقارات؛ والحريةُ المطلقة في الوصية طبقا لهوى الموصي. فكل الثروة – ثابتة أو منقولة – توزع وتقسم في كل جيل. وفي مدى ثلاثة أو أربعة أجيال تتحول العقارات الكبيرة إلى أنصبة صغيرة بحيث لا يبقى قسم دائم بين الناس عن طريق احتكار ملكية الأرض.

تحريم الرشوة

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالبُطل وتُدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموُل الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾(سورة البقرة: **١٨٩**)

ولا أراني بحاجة إلى تفصيل هذا الجانب.. خصوصا وأنه جلي بيِّن في صورة الفساد والرشوة في بلاد العالم الثالث، وإن كنت سوف أشير إليه تحت عنوان''السلام الفردي''.

أخلاقيات التجارة

لا يخالف الإسلام الرأسمالية ولا يرفض الاشتراكية العلمية جملة واحدة، وإنما يحتفظ بما فيهما من مَعان ومواقف طيبة.

وفيما يلي بعض الأمثلة من القواعد التي وضعها الإسلام منذ **١٤** قرناً لأخلاقيات تجارية رشيدة صائبة.. اكتشفها الإنسان في العصر الحديث بالطريق الصعب:

١- تقوم العلاقات التجارية الإسلامية على الثقة والأمانة المطلقة.(راجع سورة البقرة:**٢٨٢-٢٨٤**)

٢- يمنع الإسلام استعمال المكاييل والموازين الزائفة والغش في الكيل والوزن. (راجع سورة المطففين:**٢-٤**)

٣- يحرم على التجار بيع البضاعة المعيبة أو الفاسدة أو التي لا تصلح للاستعمال. ويجب على التاجر ألا يحاول إخفاء أي عيب في شيء يعرضه للبيع (صحيح مسلم). ولو بيع شيء من ذلك دون معرفة المشتري فله الحق في إعادته إذا اكتشف العيب واسترداد ماله (صحيح البخاري)

٤- ويُنهى التاجر عن تقاضي أثمان مختلفة من المشترين، وإن كان له أن يمنح تخفيضا للسعر لأي مشتر يشاء. وله

الحرية في أن يحدد السعر الذي يراه مناسبا لسلعته (البخاري ومسلم).

٥- يمنع الإسلام المنافسة الكاذبة والاتحادات التي تخلق المنافسة الباطلة. ويحرم الإسلام رفع الأسعار في المزايدات بذكر سعر كاذب أو تقديم عرض زائف لخداع المشتري (البخاري ومسلم).

٦- وبالمثل يوصي الإسلام أن يتم الشراء والبيع في مكان مفتوح، ويفضل أن يكون في حضور الشهود، وأن يتم تنبيه المشتري عما يشتري (سورة البقرة: **٢٨٢-٢٨٤**، وصحيح مسلم).

وبالاختصار، يتبنى الإسلام سياسة لتضييق الفجوة بين الغني والفقير هكذا:

أ - يحرّم أمورا كتلك التي ذكرناها آنفا مثل الخمر والميسر وغيرها.

ب - ينهي عن تكديس الثرة وتجميعها عن طريق الربا.

جـ- يشجع المشروعات الخاصة.

د - يحث على سرعة دوران الثروة.

هـ- يتبع أسلوب النصح والتحذير والإغراء والتعليم في الدعوة إلى التصرف النبيل ليتخذ الإنسان عن طيب خاطر نمط حياة متواضعة بسيطة وديعة.. لا يبتعد كثيرا عن حياة الإنسان الفقير.

والغرض من هذا الترويض أن يجعل الإنسانَ أكثر إحساسا لمشاعر الآخرين، وأن يكبت ويقتل في نفسه دوافع الوحشية والسادية. ويشن حربا مقدسة بمعنى الكلمة في مواجهة الغرور والنفاق والسطحية والتعاظم والكبر والغطرسة. ويستدعي كل ما هو نبيل في الإنسان ويجعله حساسا لمعاناة الآخرين، ويشعر أحيانا بأن عيش الرفاهة والدعة جريمة إذا كان الآخرون يقاسون ويدبرون معيشتهم بشق الأنفس في حياة من البؤس وسوء الحال.

وبطبيعة الحال فإن أهل الثقافة العالية.. الذين يشكلون طليعة القيم الإنسانية السامية.. هم دائما أقلية ضئيلة في المجتمع، ولكن الوعي العام في هذا المجتمع نحو خير الآخرين يرتفع إلى مستوى محترم.. بحيث يصبح من المستحيل عليهم أن يظل اهتمامهم محصورا في حاجاتهم وراحتهم فحسب.. غافلين عن الحالة البائسة التي يعيش فيها القطاع الأقل حظا في هذا المجتمع. ولن يبقى شاغلهم في الحياة انطوائيا حول أنفسهم منقطعين عمن سواهم. سوف يتعلمون العيش بإدراك أوسع للحياة من حولهم. سوف يشعرون بقلق واضطراب ما لم يسهموا ماديا في تخفيف المعاناة وتحسين مستوى الحياة لدى الآخرين.

ولقد وردت خصائص مجتمع المؤمنين هذا في سياق آية تلوتها عليكم من قبل تقول: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ (سورة البقرة:٤).

الحاجات الأساسية

في الفصل السابق الخاص بالسلام الاجتماعي الاقتصادي، رأينا كيف أن الإسلام قد أحدث ثورة في مفهوم الصدقات للفقراء والمحتاجين.

وفيما يتعلق بحقوق الأفراد في الكعكة القومية.. يقدم لنا القرآن الكريم الدستور الذي نستطيع أن نحدد به مقدار الثروة التي كان ينبغي تدفقها نحو الإنسان العادي ولكنها انتقلت إلى أيدي حفنة قليلة من الرأسماليين.

يقول الله تعالى:

﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾(سورة المعارج:٢٥-٢٦)

.. تخاطب الآيات الأغنياء وتذكر بأن في ثروتهم نصيبا هو حق للمسكين الذي يسأل والذي لا يسأل.

كيف يمكن لنا الحكم بأن خللا قد حدث في ميزان المجتمع بانتقال حقوق الفقير إلى أيدي قلة من الأثرياء ؟ إن المعيار لهذا الدستور هو وجود حقوق معينة مضمونة. وعند الإسلام.. هناك أربع حاجات أساسية يجب توفيرها. يقول القرآن الكريم:

﴿إن لك ألا تجوعَ فيها ولا تَعرَى* وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ (سورة طه: ١١٩-١٢٠)

وهكذا يقرر الإسلام حدّا أدنى للحقوق الإنسانية في ميثاق ذي نقاط أربع.. يجب على الدولة أن تكفلها:

١- الطعام ٢- اللباس ٣- الماء ٤- المأوى.

وحتى في بلاد مثل بريطانيا وأمريكا.. هناك مئات الألوف من الناس لا مأوى لهم، وهناك من يفتشون في مستودعات القمامة بحثا عن فضلات من الطعام يسدون بها رمقهم. مثل هذه المشاهد القبيحة تُعرِّي الضعف الأصيل في المجتمع الرأسمالي، وتكشف ما فيه من أعراض دفينة للفتور والقصور. إن المادية في صورتها النهائية تربّي الأنانية وغلظة القلب. وتفتِّر مشاعر الإنسان نحو كروب الآخرين.

ومن الطبيعي أن توجد في بلاد العالم الثالث بسبب الفقر المدقع مشاهد أشد قبحا.. ولكن هذا المجتمع في مجموعه فقير، وتسير البلاد نفسها على نفس المبادئ الرأسمالية. ومن ثَم فليست المسألة هي كون الأغلبية السكانية من النصارى أو اليهود أو الهندوس أو المسلمين أو الملحدين.. فإن النظام أساسا يبقى رأسماليا في طبيعته. وتزدهر الجريمة وتنتعش الرذيلة في العشش الفقيرة التي هي وصمة في جبين الإنسانية ببلاد يسمونها الأمم النامية.

هناك مناطق من أفريقيا وبلاد أخرى لا يتوفر فيها ماء الشرب لقطاعات كبيرة من المجتمع، ويعتبر المرء نفسه من المحظوظين إذا استطاع الحصول على وجبة واحدة خالصة له في اليوم. ويمثل الماء مشكلة يومية. وهناك أقطار من العالم تملك كل الإمكانية والموارد لتغيير الحال في غضون سنوات قلائل دون أن تحس بضيق، ولكن هذه

البلاد لا تبالي باستخدام مواردها في تخفيف معاناة مئات من ملايين الناس في البلاد الفقيرة.

ومن وجهة النظر الإسلامية فإن هذه المسألة شديدة الأهمية. وعند الإسلام فإن مجتمع أي بلد ليس مسئولا عن معاناة شخص واحد فيه فقط ولكنه مسئول عن معاناة أي إنسان آخر في أي مجتمع؛ أعني الإنسانية كلها التي ليس لها حدود جغرافية ولا حواجز من اللون والعقيدة والسياسة. الإنسانية في مجموعها مسئولة.. والناس أيضا مسئولون أمام الله تعالى. وحيثما تحدث مجاعة أو سوء تغذية أو ويلات نتيجة لكارثة طبيعية تنزل بجماعة ما.. فمن الواجب أن تعامَل على أنها مشكلة إنسانية، وعلى المجتمعات والحكومات جميعا في العالم أن تشارك للمساعدة على التخفيف من البلوى.

من العار.. مع كل هذا التقدم في العلوم والتكنولوجيا.. ألا ينال القضاء على العطش والجوع ما يستحقه ويحتاجه من اهتمام. لابد وأن يكون هناك نظام يمكن عن طريقه توجيه الثروة البشرية في مجموعها بسرعة وكفاءة نحو تلك المناطق التي يضربها الجوع، أو التي تلعب فيها المجاعة دورا مخربا للإنسانية، أو حيث أصبح الناس محرومين مشردين.

إن على الحكومات مسئوليات قومية وعليها أيضا مسئوليات عالمية. فالتي على المستوى القومي هي الوفاء بالحاجات الأساسية لكل فرد من المجتمع، بما يكفل أن ينال طعاما كافيا وثيابا ويزود بالماء والمأوى. أما الواجب على المستوى العالمي — ولسوف نشير إليه فيما بعد مرة أخرى

– فهو المشاركة الكاملة في حشد الموارد لمواجهة التحديات الواسعة نتيجة الكوارث الطبيعية والمآسي التي تصنعها يد الإنسان، ومساعدة البلاد التي لا تستطيع أن تتعامل بنفسها مع الأزمة بالقدر المناسب. وهكذا فإن من مسئولية الحكومة أن تضع الأمور في نصابها لتعيد إلى السائلين والمحرومين من الفقراء ما هو حق لهم. وستكون الحاجات الأساسية الأربع: الطعام والكساء والماء والمسكن.. لها الأولوية على كل اعتبار آخر. وبعبارة أخرى.. لا يمكن في دولة إسلامية حقة أن يكون فيها سائل أو محروم بلا طعام أو كساء أو ماء أو مأوى.

فإذا ضمنت الحكومة هذه الحاجات الإجمالية.. تكون قد قامت بالحد الأدنى من مسئوليتها. ثم على المجتمع عموما أن يقوم بما هو أكثر من ذلك.

"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" قول ثاقب. أضف إلى ذلك الحاجة إلى ماء صحي، ولباس ملائم، وسقف فوق الرأس. ولكن هذه كلها مجتمعة لا تجعل الحياة مكتملة. سيظل الإنسان دائما يبحث عما هو أكثر من الحاجات الأساسية للحياة. ومن ثَم.. لا بد وأن يقوم المجتمع بشيء يزيل هذه الكُدرة، ويضيف لونا يبهج حياة الفقير، ويتيح له المشاركة في بعض متع الأغنياء.

ثم إنه ليس بكاف أن يقتسم السعداء في المجتمع أموالهم مع من هم أقل حظا فيه..ولكن من اللازم أيضا أن يقتسموا معهم البؤس الذي يلازم الفقر، والذي يُبتلى به عدد كبير من بني البشر. وينبغي أن يكون هناك

نظام ليمتزج الأغنياء والفقراء.. حيث تقوم القطاعات العليا من المجتمع – عن طواعية منهم – لتختلط مع المستويات الأدنى.. كي يشهدوا بأنفسهم ما هو معنى الحياة في الفقر. ويضع الإسلام وسائل عديدة تجعل مستحيلا على الطبقات المختلفة أن تتقوقع على نفسها وتنعزل في محيطها. ولقد ذكرنا من قبل بعض هذه الوسائل بإيجاز.

العبادة كوسيلة للوحدة الاقتصادية

١- بدءاً بالاعتقاد الراسخ أنه لا إله إلا الله.. توطد العبادة وحدانية الله تعالى بالنسبة إلى مخلوقاته، ومن ثم توحد بين بني البشر جميعا تحت مظلة الخالق القدير.

٢- ثم لعل صلاة الجماعة المفروضة خمس مرات في اليوم هي أشد العوامل تأثيرا في هذا الصدد. فالمفروض على الغني والفقير والكبير والصغير دون استثناء أن يؤدوا الصلوات في المساجد بقدر المستطاع.

وإذا لم يكن كل المسلمين، فجُلُّهم مسئولون عن الالتزام بهذا الأمر الديني. وقد تقل نسبة الذين يؤدون صلاة الجماعة في المساجد ببعض البلاد وتزيد في بلاد أخرى.. ولكنها ممارسة عامة يشترك فيها بدرجة أكبر أو أقل الغالبية العظمى من المسلمين.

ونظام الصلاة في نفسه رسالة عظيمة للمساواة بين بني الإنسان. فمن يصل المسجد أوّلا يجلس في المكان الذي يختاره، ولا يمكن لأي إنسان آخر مهما كانت منزلته الاجتماعية، بل ولا يستطيع أن يفكر، أن يحتل

مكانه. وفي وقت الصلاة يقف الجميع معا، كتفا إلى كتف، بلا ثغرات فيما بينهم. صاحب الملابس الأنيقة يقف إلى جواره من يرتدي أسمالا مهلهلة. وكل يوم يلتقي الضعيف العليل مع القوي السليم على قاعدة المساواة حيث تردد دائما رسالة: الله أكبر.. الله أكبر.

ورؤية البؤس الذي يعيش فيه الأعضاء رأي العين، ولقاؤهم كل يوم يترك أثرا بالغا في قلب الإنسان الذي يعيش في بحبوحة نسبية.

والرسالة إليهم سامية جلية: يجب أن تفعلوا شيئا يخفف من بلواهم ويرفع مستواهم.. و إلا أخزيتم أنفسكم أمام الله تعالى وأمام أنفسكم أيضا.

وتتسع مساحة اللقاء هذه كل صلاة جمعة عندما يجتمع المسلمون في جامع مركزي حيث يلتقي سكان المناطق الثرية مع غيرهم من سكان المناطق الفقيرة. وكذلك يتسع الاجتماع في لقائين آخرين عند الاحتفال بالعيدين. وقبل عيد الفطر ويكون هناك جمع مساهمات مالية اختيارية للتفريج عن الفقير.

٣- ورمضان - شهر الصوم الإسلامي - يسوِّي أيضا بين الغني والفقير. فيفرض على الغني تذوُّق الجوع والعطش كي يتذكر حظ الفقير الذي يغلب الجوع والعطش على طريقة حياته.

٤- ومال الزكاة ينقل إلى الفقير حقه من رأسمال الغني.

٥- ثم إن العمود الخامس لبناء الإسلام - وهو الحج - يوصف بأنه أعظم مشهد لوحدة البشر. يُسمح فيه للحاجّات بارتداء ملابس بسيطة

مخيطة، أما الحُجاج فيلبسون قطعتين من نسيج غير مخيط.. وهو رداء للغني والفقير على حد سواء.

ولكن ذلك ليس كل شيء. ففضلا عما سبق من أعمال العبادة.. هناك كثير من التدابير التي أدخِلت ونُفّذت في المجتمع الإسلامي، لتعمل عملا متواصلا في سد الفجوة بين مختلف قطاعات المجتمع، وتكفل تهوية ودفئا لجوٍّ صحي يسمح للغني أن يبقى فيه غنيا بقدر معقول.. مع تكليفه أن يهتم أيضا بأمر الفقير.

وهناك مبدأ مشابه قدّمه يسوع المسيح عليه السلام عندما قال: "إن المساكين يرثون الأرض". ومن المؤسف جدا أنه بالرغم من هذه الوصية الأخلاقية فإن الرأسمالية قد فشلت بصورة شاذة في الاهتمام بأمر الفقير والمسكين من أعضاء المجتمع.

الالتزامات العالمية

في بحث المسلك البديل لمواجهة كارثة طبيعية أو فاجعة كبيرة تصيب أي مجتمع.. (راجع الحاجات الأساسية التي ذكرت من قبل).. يصف القرآن الكريم الاختيار الصحيح مما يلي:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (البلد:١٤- ١٧)

وبعبارة أخرى: فإن الاختيار الصحيح هو كما يلي:

١- الخدمة الصادقة الحقيقية لبني الإنسان.. التي يتقبلها الله تعالى.. جاء بيانها في هذه الآيات. والذين يرزحون تحت قيد أو أسر هم أولى الناس بالمساعدة. وكل خدمة تخالف هذا المفهوم تعتبر في نظر الله تعالى بلا قيمة. وفي هذا الضوء.. فإن النظام الحديث للمعونات الذي يقدم للبلاد الأقل تقدماً معونات مالية مشروطة ومقيدة.. أمرٌ مرفوض تماما.

٢- والاختيار الثاني هو إطعام اليتيم وإن كان له وصي يتولى رعايته.

٣- والاختيار الأخير هو إطعام المسكين الذي لا حيلة له وكأنه يعض التراب.

ومع أن الخطاب بصيغة المفرد.. فإن الآية تقول: ﴿في يومٍ ذي مسغَبَةٍ﴾ ، وتصف بذلك أزمة واسعة النطاق. ومدلول كلمة "يوم" وأسلوب التعبير واضح تماما.

وبالتأمل في مضمون الآيات نجد أنها ترسم صورة جلية للكيفية التي تعامل بها الأممُ الكبيرة الغنية القويةُ الأممَ الفقيرة.. التي تكون بحاجة ماسة في أوقات الشدة والعوز. إنهم يقدمون العون ومعه الأغلال.. فيضيع الهدف وروح العون للآخرين. إن الفقراء يتحررون في الظاهر من البؤس ليقعوا في شراك بؤس آخر. إن لنظام المعونة العالمية المعاصر حبالا وقيودا، وتصفه الآيات في كلمات معدودة، وتعظ المؤمنين ألا

يستغلوا عجز الناس فيخففوا معاناة الفقراء أفرادا أو أمما وفي نفس الوقت يحرمونهم من حريتهم.

وكلمة "يتيم" مستعملة هنا بمعناها الواسع، وتنطبق على العيال أفرادا كانوا أو أمما. هذه الأمم تشبه اليتامى الذين هجرهم أقاربهم الأغنياء.. وينبغي ألا تترك بلا معونة لمجرد أن لهم أقرباء مسئولين عنهم بالدرجة الأولى.

وحال الدول البترولية الغنية مثلٌ مناسب. لو أن عددا قليلا من دول الخليج العربي تعاونت لتخفيف المعاناة الشديدة للإنسانية عموما.. لكان بوسعهم حل مشكلة الجوع والجفاف في أفريقيا.. دون أن يشعروا هُم بأي عسر من ذلك. إن تلال المال التي أودعوها في البنوك، وممتلكاتهم في بلاد الغرب.. تدر عليهم دخلا يكفي وحده لتخفيف البؤس والشقاء في أفريقيا. وعلى أي حال.. فإن الإسلام ينهاهم عن إنفاق العائد الربوي على حاجاتهم أنفسهم.

كما أن حالة البحر الخِضمّ المكتظ بالجوع والبؤس والعوز في بنغلاديش بسبب الكوارث العديدة.. لهي حالة أخرى تستحق الدراسة في هذا المقام. لقد تخلّى عنهم سائر العالم وتركهم لقدرهم. وإن كان هناك عون يُقدم لهم.. فهو في الحقيقة قطرات لا تؤثر كثيرا في تخفيف شقائهم.

ينبغي أن ينظر إلى هذه الأمم على أنهم من بين اليتامى بالمفهوم الواسع. ولو هجرها أقرباؤها وأصحابها لكان ذلك جريمة خطيرة في نظر الله جل وعلا.

وموقف الناس بصدد ويلات الأمم الفقيرة لموقف يتسم بالسذاجة، بل ويتصف بالاعوجاج إزاء الله والطبيعة، في حين أن الإنسان نفسه- وبكل تأكيد- هو الملوم على غلظة قلبه وإهماله التام. إذا ملأنا قلوب الناس بهذه الصفة الخاصة.. فيكونوا قادرين على التألم من أجل الآخرين.. لأمكن أن يتحول العالم إلى جنة.

وفي العالم خارج نطاق الإسلام يسود هذا الموقف الأناني نفسه. فإذا كان لإثيوبيا مثلا علاقة قريبة مع الاتحاد السوفيتي.. ما كان ينبغي أن تتوقف سائر الدول عن تقديم المعونة لهم متعللين بأن المسئولية تقع على الاتحاد السوفيتي بوصفه راعيا لها. وإذا كان ملايين المسلمين يموتون في السودان.. فلا يجوز تجاهل ضراءهم بحجة أن الأمم الغنية مثل السعودية وسائر البلاد العربية البترولية هم بالفعل أقرباؤها، وهم أولى بحمل مسئولية إطعامهم. وهذا هو المعنى الحقيقي للتعبير القرآني ﴿يتيماً ذا مقرَبَة﴾.

ثم إن هذه الآيات قد نبهت على ضرورة مساعدة الأفراد أو الأمم التي تقاسي من أزمة اقتصادية كي تقف على أقدامها. وهذا "المشهد" ينطبق على كثير من أقطار العالم الثالث التي ينهار اقتصادها سريعا لأن المعونة لا تأتي في الوقت المناسب أو بالقدر المناسب.

والاختيار الثالث هو ﴿أو مسكيناً ذا متربَةٍ﴾، وينطبق على الاقتصاد الذي تحول إلى تراب، وانهار النظام الاقتصادي للأمة بأجمعه. فطبقا لما جاء في القرآن الكريم.. لا يكفي إطعام الشعب في مثل هذه الأمم.. وإنما مسئولية البشر أن يتخذوا التدابير اللازمة لإعادة اقتصادها وتأهيلها لحياة مستقلة.

ومن سوء الحظ أن العلاقات التجارية المعاصرة تمثل موقفا معاكسا تماما. فإن تيار الثروة يتجه دائما نحو البلدان الأكثر غنى والأعظم تقدما، في حين تغوص اقتصاديات البلاد الفقيرة في أعماق الديون.

لست من رجال الاقتصاد، ولكني أفهم على الأقل بقدر ما يدلني على أنه من المستحيل على بلاد العالم الثالث أن تحتفظ بعلاقات تجارية ثنائية مع الدول المتقدمة.. وتمنع في نفس الوقت تدفق الثروة من عندها إلى تلك البلاد الغنية، وتضمن أيضا ميزانها التجاري.. بمعنى أن عائدات تصديرها تعادل قائمة حساب الاستيراد.

وثمة عامل آخر هام ينبغي أن نضعه نصب أعيننا.. ذلك أنه في جميع الأمم المتقدمة اقتصاديا هناك رغبة شديدة مستمرة لتحسين مستوى الحياة فيها، وتشجع الأمم الفقيرة على الاقتراض لتواكب الارتفاع المستمر في مستوى الحياة بالعالم المتقدم. إن تكنولوجيا "الضغط على الزر" تؤدي إلى حياة أيسر وأكثر راحة.. وإدمان هذه المرافق الحديثة يؤثر في النهاية تأثيرا عكسيا في قدرة الإنسان على الاحتمال. ولكن إذا أراد أهل البلاد المتقدمة أن يحتفظوا بالدماء في وجناتهم وبصحتهم

البدنية الطيبة.. فكيف يمكن أن نتوقع من هذه الأمم الغنية أن تشفي الأمم الفقيرة من مرض الأنيميا الخبيثة الذي أصاب أطرافها الحركية.. في حين أن تعطشهم لمزيد من الدماء لا يعرف حدا، ويصرون على الاستمرار في رفع مستوى حياتهم، وأن ينتقل دائما كل المال القادر على الشراء إلى اقتصادهم أنفسهم؟

هذا السباق المجنون لرفع مستويات المعيشة دون تمييز.. لا يسلب الأمم الفقيرة فرصتها للحياة فحسب، بل يسرق من الأمم الغنية أيضا راحة البال ورضا القلب. يطمِّعون المجتمع كله ويشوِّقونه ليلهث وراء حاجات مصنوعة مفتعلة.. كي يعيش كل فرد في حالة سعي وراء شيء ما، ويباري الناس في مظاهر الحياة الاجتماعية. ويمكن أن يؤدي هذا الحال إلى الحرب.

الإسلام يزجر هذا الميل بشدة، ويقدم لكم صورة لمجتمع يعيش فيه الناس في حدود إمكانياتهم.. مع شيء من الادخار ليوم عصيب، ليس على مستوى الفرد والأسرة فحسب.. وإنما على أساس قومي أيضا.

وبالنسبة للبلاد الفقيرة فإن هذا الموقف يتهددها بأخطار شديدة.. لأنه عندما تقاسي البلاد المتقدمة من تحديات المنافسة مع الاقتصادات الصاعدة الجديدة ويأخذ اقتصادهم أنفسهم يميل إلى الركود.. فإن قلوبهم تزداد غلظة في علاقاتهم مع بلاد العالم الثالث والدول الفقيرة. وهذا لا مناص منه، لأنه بطريقة أو أخرى.. سوف تسعى حكومات

الدول الغنية أن تحافظ على مستوى حياة معقول لشعوبها التي أدمنت الترف.

ولسوف تتفاقم هذه المواقف وتؤول في آخر المطاف إلى العوامل التي تخلق الحروب. إنها الحروب التي يسعى الإسلام إلى الحيلولة دون وقوعها.

(٥)

السلام السياسي

١- لا يُشجَب أي نظام سياسي شجبا باتا.

٢- الملَكية.

٣- تعريف الديموقراطية.

٤- التعريف الإسلامي للديموقراطية.

٥- عمادان أساسيان للمفهوم الإسلامي للديموقراطية.

٦- التشاور المتبادل أفضل.

٧- التشويش حول طبيعة النظام الإسلامي الحقة.

٨- المُلاّوية.

٩- الولاء المشتت بين الدولة والدين.

١٠- هل من الواجب أن يكون الدين سلطة تشريعية مطلقة؟

١١- فن الحكم في الإسلام.

١٢- العلاقات الدولية: تطبيق مبدأ العدالة المطلقة بالتساوي بين الجميع.

١٣- دور منظمة الأمم المتحدة.

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا(سورة النساء: **٥٩**)

الأمن السياسي

ينبغي أن يُفحص السلام السياسي بعناية على المستوى القومي والدولي. وفيما يتعلق بالسياسة القومية فإن المبحث الأول منها هو: أي النظم السياسية جيد للناس وأيها سيء؟ ثم نحن بحاجة إلى الكشف عمن هو المسئول عن بؤس الناس وعدم رضاهم. هل هو فشل النظم السياسية وما فيها من عيوب جذرية، أم هو شيء آخر؟ هل يلام النظام أم يقع اللوم على من يديرون النظام؟ هل يمكن للأنانية اللاأخلاقية أو الجشع أو فساد القيادة السياسية التي تصل إلى السلطة عن طريق الوسائل الديموقراطية.. هل يمكن لها أن تكون أحسن وأنفع للمجتمع من الدكتاتورية الرفيقة مثلا؟

وللإسلام كلمة نصيحة للساسة المعاصرين من أجل توطيد السلام العالمي وضمانه.. ويؤكد تأكيدا غريبا في بابه على إدخال الأخلاقيات المطلقة في كل مجال من مجالات النشاط البشري. ولا يستثني السياسة من ذلك.

لا نشجب أي نظام سياسي شجبا باتا

نقول من البداية أن الإسلام لم يذكر نظاما سياسيا بعينه على أنه النظام الوحيد الصالح من بين النظم الأخرى.

ولا ريب أن القرآن الكريم يتحدث عن نظام ديموقراطي يمكن فيه أن ينتخب الشعب حكامه، ولكنه ليس النظام الوحيد الذي يحبذه الإسلام. كما لا يمكن أن يكون لدين عالمي حق خاص في أن يختار نظاما للحكومة واحدا محددا.. دون أن ينظر بعين الاعتبار الواجب لحقيقة أنه ليس من المستطاع عمليا أن يكون نظام واحد قابلا للتطبيق في كل المناطق وكافة المجتمعات في العالم.

إن الديموقراطية لم تتطور بعد — حتى في الأمم المتقدمة من العالم- بحيث تصل إلى مرحلة من التنظيم السياسي الذي يمكن اعتباره الرؤية السياسية النهائية للديموقراطية. ومع قيام الرأسمالية وبناء جهازها البالغ القوة في البلاد الرأسمالية أصبح من غير الممكن إجراء انتخابات ديموقراطية حقيقية في أي مكان.

أضفْ إلى ذلك مشكلة الفساد المتزايدة، وخروج المافيا وجماعات الضغط الأخرى إلى الوجود.. ويمكن للمرء أن يستخلص من ذلك بأمان.. أن الديموقراطية ليست في أيد أمينة حتى في أكثر بلاد العالم ديموقراطية. فكيف إذن للديموقراطية أن تناسب بلاد العالم الثالث؟

فالقول بأن الديموقراطية الغربية يمكن أن تسود في بلاد أفريقيا أو آسيا أو أمريكا الجنوبية أو ما يسمى بالبلاد الإسلامية في العالم.. ليس إلا ادعاءً أجوف لا يساير واقع الحال.

وفيما أرى.. فإن تعاليم الإسلام لا تنبذ أي نظام سياسي في العالم، ولكن الأمر متروك لاختيار الناس، والتقاليد التاريخية المعترف بها

السائدة في أي قطر. ولا يشدد الإسلام على شكل الحكومة.. وإنما يوجه اهتماما خاصا بنوعية عطائها. فالإسلام يسع كافة أشكال الحكومة.. إقطاعية أو ملكية؛ ديموقراطية أو غيرها.. شريطة أن يمتثل نظام الحكم بالمُثُل الإسلامية في أدائه للأمانة نحو رعاياه.

الملَكية

ذكر القرآن الكريم الملَكية عدة مرات دون أن يدين هذا النظام. يقص القرآن أن أحد أنبياء بني إسرائيل كان يذكِّر قومه بطالوت:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(سورة البقرة: ٢٤٨)

كما ذكر الملكية بمعناها الواسع عندما يكون المُلك للشعب نفسه، فقال القرآن:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴾ (سورة المائدة: ٢١)

ثم إن الملَكيات التي تقوم أو تتسع عن طريق الغزو لا تتمتع بسمعة طيبة على وجه العموم. ونجد ذلك في آية قرآنية عن ملكة سبأ وهي تنصح مستشاريها:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُون﴾(سورة النمل: **٣٥**)

بالطبع يمكن أن يكون الملوك أخيارا أو أشرارا، كما يمكن أن يكون الرؤساء أو الوزراء المنتخبون أخيارا أو أشرارا كذلك. ولكن يشير القرآن الكريم إلى صنف من الملوك اصطفاهم الله تعالى.. كمثل الملك سليمان.. الذي لم يكن ملكا فحسب كما فهم بعض اليهود والنصارى، وإنما هو عند القرآن الكريم نبي كريم من أنبياء الله تعالى. وهذا يوضح أن مقام النبوة والسلطان يمكن أن يتحدا في شخص واحد، فيكون الملكُ أيضا مأمورا من الله جل وعلا.

ويذكر القرآن نوعا آخر من سلطان النبوة، والآية التالية توضح ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾(سورة النساء: **٦٠**)

ولقد انتقيت هذه الآية – لا لأعدد أنواع الملكية، وإنما لأؤكد– طبقا للقرآن الكريم – أن خيار الديموقراطية ليس بالضرورة هو دائما الخيار الصحيح. فمن المحتمل جدا أن تفشل الأغلبية المسيطرة في التعرف على الخصائص الأساسية للقيادة العظيمة في شخص ما، وتعترض على انتخابه إذا عُرض عليهم، ويعتبر تعيينه عملا دكتاتوريا بكل المقاييس السياسية، وقد يكون هذا الاختيار ضد الإرادة الشعبية، ولكنه بالتأكيد ليس ضد المصلحة الشعبية.

إن الضعف الكامن في شكل الانتخابات الديموقراطية هو أن الجماهير تضع اختيارها نتيجة انطباعات سطحية، وعلى أساس آخرِ تقدير له. وهم أيضا غير قادرين على أن يحكموا بأنفسهم على الخصائص السليمة للقيادة التي هي الأنسب لمصلحتهم في نهاية الأمر.

ويبدو من تاريخ الأقوام التي أنعم الله عليهم أنه كانت هناك أوقات تطلَّب فيها بقاؤها السياسي تدخلا سماويا. وفي مثل هذه الأوقات يختار الله تعالى بيده ملكا أو سلطانا أو قائدا. وينبغي ألا يُفهم من ذلك أن جميع الملوك والقادة من اختيار الله تعالى، أو أنهم مقدسون لهذا السبب. كان هذا المفهوم الخاطئ شائعا في النظام النصراني إبان القرون الوسطى، ولكن لا يشارك القرآن الكريم في هذا المفهوم النصراني.. الذي عبر عنه شكسبير على لسان الملك رتشارد وهو ينوح: "لا يمكن لمياه البحار الهائجة العنيفة كلها أن تغسل البلسم من ملك مُسح به".

تعريف الديموقراطية

مفهوم الديموقراطية – رغم أصلها اليوناني– تأسس على تعريف موجز وضعه إبراهام لنكولن في "جتسبرج" فقال: الديموقراطية هي حكومة الشعب، بالشعب، وللشعب. وإنها لعبارة ممتعة عفا عليها الزمن حقا، ومن النادر أن تطبق بتمامها في أي مكان من العالم.

والجزء الثالث من هذا التعريف – أي للشعب – شديد الغموض وحافل بالأخطار. فما هو هذا الذي يمكن إعلانه بثقة تامة أنه

"للشعب". وفي نظام تحكمه الأغلبية يحدث كثيرا أن يكون ما "للشعب" هو في الحقيقة للأغلبية الحاكمة ولا نصيب للأقلية المتبقية فيه.

وفي النظام الديموقراطي.. يمكن أيضا أن تُتخذ القرارات الحيوية على أساس من الأغلبية المطلقة. ولكنك إذا مضيت تشرح وتحلل الحقائق والأرقام اكتشفت أن القرار في الواقع والحقيقة قرار أقلية.. مرّروه بشكل ديموقراطي وفُرض على الأغلبية. ومن بين الاحتمالات العديدة أن يكون الحزب الحاكم قد انتخب ووصل إلى السلطة بالحصول على أغلبية ضئيلة في معظم الدوائر الانتخابية (كأن يحصل مثلا على ٥١% من الأصوات في ٥١% من الدوائر الانتخابية). ثم عندما يكون عدد الحاضرين يوم الاقتراع قليلا إلا حد ما.. فإن حصول الحزب الحاكم على تأييد الأغلبية يكون مشكوكا فيه.. وحتى لو فاز الحزب بالأغلبية المطلقة للناخبين فمن الممكن أن تحدث أمور كثيرة خلال فترة ولايته. فمثلا قد يتغير الرأي العام بحيث لا تبقى الحكومة القائمة ممثلا صادقا للأغلبية. ثم إن هناك عملية تحولٍ تدريجي تجري في قلوب الناخبين وتكشف عن نفسها عند كل تغير في الحكومة.

وإن ظلت الحكومة مرغوبة عند ناخبيها، فليس بمستبعد أن يكون عدد معتبر من أنصار الحزب الحاكم غير موافق من قبله على قرارات حاسمة معينة.. ومع ذلك يعطي للحكومة صوته بدافع الولاء الحزبي لا غير. فإذا كان الفارق بين الحزب الحاكم والمعارضة هو مسألة زيادة

عددية.. فإن ما يُدعى "قرار الأغلبية" هو في أكثر المرات "قرارا أقلية" يُفرض على الشعب.

ومما هو جدير بالملاحظة أيضا أن مفهوم ما هو خير "للشعب" يتغير من وقت لآخر. وإذا لم تُتخذ القرارات على أساس من مبادئ مطلقة.. وإنما على ما يعتبره بعضهم أنها صالحة "للشعب".. فإن ذلك قد يؤدي إلى تبدل مستمر في السياسة من حين لآخر.

ويمكن أن يكون هذا موقفاً غشاشا لرجل الشارع. ولقد كانت التجربة الشيوعية على نطاق واسع ولأكثر من نصف قرن.. قائمة على هذا الشعار نفسه: "للشعب"! كما لم تكن كل الحكومات الاشتراكية ديكتاتورية. ويجدر أيضا ملاحظة أن الخط الفاصل بين الحكومات الاشتراكية والحكومات الديموقراطية فيما يتعلق "بحكومة الشعب" خط رفيع جدا، وأحيانا لا يكون له وجود. فكيف يمكن للمرء أن يُدين كل حكومات العالم التي انتخبت في بلاد اشتراكية بأنها وصلت إلى السلطة بطريق يخالف شعار "بالشعب". بطبيعة الحال.. من الممكن في الحكومة ذات النظام الفردي الشامل أن تفرض اختيار النواب على الناخبين بطريقة لا تدع لهم إلا مجالا ضيقا في اختيار البدلاء. ومع ذلك فهناك أساليب مماثلة أخرى غاشمة يمكن اتباعها.. اللهم إلا مع استثناءات قليلة في العالم الغربي.. في بلاد لها نظام حكومي ديموقراطي.

والواقع أن الديموقراطية في معظم بلاد العالم لا تملك يدا مطلقة، ونادرا ما تكون الانتخابات حقا 'بالشعب'. فمع تزوير الانتخابات؛ وتبادل

المنافع الخاصة على حساب المصلحة العامة؛ وأساليب التخويف البوليسية؛ وغيرها من الممارسات الفاسدة.. وهنت روح الديموقراطية وجوهرها تحت تأثير الفساد.. بحيث لم يبق منها في نهاية الأمر إلا القليل.

التعريف الإسلامي للديموقراطية

عند القرآن الكريم.. للجمهور حرية الاختيار في اتخاذ أي نظام حكم يرونه مناسبا لهم.. النظام الديموقراطي أو السلطاني أو القبلي أو الفردي.. شريطة أن يكون مقبولا عند الناس على أنه تراث تقليدي لمجتمعهم.

ولكن يبدو أن النظام الديموقراطي هو المفضل والمحمود في القرآن الكريم، فينصح المسلمين أن يتخذوا لهم النظام الديموقراطي؛ وإن لم يكن على نمط مماثل تماما للأسلوب الغربي للديموقراطية.

ولا يقدم الإسلام تعريفا أجوف للديموقراطية في أي موضع من القرآن الكريم.. بل يتناول فقط المبادئ ذات الدلالة الحيوية ويترك الباقي للناس.. إن اتبعوها انتفعوا وإن ضلوا عنها هلكوا.

عمادان لمفهوم الديموقراطية في الإسلام

هناك عمادان اثنان يقوم عليهما مفهوم الديموقراطية الإسلامي، وهما:

أولا: من اللازم أن تكون عملية الانتخاب الديموقراطي مبنية على الأمانة والاستقامة. ويعلِّمك الإسلام أنك كلما أدليت بصوتك فليكن ذلك مع وعي بأن الله تعالى يراقبك من فوق.. وأنك مسئول عن قرارك أمامه عز وجل. اعطِ صوتك لمن هم أقدر الناس على الوفاء بأمانتهم القومية، والذين هم أنفسهم أهل الثقة. ويتضمن هذا التعليم ضرورة أن يستخدم صاحب الصوت الانتخابي حقه في التصويت إلا في ظروف لا يستطيع أن يتحكم فيها أو عوائق تحول دون استخدام هذا الحق.

ثانيا: يجب أن تتصرف الحكومات بحسب مبدأ العدالة المطلقة.

وطبقا لهذا العماد الثاني للديموقراطية الإسلامية فإنك عندما تتخذ قرارات فاجعلها على أساس من العدالة المطلقة. فسواء أكان الموضوع سياسيا أو دينيا، اجتماعيا أو اقتصاديا.. فلا تهاونَ ولا تساهلَ في العدالة مطلقا. وبعد تشكيل الحكومة.. ينبغي أن يبقى التصويت داخل الحزب متوجها دائما نحو العدالة. ومن ثم فلا يجوز لمصلحة حزبية أو اعتبار سياسي أن يؤثر على عملية اتخاذ القرار. وهكذا –على المدى البعيد– سيكون كل قرار قد تمَّ اتخاذه بروح "من الشعب وبالشعب وإلى الشعب" حقا.

التشاور المتبادل أفضل

ناقش القرآن الكريم جوهر الديموقراطية مناقشة واضحة للغاية. وفيما يتعلق بالنصيحة للمسلمين فإن الديموقراطية بكل تأكيد هي المفضلة على كافة أشكال الحكومة الأخرى.. علما بأن القرآن لم يحكم أبدا على الملكية أنها نظام طالح أو مخالف للدين.

ويصف القرآن المجتمع الإسلامي المثالي فيقول:

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾(سورة الشورى: ٣٧- ٤٠)

وقوله ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم﴾أي أنهم يتبادلون المشورة في أمورهم.. يتعلق بالحياة السياسية في المجتمع الإسلامي، ويبرز بوضوح أنه في المسائل الحكومية تتخذ القرارات من خلال المشورة المتبادلة، وهذه الشورى بالطبع تذكِّر المرء بالقسم الأول من تعريف الديموقراطية. أعني: حكومة الشعب. وتصبح الإرادة العامة للشعب هي الإرادة الحاكمة من خلال المشورة المتبادلة.

ويتصل القسم الثاني من تعريف الديموقراطية بعبارة "بالشعب".. وهذا قد أشير إليه بوضوح في قول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾(سورة النساء: ٥٩) .. أي ولُّوا على المسئوليات من هو أقدر وأنسب للوفاء بها. ومعنى ذلك أنكم كلما أعربتم عن إرادتكم في اختيار الحكام.. فضعوا الأمانة دائما في يد من يستحقها على الوجه الصحيح.

إن حق الشعب في اختيار حكامه مذكور في معرض الكلام. ولكنما التأكيد الحقيقي هو على الطريقة التي يجب على الفرد ممارسة هذا الحق بها. ويذكِّر المسلمين أن المسألة ليست متروكة لإرادتهم الشخصية فيمارسوها بأي طريقة يشاءون، بل هي أسمى من ذلك بكثير. إنها أمانة قومية، وليس للمرء اختيارات كثيرة في أمور الأمانات. عليك أن تؤدي الأمانة بكل استقامة وتكامل وروح الإيثار. يجب أن توضع الأمانة في يد أهلها حقا.

يستشهد كثير من علماء المسلمين بهذه الآية ليستدلوا بها فقط على أن الإسلام يقدم نظام الديموقراطية ونظريتها كما هي مفهومة في الفلسفة السياسية الغربية.. ولكن هذا لا يصح إلا من بعض الوجوه فحسب.

إن نظام الشورى المذكور في القرآن الكريم ليس به مجال للأحزاب السياسية التي في الديموقراطيات الغربية المعاصرة، ولا يبيح المناورات السياسية أسلوبا أو روحا كما تجري في البرلمانات الديموقراطية والمجالس التمثيلية المنتخبة. أما وقد ناقشنا هذا الجانب تفصيلا فلا داعي هنا للمزيد.

وجدير بالملاحظة أيضا – بالنسبة للجزء الثاني من تعريف الديموقراطية– أنه طبقا لمفهوم التشاور المتبادل.. يكون حق التصويت مِلكا للناخبين وأصحابِ الأصوات مِلكية مطلقة تقريبا دون شروط أو قيود تتعدى على هذا الحق.

وبحسب قواعد الديموقراطية المعروفة.. يجوز للمقترع أن يعطي صوته لصالح دُمية، أو يمزق بطاقته الانتخابية بدلا من أن يضعها في صندوق الاقتراع.. فلا لوم عليه ولا استهجان إذا خالف شيئا من مبادئ الديموقراطية.

ولكن بحسب التعريف القرآني.. لا يكون صاحب الصوت مالكا مطلقا لصوته.. وإنما هو وديعة عنده وهو مؤتمن عليه. وبهذه الصفة يجب عليه أن يؤدي أمانته بعدل واستقامة إلى حيث يرى أنه موضعها الصحيح. ويجب أن يكون يقظا ومدركا بأنه مسئول عن عمله أمام الله جل وعلا.

وبالنظر إلى هذا المفهوم الإسلامي.. إذا رشّح الحزب السياسي شخصا يراه عضو من الحزب غيرَ أهل للقيام بأمانته القومية.. فخير لهذا العضو أن يعتزل هذا الحزب ولا يعطي صوته لمن لا يستأهل الأمانة.

لا يجوز للولاء الحزبي أن يتدخل في هذا الاختيار.

ثم يجب أن يتم أداء الأمانة بإخلاص وحسن نية. لذلك يجب على كل ناخب أن يشارك مشاركة تامة بصوته الانتخابي في عملية الاقتراع إلا إذا لم يكن قادرا على فعل ذلك، وإن لم يفعل فقد فشل في أداء أمانته.

أما مفهوم الامتناع عن التصويت –كما يحدث في الولايات المتحدة– حيث لا يبالي نصف الناخبين بإعطاء أصواهم.. فلا مجال له في مفهوم الديموقراطية الإسلامية.

البلبلة حول طبيعة الحكومة الإسلامية الحقة

شاع بين المفكرين السياسيين المسلمين في هذا العصر الادعاء بأن الإسلام يقوم مقام الديموقراطية. وبحسب فلسفتهم السياسية.. فإن الله تعالى هو صاحب السلطان النهائي، ومن ثم فإن الملك والسيادة له وحده.

السلطان الإلهي

السلطان المطلق لله وحده. يُجمل القرآن الكريم ملكوته تعالى في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (سورة المؤمنون: ١١٧)

ولقد ذكر القرآن المجيد المبدأ الأساسي بأن حقوق السلطان جميعها لله تعالى، وهو مالك الملك وصاحب السيادة العليا. ولقد وضح القرآن هذا المبدأ بصور مختلفة، وما الآية المذكورة إلا مثالا واحدا منها.

وفي إدارة الشؤون السياسية.. يكون التعبير عن سلطان الله تعالى بطريقتين:

أ- أن تكون السيادة للشريعة كما جاءت في القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ، ومن الأحاديث الموثوق به. فهي التي تحمل التوجيهات الضرورية لسن القوانين.. ولا يجوز لحكومة ديموقراطية منتخبة أن تتدخل في التعبير عن إرادة الله تعالى.

ب-أي تشريع يخالف أو يعارض القاعدة المذكورة غير صحيح وغير ملزم شرعا.

ومما يؤسف له أنه ليس ثمة إجماع حاسم بين العلماء وطوائف المسلمين حول ما هي الشريعة. ومع هذا فإن العلماء متفقون على أن التشريع حق لله تعالى وحده، وأنه - ﷻ- قد أعرب عن إرادته في الوحي القرآني إلى رسول الله ﷺ.

وفيما يتعلق بالطريقة التي ينبغي أن تسير عليها الحكومات الإسلامية.. فإن الفكرة الشائعة هي أنه في الأمور الإدارية والأحداث والتدابير اليومية تكون الحكومة -بوصفها نائبة عن الجمهور- أداة للإعراب عن الإرادة الإلهية. ولما كانت السيادة للشعب بطريق تفويض السلطة.. فإن مثل هذا النظام يكون ديموقراطيا.

الُملاّوية

المقصود بالملاوية أنها وجهة النظر المتصلبة لدى من يُسمّون بالسلفيين.. الذين يوافقون على الميول الديموقراطية الحديثة لدى عامة المسلمين.. بشرط أن يكون الحق في الحكم على شرعية القرارات الديموقراطية

وكونها قائمة على أساس من الشريعة الإسلامية.. حقا نهائيا في يد "المُلاّ" أو الشيخ رجل الدين. وقبول هذا المطلب هو بمثابة وضع السلطة النهائية التشريعية – ليس في يد الله جل علاه – وإنما في يد هؤلاء الملات السلفيين أو مدرسة أخرى من رجال الدين. وإذا أخذتَ بعين الاعتبار السلطة المهولة التي في أيديهم، وبالنظر إلى خلفية ما بينهم أنفسهم من خلافات أساسية فيما يتعلق بفهمهم لما هو من الشرع وما هو غير الشرع.. لتبينت لك عواقب ذلك مروعة رهيبة. هناك الكثير من مدارس الفقه بين هؤلاء السلفيين، وفي داخل كل مدرسة منها.. لا تجد اتفاقا دائما على كل حكم. ثم إن موقفهم إزاء ما هي المشيئة الإلهية الفعلية كما تعرب عنها الشريعة الإسلامية لم يزل يتغير في مختلف العصور التاريخية.

وهذا يخلق مشكلة معقدة بالنسبة للعالم الإسلامي المعاصر.. وهو لا يزال يبحث عن هويته الحقيقية. وشيئا فشيئا يزداد وضوحا للمثقفين المسلمين أن نقطة الوفاق الوحيدة بين رجال الدين هي أنهم –دونما هوادة– يطالبون بفرض "الشريعة".

ولقد أثارت الثورة الإيرانية شهية المشائخ في الأقطار التي تضم أغلبية من المسلمين السنيين.. ويعتقدون أنه إذا أمكن للخوميني أن ينجح.. فكيف نفشل نحن؟ وفي هذا يكمن لحنهم الجميل: أرض الأحلام.

والجماهير مشوشة مرتبكة؛ يقال لهم: هل تفضلون كلمة الله تعالى ورسوله ﷺ أم تؤثرون رجال في مجتمع فاسق لا يتقي.. كي يقودوكم

ويكتبوا سياستكم؟ وإنه لسؤال شديد الصعوبة على الشخص العادي.. عندما يجد نفسه في حالة من الحيرة والارتباك. إن الجماهير في كثير من بلاد المسلمين يعشقون الإسلام، وهم مستعدون للموت في سبيل مشيئة الله تعالى وشرف نبيه ﷺ. ولكن هناك شيئا في هذه الصورة الإجمالية يجعلهم في حيرة واضطراب وقلق. فبالرغم من محبتهم لله تعالى ونبيه ﷺ.. إلا أن هناك ذكريات ترد على أذهانهم عن حكومات متجبرة في الماضي كانت إما تحت نفوذ "الملات" أو تستغلها "الملاوية" لمنافعهم الشخصية.

وفيما يتعلق بالساسة المسلمين.. فيبدو أنهم منقسمون وواهنو العزيمة. فمنهم من يستغل الموقف ويساند "الملات"، ويصطنعهم لنفسه. إنهم ينشدون أملا مستورا: فعندما يحين موعد الانتخابات فسيكون النجاح من نصيبهم هم كأبطال الشريعة الأشداء وليس للملات. سوف تفضل الجماهير أن تثق فيهم كحفظة على الشريعة أكثر من الملات. وسيرى الناس الحياة أيسر وأقرب إلى الحقيقة مما لو كانوا تحت سلطان متشدد من "أوصياء السماء" هؤلاء.

وأشد المتورعين من بين الساسة هم بعيدو النظر الذين يعتبرون هذه لعبة خطرة. ولكن يا للأسف! فهؤلاء يتحولون سريعا إلى أقلية. ويبدو أن السياسة أو النفاق لا تسير أبدا يدا في يد مع الصدق وخوف الضمير.. بل ولا مع أي فضيلة نبيلة أخرى. وعلى العموم فإن العقلانيين يميلون أكثر وأكثر ناحية الديموقراطية. إنهم يحبون الإسلام ولكنهم يخشون

الحكم الثيوقراطي- حكم رجال الدين. إنهم لا يرون الديموقراطية بديلا عن الإسلام، بل يعتقدون حقا وصدقا أن القرآن الكريم بنفسه يطرح الديموقراطية كفلسفة سياسية في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (سورة الشورى: ٣٩)

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين﴾ (سورة آل عمران: ١٦٠)

والنتيجة النهائية لمباراة شد الحبل هذه بين مختلف الفرق.. أن الأقطار الإسلامية الحديثة – مثل باكستان- تجد نفسها في فوضى من الارتباك والتناقضات. الناخبون متنفرون بفطرتهم من عودة الملات إلى المجالس الدستورية بأي نسبة كبيرة. ولا تكاد تصل نسبة الملات الفائزين في الانتخابات إلى خمسة أو عشرة بالمائة حتى في ذروة حُمّى الشريعة عندهم. ومع أن الساسة ألزموا أنفسهم بالقانون الإلهي في مقابل دعم الملات لهم.. إلا أنهم في وضع لا يحسدون عليه: فهم في أعماقهم على قناعة تامة بأن قبول الشريعة في الحقيقة يتناقض مع مبدأ التشريع من خلال مجلس تمثيلي ديموقراطي منتخب.

إذا كانت سلطة التشريع في يد الله تعالى، وهذا لا يستطيع مسلم إنكاره.. فإن النتيجة المنطقية لذلك هي أن علماء الدين والملات هم الذين يملكون صلاحية خاصة لفهم وتعريف قانون الشريعة. وفي هذا المشهد تكون عملية انتخاب الهيئة التشريعية عبثاً وبلا معنى. ثم إن

مهمة أعضاء البرلمان ليست مجرد التوقيع على السطور التي يمليها عليهم الملات.

إنها مأساة وأكثر.. إذا لم يحاول الساسة أو المفكرون محاولة جادة لفهم شكل أو أشكال الحكومة التي يقدمها ويعرفها القرآن الكريم حقا.

توزيع الولاء بين الدولة والدين

ليس ثمة تناقض بين كلمة الله تعالى وعمله، وليس ثمة صدام بين ولاء المرء لدولته ودين الإسلام. ولكن المسألة لا تتعلق بالإسلام وحده. هناك كثير من سلاسل الأحداث في التاريخ البشري حيث واجهت حكومات مثل هذا التساؤل.

فقد ألقت الإمبراطورية الرومانية – وعلى الخصوص أثناء القرون الثلاثة الأولى من الفترة النصرانية – الملام على النصرانية لأنها وزعت الولاء بين الإمبراطورية وبينها. وقد أدى هذا الزعم من جانب الدولة إلى اضطهاد فظيع في وحشيته ولا إنسانيته، فساموا النصارى الأوائل أشد العذاب في بيوتهم بسبب جريمة مزعومة هي الخيانة وعدم الإخلاص للإمبراطور.

وكان هذا النضال بين الكنيسة والدولة دائما عاملا هاما في تشكيل التاريخ الأوروبي. فمثلا لام نابليون بونابرت الكاثوليكية الرومانية على توزيع الولاء، وأكد على ضرورة أن يكون الولاء أولا للشعب الفرنسي وحكومة فرنسا، وأنه لن يسمح لبابا الفاتيكان أن يصرّف أمور

الكاثوليك الرومان في فرنسا، ولن يسمح لهؤلاء أن يتدخلوا في شؤون الدولة.

وفي التاريخ الحديث واجه المسلمون الأحمديون – وهم الجماعة التي أنتمي إليها – مصاعب ومشاكل خطيرة في باكستان على نفس هذا الأساس. فعندما أخذ نفوذ رجال الدين من أصحاب فكر القرون الوسطى يتزايد في باكستان تحت رعاية الجنرال ضياء الحق الذي حكم باكستان أطول حكم دكتاتوري عسكري.. أصبح الأحمديون هم الضحايا اليومية المألوفة لهذه التهمة القديمة.. تهمة انقسام الولاء. بل وقامت حكومة باكستان برئاسة الجنرال ضياء بإصدار ما يسمى بالكتاب الأبيض ضد الأحمديين.. زعم فيه أن الأحمديين لا ولاء لهم نحو الإسلام ولا نحو دولة باكستان.

لقد كانت روح الجنون نفسها تتسلط على أقوام جدد. لقد بقي الخمر كما هو ولكن الأقداح تغيرت.

ومن زمن قريب.. خلال مسألة سلمان رشدي الشنيعة، واجه المسلمون في بريطانيا وفي أجزاء كثيرة من أوروبا مشكلة مشابهة من الاتهام بأن لهم ولاءات متعددة. ومع أن حدة ذلك لم تصل إلى حد الحمّى.. ولكنها أنذرت بتخريب شديد لا ينبغي الاستهانة به.

هل يجب أن تكون سلطة التشريع خالصة للدين؟

إنها إذن ظاهرة عالمية لم تنل بحثا مستفيضا. و لم يقم الساسة أو الزعماء الدينيون باكتشاف الخط الدقيق الأزرق الذي يفصل بين الدين والدولة. وفيما يتعلق بالنصرانية فلا بد أن الموضوع قد تبين إلى الأبد عندما قال المسيح عليه السلام في جوابه التاريخي للفريسيين: "اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله". (متى ٢٢: ٢١)

هذه الكلمات القليلة غنية بالحكمة العميقة.. وقيل فيها كل ما يلزم قوله.

الدين وإدارة شؤون الدولة عجلتان في عربة المجتمع ذات العجلات الكثيرة. ولا يهم في الواقع هل هناك اثنتان أو أربعة أو ثماني عجلات ما دامت كلها في اتجاه صحيح، وتدور مدارها السليم. لن تكون هناك مسألة تعارض أو مواجهة بينها.

ويفصّل القرآن الكريم هذا الموضوع في توافق تام مع تعاليمه الربانية السابقة، فيحدد بوضوح ميدان النشاط لكل عنصر من مكونات المجتمع. ولعله يكون من التبسيط المبالغ فيه لو ظن المرء أنه ليس ثمة نقطة التقاء أو أرض مشتركة بين الدولة والدين. إنهما في الواقع يتداخلان.. ولكن ذلك بروح التعاون فيما بينهما. وليس هناك قصد الاحتكار.

فعلى سبيل المثال.. هناك قسط كبير من التربية الأخلاقية في كل دين صار جزءا لا يتجزأ من التشريع في كل دولة من العالم. قد يكون جزءا صغيرا في بعض البلاد أو أكبر نسبيا في بلاد أخرى. قد تكون العقوبات المقررة معتدلة أو شديدة.. ولكن يمكن دائما تعقب الأثر الديني في العقوبات المقررة على الجرائم التي يرفضها الدين. هناك خلافات في كثير من القوانين العلمانية، ولكن فيما يتعلق بالأقوام التي تنتمي لأديان مختلفة.. فنادرا ما يختارون المواجهة مع الحكومة القائمة بسبب هذه المسائل. وهذا ينطبق على المسلمين والنصارى.. بل وعلى كل ديانات العالم كذلك. وبالطبع، فإن الشريعة الهندوسية "مَنُوسَمَرتي" هي في خلاف تام مع النظام العلماني للحكومات السياسية في الهند.. ولكن الناس على نحو ما يعيشون في وفاق مع الدولة كما يبدو.

ولو استُصرخ القانون الديني بجدية ضد النظم السياسية السائدة في شتى البلاد لتحوّل العالم ولا ريب إلى بحر للدم. ومن حسن طالع الناس أن الحال ليس كذلك.

وفيما يتعلق بالإسلام لا ينبغي أن تكون هناك مثل هذه المشكلة.. لأن المبدأ النهائي الثابت الذي يقدمه الإسلام بهذا الصدد هو مبدأ العدل المطلق. ويبقى هذا المبدأ مركزيا وأساسيا بالنسبة لكافة أشكال الحكومات التي تدعي أنها إسلامية الروح.

وللأسف أن هذه النقطة المحورية في إدراك المفهوم الإسلامي لأصول سياسة الدولة.. لا تكاد تُفهم إلا قليلا من جانب المفكرين السياسيين

الإسلاميين. يفشلون في التمييز بين تطبيق القانون العادي الخاص بالجرائم ذات الطبيعة الدنيوية التي لا تتعلق بالدين.. وبين الجرائم التي تخص تعاليم معينة في هذا الدين. ومن ثم فإن المتبعين لهذه الديانات هم وحدهم الذين تطبق عليهم.

وهذان الصنفان غير محددين بوضوح. هناك مساحة رمادية لا بأس بها حيث تكون الجرائم ذات صلة بالدين أو الأخلاق كما تقع ضمن الجرائم ضد المعايير الإنسانية المقبولة. وعلى سبيل المثال، فإن السرقة جريمة تختلف درجات تحريمها وعقوبتها المقررة. وبالمثل، هناك موضوع جريمة القتل، وشرب الخمر، والإفساد العام.. وهي محرمة جزئيا أو كليا في كثير من الديانات. وقد شرعت بعض الأديان عقوبات معينة لهذه المخالفات.

وهنا يطرح سؤال: كيف تحلّل الدولة مثل هذه الجرائم؟ وهذا يطرح سؤالا ثانيا: هل يضع الإسلام صيغة واضحة محددة وقاطعة تتبعها الحكومة المسلمة وغير المسلمة؟ إذا تحددت الحكومة الإسلامية هكذا في الإسلام لبرزت أسئلة هامة أخرى.. منها مثلا شرعية أن تفرض أي دولة تعليما دينيا – تعتبر نفسها تحته – على كل المواطنين فيها.. بغض النظر عن انتمائهم أو عدم انتمائهم إلى هذا الدين.

إن للأديان واجبَ توجيه انتباه التشريع إلى المسائل الأخلاقية. وليس من اللازم أن يكون سن القوانين تحت سلطة التشريع الديني.

ومع وجود هذه الفرق الكثيرة والظلال العقائدية المختلفة بين فرقة وأخرى وبين دين وآخر.. فلا نتيجة لذلك سوى الارتباك الكلي والفوضى. خذوا مثلا عقوبة شرب الخمر، فمع أن ذلك ممنوع في القرآن الكريم.. فليس له عقوبة مقررة محددة في القرآن نفسه.. والاعتماد في ذلك على بعض الأحاديث التي تجد اعتراضا عليها من مختلف مدارس الفقه. ففي إقليم أو قطر معين.. تكون العقوبة على نحو ما، ولكنها في بلد آخر مختلفة تماما. قد يكون الجهل بالقانون متفشيا. وما هو في الإسلام واقع أيضا في الديانات الأخرى. قد تكون شريعة التلمود غير عملية تماما.. ويمكن أن يقال ذلك عن النصرانية أيضا.

يستطيع المؤمن بدين ما أن يمارس عقائد دينه ولو في ظل قانون علماني. ويستطيع أن يستمسك بالحقيقة دون أن يتدخل أي قانون للدولة في قدرته على قول الحق. يستطيع أن يحافظ على صلاته ويقوم بكل طقوس عبادته دونما حاجة إلى قانون ذي صفة خاصة تسنه الدولة كي تسمح له بذلك.

ويمكن النظر في هذه المسألة أيضا من زاوية أخرى تثير الاهتمام. إذا كان الإسلام يوافق على هذه النقطة بالنسبة للحكومة الإسلامية في قطر أكثر أهله من المسلمين.. فبناء على قاعدة العدل المطلق نفسها لا بد أن يسلّم الإسلام للحكومات الأخرى بحقها في أن تحكم بلادها طبقا للفرائض الدينية لدى الأكثرية فيها. ومن ثَم فإنه لا بد لباكستان من أن تسلم لجارتها الهند بحقها في تطبيق الشريعة الهندوسية على كل

مواطنيها الهنود. وإذا كان الحال هكذا.. فسيكون يوما مأساويا للغاية على أكثر من مائة مليون مسلم هندي سوف يفقدون حقهم في حياة كريمة في الهند. ثم إذا حكمت الهند بشريعة "منوسمرتي".. فلماذا يُنكر على حكومة إسرائيل الحق في أن تحكم اليهود والأمميين بشريعة التلمود؟ وإن حدث هذا.. لأصبحت الحياة تعيسة أشد التعاسة.. ليس للشعب في إسرائيل وحدهم وإنما لعدد كبير من اليهود أنفسهم.

يمكن أن يكون هناك مكان شرعي في الإسلام لمفهوم "الحكومات ذات الديانات المختلفة" في شتى البلدان إذا كان يقترح فرض الشريعة الإسلامية في البلاد ذات الأغلبية المسلمة بقوة القانون. وهذا بدوره يخلق موقفا عالميا متناقضا.. لأنه من ناحية – وباسم العدالة المطلقة – سيكون لكل دولة الحق في فرض شريعة الأغلبية على شعبها، ومن ناحية ثانية.. سيكون كل تصرف للأقليات الدينية في بلاد العالم موضوعا تحت قانون ديني صارم لدين لا تؤمن به. وهذا في حد ذاته لطمة لمفهوم العدالة المطلقة ذاتها.

لم يتصدّ لهذه المشكلة المحيرة، ولم يحاول حلها أيضا أولئك المطالبون بالشريعة الإسلامية في البلاد التي تسمى بالدول الإسلامية. وبحسب فهمي لتعاليم الإسلام ينبغي أن تساس كل الدول على نفس المبدأ من العدالة المطلقة. كل دولة على مثل هذا الحال هي دولة إسلامية.

وبالنظر إلى هذه الحجج، وبالدرجة الأولى قاعدة ﴿لا إكراه في الدين﴾ .. لا حاجة للدين أن يكون هو السلطة التشريعية الغالبة في الأمور السياسية للدولة.

أصول الحكم الإسلامي

كشفت لي دراساتي بلا أي لبس أن القرآن الكريم يتناول موضوع الحكومة دون أن يميز بين دولة إسلامية أو غير إسلامية.

فمع أن المؤمنين هم المخاطَبون في القرآن بالتعاليم الخاصة بكيفية سياسة الدولة إلا أن هذه التعاليم عامة للإنسانية كلها. يتحدث القرآن الكريم عن سياسة الحكم الصالح بما ينطبق على الهندوسية والسيخية والبوذية والكونفوشيوسية والنصرانية واليهودية والإسلام وغيرها على حد سواء.

ونجد خلاصة هذه التعاليم في الآية التي تلوها من قبل وفي آيات مماثلة منها:

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(سورة النساء: ٦٦)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(سورة النساء: ١٣٦)

وأحاديث النبي الكريم ﷺ ناصعة الوضوح في هذا الموضوع. إنه يعتبر كل حاكم وكل صاحب سلطان على غيره مسئولا مسئولية مباشرة أمام الله تعالى فيما يتعلق بالكيفية التي يتعامل بها مع رعيته أو من تحت سلطانه. وما دمنا قد وفينا هذه النقطة حقها من قبل.. فلا حاجة لمزيد من بحثها هنا.

وموضوع هذه الدراسة هو أن الإسلام يقدم حكومة مركزية محايدة تماما، تكون فيها مسائل أصول الحكم عامة ومطبقة على كافة رعايا الدولة على السواء.. ولا يسمح للاختلافات الدينية أن تلعب أي دور فيها. من المؤكد أن الإسلام يوصي المسلمين باتباع حكم القانون في كافة المسائل الدنيوية. يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(سورة النساء: ٦٠)

أما فيما يتصل بالعلاقات بين الإنسان وربه.. فهذه منطقة مقصورة على الدين، وليس للدولة أي حق للتدخل فيها. هنا تكون الحرية المطلقة للعقل والقلب في أمور العقيدة والإيمان. للإنسان حق أساسي في أن يعتقد ما يشاء.. وله أيضا كامل الاختيار في أن يعبد الله تعالى أو يسجد للأصنام بحسب ما يقتضيه له دينه الوثني.

وإذن – فطبقا للإسلام – ليس للدين حق التدخل في مجالات خاصة بالدولة، وليس للدولة أي حق للتدخل في مجالات تعتبر مشتركة بينهما

عادة. لقد تحددت وتعينت الحقوق والمسئوليات في الإسلام بوضوح تام أزال أي سبب للتصادم. وهناك آيات كثيرة تتعلق بهذا الموضوع سبق الاستشهاد بها في الفصل الخاص بالسلام الديني. ومن سوء الحظ أن هناك ميلا لدى كثير من الدول العلمانية كي تبسط مجال العلمانية أحيانا إلى ما وراء حدودها. والموقف نفسه حقيقي بالنسبة للدول الدينية أو الدول التي يسيطر عليها كبار رجال الدين سيطرة مفرطة.

ومع أن المرء لا يستطيع التعاطف مع هذه الدول التي يحكمها المتعصبون الدينيون.. ولكنه إلى حد ما يستطيع فهم وجهات نظرهم المائلة إلى أحد الشقين. ولكن عندما يلحظ المرء هذا الموقف الفج فيما يسمى بالشعوب المتقدمة ذات الأفق الواسع من البلاد العلمانية فإنه يصعب عليه التصديق. وليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يصعب تصديقه في السلوك السياسي للبشر.

إنه ما دامت السياسات ملتحمة بشدة مع المصالح القومية وتسهم في فلسفتها فلن يكون هناك شيء يسمى مبادئ الأخلاق المطلقة. وما دامت المواقف السياسية تحكمها التعصبات القومية.. ويُنبذ الحق والأمانة والعدل والاستقامة كلما تصادم مع المصلحة القومية المرجوة، وما دام تعريف الولاء للدولة باقيا هكذا.. فإن سلوك الإنسان سيبقى مريبا، مثيرا للخلاف، ودائم التناقض.

يذكر القرآن الكريم مسئوليات الحكومة والشعب. ولقد ذكرت بعض هذه المسئوليات في الفصول السابقة من المحاضرة مثل: توفير الطعام

واللباس والمأوى والحاجات الأساسية للمواطنين، ومبادئ العون فيما بين الدول، والمحاسبة للحكومة والشعب؛ والتفاعل المتبادل؛ والعدالة المطلقة، والإحساس بمشاكل الناس حتى لا يرفعوا أصواتهم مطالبين بحقوقهم.

وفي النظام الإسلامي الحقيقي للحكومة.. يكون من مسئوليتها اليقظةُ حتى لا يلجأ الناس إلى الإضرابات، والنــزاعات التجارية، والمظاهرات. والتخريب أو الشكوى طلبا لحقوقهم. فلننظر نظرة سريعة على بعض هذه المسئوليات:

يصرح القرآن الكريم قائلا:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِين﴾(سورة الأنفال: **٥٩**)

.. إذا توقعت من قوم بينك وبينهم عهد عملا من أعمال الخيانة فافسخْ هذا العهد طبقا لمبادئ العدل وبلا تحيز. فالله تعالى لا يحب الخائنين.

وعلى الحاكمين أن يتوخوا في أسلوب حكمهم عدم تشجيع الاضطراب والفوضى والمعاناة والألم.. بل يجب عليهم أن يعملوا بدأب وكفاءة كي يوطدوا السلام في كل مجالات المجتمع.

يقول ﷻ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُون﴾(سورة النمل: **٦٣**)

العلاقات الدولية

مبدأ العدالة المطلقة ينطبق على الجميع

إن الساسة ورجال الحكومة في هذا العصر بحاجة إلى التعاليم الإسلامية. إن الإسلام دين تمثل العدالة المطلقة فيه حجر الزاوية للشؤون الدولية. يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾(سورة المائدة: ٩)

إنني لا أدّعي بأني قرأت كل شيء عن الديانات الكبرى في العالم، كما أني أيضا لست جاهلا تماما بتعاليمها، ولكنني أثناء دراساتي لم أستطع العثور في كتبها على تعليم مماثل لما في هذه الآية التي تلوتها عليكم، بل إن الإشارة إلى العلاقات الدولية نادر في الديانات الأخرى. وإذا وجد مثل هذا التعليم في أي ديانة فإني أؤكد لكم أن الإسلام يتفق معها تماما بخصوصه.. لأننا في هذا التعليم نجد مفتاح السلام العالمي.

العالم كله اليوم مهموم بشأن احتمالات السلام العالمي في المستقبل. إن التغيرات التي تجري في العالم الاشتراكي لهي بالغة الأهمية وبداية عهد جديد. كما أن تحسن العلاقات بين القوى العظمى يعطي بصيصا من الرجاء. العالم اليوم في حالة ابتهاج شديد. ويبدو أن هناك إجماعا في الرأي بين الساسة القياديين على التفاؤل الشديد؛ بل وهم مغتبطون

بالنتيجة المرتقبة من هذه التغيرات الثورية ذات الشأن العظيم التي نشهدها في الوقت الراهن. ويبدو أن الغرب بصفة خاصة مفرط الثقة ويستخفه الفرح. وأصبح من الصعوبة المتزايدة على الأمريكان أن يخففوا من شدة فرحهم نحو ما يعتبرونه نصرا تاما على العالم الشيوعي، ورآه البعض نصرا للخير على الشر والحق على الباطل.

ولا يليق بالمقام أن نحلل تفصيليا الموقف السياسي الجغرافي الحالي ونتائجه. وقد أتمكن من أن أخصص بضع ساعات لهذا الموضوع في الاجتماع السنوي للجماعة الإسلامية الأحمدية القادم في بريطانيا.. وذلك في نهاية شهر يوليو من هذا العالم (**١٩٩٠**).

دور منظمة الأمم المتحدة

ينبغي ذكر مناقشة واحدة من بين مناقشات كثيرة ثارت حول التوقعات المستقبلية لسلام العالم نتيجة للأحداث القريبة. إنها تتعلق بالدور الذي سوف تلعبه منظمة الأمم المتحدة لتكون قادرة على توطيد السلام العالمي والمحافظة عليه –أي صنعه وكفالته– بطريقة أشد كثيرا في فعاليتها عما قبل.

مع انتهاء الحرب الباردة بين القوتين العظميين.. يقال إن هناك فرصة طيبة لسد الفجوة المتباعدة حتى الآن بين وجهتي نظرهما: عدد أقل من قرارات الرفض (الفيتو) في جلسات مجلس الأمن.. وعدد أكثر من

القرارات الموحدة حول كيفية حل المشاكل العالمية. ويمكن أن يقدم هذا نظرة جديدة تماما على مجلس الأمن في المستقبل.

والعقبة الوحيدة حتى الآن هي الخوف من أن تلعب الصين دور الشخص الشاذ. ولكن بالنظر إلى المشاكل الاقتصادية والسياسية شديدة التعقيد ليس من الصعب إقناع الصين بمزايا هذا الاتفاق. وتحققُ هذا الحلم أو عدم تحققه خارج نطاق موضوعنا. لو افترضنا أن مجلس الأمن والأمم المتحدة نهضا بوصفهما الأداتين الأشد قوة في التأثير على أحداث العالم واللتين تجبران الأمم الصغرى على الخضوع للإرادة العليا لأمم العالم.. فمثل هذا المشهد لم يكن متصورا قبل سقوط جدار برلين. ولكن يبقى هذا التساؤل، بل يلوح في الأفق السياسي أكبر من ذي قبل: هل ستكون الأمم المتحدة قادرة بالفعل على تحقيق السلام العالمي أم لا.. مع دورها الجديد الذي يضم مثل هذه القوى القضائية والتنفيذية بهذه النسبة الضخمة؟

أرجو المعذرة إذا بدوت في نظركم مبالغا في التشاؤم.. ولكن جوابي عن هذا السؤال هو "لا" بكل أسف. إن مسألة الحرب والسلام في هذا العالم ليست معلقة في خيط رفيع من العلاقات بين القوى العظمى فحسب.. ولكنها مسألة عميقة ومعقدة، تمتد جذورها في الفلسفات السياسية والمواقف الأخلاقية لأمم هذا العالم.

وفوق ذلك فإن التفاوت الاقتصادي واتساع الفجوة بين الموسرين والمحرومين محتوم لهما أن يقوما بدور هام في مستقبل الأحداث في العالم. وقد بحثنا بعض هذه الآثار في الفصل السابق من هذه المحاضرة.

وما لم يتم قبول مبدأ العدالة المطلقة والالتزام به تماما في العلاقات الاقتصادية بين الدول، وتُستبعد الممارسات الجائرة التي تستغل موارد الفقراء.. فلا يمارسها أحد ولا تُمَارس ضد أحد من الدول أعضاء الأمم المتحدة.. أقول ما لم يتم ذلك لا يمكن ضمان السلام أو حتى تصوره بالنسبة لأمم العالم. وما دامت علاقة الأمم المتحدة مع الدول من أعضائها غير محددة بوضوح في الوقت الحاضر فإن احتمالات السلام العالمي ستبقى في مهب الرياح.

هناك حاجة لتدبير بعض الإجراءات التي تمنع الحكومات من اتباع القسوة مع رعاياها. يجب أن تكون في يد الأمم المتحدة أداة متاحة لتحارب الظلم بحق حيثما كان. وإلى أن يتحقق ذلك فلا يسع المرء أن يحلم بسلام في هذا العالم.

والمدى الذي يمكن للأمم المتحدة أن تتدخل فيما يسمى بالشؤون الداخلية لبلد ما مسألة حساسة للغاية، ومع ذلك فهي حيوية لبلوغ السلام العالمي. ولكن في التحليل النهائي.. إذا لم تكن سياسة الأمم المتحدة محكومة بمبدأ العدالة المطلقة، وطُبقت معايير مختلفة مع كل أمة.. فإن تقوية موقف الأمم المتحدة للتدخل في شؤون دولة ما قد

يخلق مشاكل أكثر مما تجد لها حلاً. لذلك.. فإن المسألة تتطلب دراسة دقيقة هادئة منفصلة.

إن ما حدث إلى الآن هو ببساطة أن الاتحاد السوفييتي وبلاد الكتلة الشرقية قد اضطروا إلى الاعتراف بفشل الفلسفات الاشتراكية العلمية في تحسين نوعية الحياة في بلادهم. ولقد أحدث هذا تشويشا عظيما.

ما زلنا ننتظر أن ينقشع الضباب حتى نستطيع رؤية كيف ستبدو الأشياء. هل ستكون هزيمة تامة للاشتراكية العلمية يليها ارتداد مجنون نحو الرأسمالية، أم ستكون هناك تجربة جديدة باقتصاديات مختلطة؟

هل سيكون هناك انهيار تام في نظام الحكم المركزي بالحكومات الشمولية أم سوف تتحطم السيطرة الشمولية نفسها إلى قطع وتتحول إلى ما يقرب من حالة فوضى؟ أم هل سيكون هناك تحول تدريجي من السيطرة الشمولية للدولة إلى نظام وسط من الأخذ والعطاء بين الدولة والفرد بحيث أنه مع مرور الوقت تدخل الحريات الفردية باضطراد وتعود الحقوق الأساسية للإنسان؟

لا بد من انتظار نتيجة الصراع الجديد بين أفكار السيد جورباتشوف عن البروسترويكا والجلاسونست من ناحية.. وبين موقف المتشددين التقليديين في سلم المراتب الشيوعية. وبقدر علمي.. فإن أغلب المصالح في طبقات المجتمع بالاتحاد السوفييتي يتقاسمها أصحاب المناصب في الحزب والخدمة المدنية وقوات الدفاع. والسؤال الحيوي هو: ما الدور

الذي سيقوم به هؤلاء في هذه المرحلة الحرجة الوليدة من الثورة المضادة والتي شرعت تأخذ لها شكلا دون سفك دماء؟

هذا بالإضافة إلى مسائل أخرى مشابهة تحتاج إلى جواب قبل أن يتمكن المرء بطريقة معقولة تصور وقع هذه التغيرات على احتمالات السلام العالمي.

إن مجرد المهادنة بين القوتين العظميين في حد ذاته لا يأتي بأي رجاء في السلام، بل إنه على العكس يستثير كثيرا من أشباح الأخطار الكامنة لبلاد العالم الثالث على وجه الخصوص. الواقع أن انعدام الثقة السائدة بين القوتين العظميين وما بينهما من تحاسد، هو الذي كفل للأمم الضعيفة نوعا من الظل. وكانت مقدرة هذه الأمم الضعيفة على نقل تحالفها من الغرب إلى الشرق أو بالعكس ما أعطاها قسطا صغيرا من المقدرة على المناورة والمساومة مع تلكما القوتين. فما هو الأمل الذي بقي الآن لهذه الأمم الضعيفة لتحيا باحترام كأمم مستقلة في المستقبل؟

ينتقل الفكر إلى منظمة الأمم المتحدة في هذه المرحلة.. كقلعة للسلام، وشعلة الأمل الوحيدة لإقامة نظام عالمي جديد. أو على الأقل يتمنى المرء لو كان الحال كذلك. ومع هذا.. فإن النظرة الفاحصة القريبة تبرز صورة خيالية تماما من ذلك.. إنها صورة عدوانية بل تهديدية.

وفي ظل توازن القوى الناشئ حديثا.. ألن تكون الأمم المتحدة من الناحية العملية تحت حكم قوة عظمى واحدة لا غير؟ وهذا لا يتيح

للأمم الصغرى الضعيفة أي فرصة للفرار من القدر المحتوم.. إنه قدر الطرائد.

لقد أثبتت الأمم المتحدة الحالية مرة بعد مرة أنها منظمة قوية لا تعمل للعدالة.. بل للأهداف السياسية للأمة التي هي أقدر على الضغط نحو رأي معين (القادرة على تكوين لوبي)، ولم يلعب مفهوم الحق والباطل أي دور أبدا في عملية اتخاذ القرار في الأمم المتحدة.. لا في الماضي القريب.. ولا تستطيع في الوضع الجديد أن تقوم بدور ذي معنى في المستقبل. إن السياسة والدبلوماسية تمتد جذورها عميقة متمكنة في تربة السياسة العصرية بما لا يدع أي مجال للعدالة المطلقة كي تمد جذورها وتأخذ فرصتها العادلة للحياة. إنها حقيقة صعبة ومُرة، ولا يمكن لمن يحترم الحق إنكارها، فهذه المؤسسة العظيمة القوية قد انحطت وتحولت إلى ساحة للنشاط الدبلوماسي، وبذل الضغوط لرأي معين (لوبي)، والعلاقات السرية، وصراع القوى.. يجري كل ذلك فيها باسم السلام العالمي.

وما يحتاجه العالم إذن – طبقا للقرآن الكريم – هو هيئة تتخذ لنفسها مهمة إرساء العدالة. فمن دون العدالة المطلقة لا يمكن للعقل تصور سلام. يمكن للمرء أن يشن الحروب احتجاجا باسم السلام، ويخنق الضمير ثم يخرج عن الجماعة بزعم أنه يقر السلام. ولكن كل ما يستطيع المرء أن يحققه بذلك هو الهلاك وليس السلام.

وا أسفاه، ما أَقَلَّ من يفهمون الفرق بين الهلاك والسلام من بين الساسة العظام في هذا العالم .

يولد الهلاك من الجور والطغيان والاضطهاد على يد الأقوياء.. أما السلام فهو طفل العدالة. يتحدث القرآن المجيد كثيرا عن السلام.. ولكنه يقرنه دائما بالعدالة. وطالما ورد ذكر السلام على أنه مشروط بتعميم العدل.

وفي أي موقف تتفجر حالة الحرب وأعمال العدوان بين فردين أو جماعتين من المسلمين يعرض القرآن الكريم هذا المنهج:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون﴾ (سورة الحجرات: ١٠-١١)

و لم يرد في هذا التوجيه القرآني ذكر غير المسلمين لسبب واضح.. فهم لا يتوقع منهم التسليم لتعاليم القرآن. ومع ذلك فإن الآيات الكريمة تقدم نموذجا رائعا كي يأخذ به العالم أجمع.

وبينما تتجه عيون العالم نحو الأمم المتحدة ومجلس الأمن على أمل أن تتخذا موقفا أكثر فاعلية، ودورا أوسع وأكثر معنى في حل التزاعات العالمية، وتجعلا من العالم مقاما أكثر أمنا وسلاما.. فإنه ليس في سجلات الأمم المتحدة إلا النـــزر اليسير مما يشجع على التفكير في

هذه الأمنية. إن ساحة عالمية لتكتلات المصالح والدسائس، وللنشاط الدبلوماسي المكثف الرامي إلى تشكيل جماعات ضغط، لمحاولات التسيد والسيطرة على الخصوم بأي وسيلة ممكنة، حيث لا يجد التورع فيها دورا يقوم به، ولا يسمح للضمير بالدخول إليها.. يمكن بالطبع أن تدعى هذه الساحة "بيت الأمم" وإن كان بيتا للصراع واختلال النظام. ولكن إذا سمي مثل هذا البيت "بيت الأمم المتحدة" لكان ذلك من المهازل العجيبة. إذا كان هذا هو مفهوم التوحد، فإني من جهتي أُفَضِّل أن أخاطر بالعيش في جمع من الأمم غير المتحدة، وتكون مجتمعة على الحق والعدل. إن إرادة حشد القوى لتحطيم الأقران واستمرار صوت الانشقاق لمسألة على أكبر قدر من الأهمية، وينبغي على كل أمة أن تصرف همها إليها وتحلها. ويتساءل المرء بإحساس عميق من الأسف: إلى متى تبقى الأمم من أعضاء هذه المنظمة الموقرة تغلق عيونها وترفض فتح عقولها إلى الأخطار الكامنة في هذا الأسلوب الذي تدار به شؤون الأمم؟

إن سلام العالم محفوف بالخطر إذ هو معلق بخيط ضعيف من الأمل في أن تسود العدالة وتأخذ مجراها.

(٦)
سلام الفرد

١- سلام الفرد مع نفسه.

٢- التنافس في الخيرات.

٣- المحبة بين الأهل والأقارب.

٤- خدمة الغير.

٥- ابتغاء مرضاة الله تعالى.

٦- الوعي الدائم بسائر بني البشر.

٧- مجال أوسع للرعاية النابعة من الحب.

٨- الغرض من خلق الإنسان.

٩- لا سلام بدون الله تعالى.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ (سورة الرعد: **٢٩**)

سلام المرء مع نفسه

وفي النهاية.. أخيرا وليس آخرا.. اسمحوا لي أن أؤكد على أن نوعية عضو المجتمع وموقفه يقومان بأعظم الأدوار شأنا في خلق مجتمع مسالم أو مختل في نظامه.

لقد تناولنا حتى الآن الصروح الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يسعى الإسلام إلى تشييدها. وفيما يتعلق بنوعية اللبنات المطلوبة لتكون مادة البناء.. فإن الإسلام يؤكد على مناقب المرء وخلقه.

وهذا الموضوع يمتد طولا وعرضا في القرآن الكريم. وفيما يلي نسوق السمات الرئيسية التي أرى أن الإسلام يسعى لغرسها في كل عضو من المجتمع.

التسابق في الخيرات

طبقا لتعليم الإسلام.. فإن الرغبات والطموحات تنشط وتكبح في ضوء الهداية السماوية بحيث بتحقق كمال الاتزان. وبدون هذا التوازن يكون تحقق السلام الاجتماعي ضربا من المحال. ويشجع الإسلام تلك الرغبات والطموحات المستقلة عن الحالة المالية والتي هي قاسم مشترك بين الأفراد من كل المستويات بأقل تكلفة أو بدون تكلفة.

الطموح إلى الارتقاء فوق عامة الناس والتطلع إلى التميز شيء فطري، ولكن لو تُركت هذه الرغبة الطبيعية في الامتياز والتفوق دون تنظيم وكبح لتحولت إلى مفسدة. فمن الممكن مثلا أن تعمل الغيرة والتصرفات الغادرة على تسميم روح المنافسة الحرة إلى درجة أن يقاسي المجتمع ككل بدلا من أن ينتفع من هذه المنافسة.

إن الاتجاه إلى تعاطي العقاقير المنشطة في سباقات الألعاب ليس إلا مثالا صغيرا. ولكن المنافسة في الصناعة والتجارة على المستوى المحلي والعالمي تقدم لنا أمثلة غاية في القبح لغياب اللعب الشريف في هذه المجالات.

وتختلف أنواع التعامل المعوج في بلاد العالم الثالث عن مثيلاتها في البلاد المتقدمة. ففي العالم الثالث نجد أن الفساد والانحراف وخيانة الأمانة والخداع والغش ما هي إلا وسائل قليلة تستعمل بحرية تامة لتحقيق مكاسب اقتصادية سريعة. لذلك كانت الحاجة ماسة في جميع مجالات النشاط الإنساني إلى تربية دينية وأخلاقية. وافتقاد هذه التربية يسوق إلى عواقب وخيمة.

ويزودنا الإسلام بتعاليم مفصلة تغطي كافة مجالات السلوك التنافسي. وللأسف أن البلاد الإسلامية نفسها.. التي تسمع منها كثيرا عن 'الأسْلَمة' والسّلفية الإسلامية.. نادرا ما تجد فيها محاولة جادة لأسلمة الصناعة والتجارة والعلاقات الاقتصادية.. وإنها لمأساة من الدرجة الأولى حقا.

يقدم لنا القرآن الكريم في الآية التالية جوهر التعاليم الإسلامية في هذا المجال:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾(سورة البقرة: **١٤٩**)

.. لكل إنسان هدف يسعى إليه ويسيطر عليه. والله تعالى يحدد هذا الهدف لكم: فهلا تسابقتم فيما بينكم في الخيرات؟

جُمعت بطريقة إعجازية وحفظت هذه العبارة القصيرة حكمة لا حدود لها. إنها تمثل مبدأ هاديا يشمل كافة صنوف المنافسات وفي كل المجالات. يجب أن تكون الخيرية فوق كل شيء.. ويجب أن تَبقى الهدفَ النهائي.. يجب أن يكون الخير الغرض من كل تنافس. كل لعب غير شريف وكل تصرف دنيء ممنوع بتاتا بضربة واحدة. ولو سمح الوقت لاستطردنا بتفصيل أطول، وسقنا من تعاليم الإسلام أمثلة أكثر.. وأوضحنا كيف تبقى المنافسة سليمة نقية صحيحة. نادرا ما يدرك الناس أن السلام الحقيقي للنفس والقلب يكمن في إدراك المرء لخيريته وليس في إنجاز عمل بارع يؤديه بوسائل شريرة دنيئة. مثل هؤلاء الأفراد لا يكونون أبدا في سلام.. لا مع مجتمعهم ولا مع أنفسهم. وأمام المراقب العابر.. يمثلون واجهة مصطنعة من الإنجازات العظيمة والعاقبة المُرضية، وما كل ذلك إلا نصر أجوف لا حقيقة له.

أخبرني صديق لمليونير باكستاني قصة عجيبة غاية في الإبلاس. قال إنه أثنى على صديقه ذات مرة لإنجازاته العظيمة ونجاحاته. وبدلا من أن

يُسر المليونير لذلك أجاب جوابا مدهشا: حل أزرار قميصه وحرك يده كأنما يريد تمزيق صدره بأظافره كأنها مخالب حيوان، ثم صاح: تباً لهذا النجاح، لو استطعت أن أخرِج صدري وأنظُر ما فيه.. ليس فيه إلا نار متأججة.

هناك من يعترف بهذه الحقيقة الصعبة، والبعض لا يعترف بها. لا يسع أحدا أن يهزم الطبيعة البشرية. يمكن للمرء أن ينجح في تكديس ثروة مالية ضخمة، وأن ينال كل وسائل الترف والراحة في الحياة.. ولكن لا نكران لحقيقة أن القليل من هؤلاء الأثرياء –لو كان فيهم أحد– سعيد وراض حقا. إن حالهم كما يصفه القرآن الكريم:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾(سورة الهمزة)

إن القناعة الحقة الخالصة لا تزال تفلت من المرء ما لم يشبع في فطرته الإنسانية تلك الرغبة الشديدة ليفعل خيرا، ويكون خيرا، وأن يحيا حياة نبيلة.

المحبة بين الأهل والأقارب

تحت عنوان السلام الاجتماعي ناقشنا موضوع تشجيع الإسلام لعلاقات المحبة بين الأهل والأصحاب لبناء نظام أسري قوي الترابط.

والمراد هنا أن نبرز الحاجة إلى تحسين نوعية الفرد الذي يلعب دورا في المجتمع يشبه دور اللبنة في البناء. فدون تحسين نوعية اللبنة لا يمكن تحسين نوعية البناء.

خدمة الغير

يؤكد الإسلام على أفضلية الاستمتاع بإسداء الخدمات للآخرين على تلقيها منهم. ونجد هذه الرسالة في قول الله تعالى:
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه﴾ (سورة آل عمران: ١١١)
وهذا يشير إلى أن المسلم لا ينال أفضلية على غيره من فراغ وعشوائية. فإن مجرد انتساب المرء للإسلام لا يعني تلقائيا أنه أفضل من الآخرين.. بل إن على المسلم أن يكتسب هذا اللقب عن طريق خدمة الآخرين كي يجري فيض النعم منه إلى الغير. وقد فسر النبي ﷺ كلمة "خير" بأنها تعني "أفضل والأفضل" فيما رواه الشيخان: البخاري ومسلم عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي الكريم ﷺ قال: "اليد العليا خير من اليد السفلى".. اليد العليا تعطي وتنفق، واليد السفلى تسأل وتأخذ.
ويحظى هذا الجانب بتأكيد شديد في القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ حتى إن بعض صحابته أرسوا معايير جديدة سامية في هذا المجال من

مجالات التفوق والامتياز البشري. لقد سعوا سعيا جادا في خدمة الناس، ومع ذلك كانوا يترددون في قبول أو التماس المعروف منهم.

"يروي عوف بن مالك الأشجعي: كنا سبعة أو ثمانية أو تسعة مع النبي ﷺ.. وقال ذات مرة: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا قد بايعناه من زمن قريب، فقلنا: لقد بايعناك يا رسول الله. فكرر النبي ﷺ سؤاله فقلنا: أي عهد هذا الذي نعاهدك يا رسول الله؟ قال: 'أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا الله ولا تسألوا أحدا معروفا'. فكان إذا سقط سوط أحدهم وهو على بعيره لم يسأل أحدا أن يناوله إياه". صحيح مسلم.

وهذا التأكيد على الخدمة ليس موقفا جافا خشنا، بل هو محاولة لترقية موقف الإنسان، وليغرس فيه ذوقا إلى قيم الحنكة والمهارة. فإذا ما تهذب الذوق أمكن تدريب المرء على الاستمتاع بخدمة الآخرين أكثر من استمتاعه بتلقي المعروف والخدمات منهم.

خدمة الخلق نصف الإيمان.

ويبدو أن هذا المبدأ الأخلاقي في الإسلام –مبدأ عمل الخير– هو في حد ذاته الجزاء للمرء على فعله. إنه ليس مجرد قول.. بل هو العمل والممارسة.

ابتغاء مرضاة الله

لا يتوقف الإسلام عند غرس القيم السامية في سلوك الإنسان.. بل إنه يخلق في أتباعه الوعي بأن رضا الله تعالى عما يقوم به المرء من خير هو كل ما يهتم به وما ينبغي أن يهتم به. وهذا التأكيد يستبعد حافز التباهي والزهو بصالح الأعمال طلبا لإعجاب المشاهدين. إنه ليكفي المؤمن الصادق –بل ويزيد– أن كل أفعاله طيبة وسيئة معروفة لدى ربه العليم. ويتحدث القرآن الكريم عن هذا فيقول:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾(سورة الزلزلة: ٥– ٩)

وينبغي معرفة أن هذه خطوة هامة في اتجاه إصلاح المجتمع الإنساني. إنه العلاج المؤثر الوحيد للإنسان من غروره ودافع الزهو والتباهي. وفي تعريف واسع للبر ذكر النبي ﷺ هذه الأفعال بوصفها تنال الثواب من الله جل وعلا:

"على كل إنسان صدقة... إماطة الأذى عن الطريق صدقة."(رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة)

"إذا غرس مسلم شجرة فكل ما أكل منها صدقة." (رواه مسلم عن جابر)

"اتقوا النار ولو بشق تمرة....." (رواه البخاري عن عدي بن حاتم)

"على المؤمن أن يعمل بيده ويتصدق.. فإن لم يستطع فليُعِنْ المحتاج.. فليأمر بالمعروف.. فلينه عن الشر فهو صدقة." (رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري)
بل إن اللقمة تضعها في فم زوجتك تكسبك مرضاة الله.

الوعي الدائم بسائر بني البشر

يرعى الإسلام رقة الشعور والإحساس بآلام ومعاناة الآخرين. ولقد بحثنا هذا الجانب في الفصل الخاص بالسلام الاجتماعي الاقتصادي والسلام السياسي. ولا حاجة إلى مزيد من البيان هنا.

مجال أوسع للرعاية والمحبة

يوسع الإسلام على المرء المجال والمقدرة على المحبة.. ولا يقتصر هذا على الأخوة في الإنسانية، بل يمتد ليظل كل خلق الله تعالى.
ولما كان الإسلام يدّعي بأنه آخر دين نزل به وحي السماء.. فإنه يخاطب البشر جميعا ولا يخص فريقا منهم.. لا بد من أن يتوقع المرء أن النبي ﷺ يتصف بكونه نورا ورحمة لعالم البشر. ولكن يندهش المرء عندما يقرأ في القرآن الكريم وصف النبي ﷺ بكونه:
﴿رَحْمَةً للعَالَمِيْنْ﴾(سورة الأنبياء: ١٠٨)

والعالَم في اللغة العربية تعني الخلق كله.. والعالمين جمع عالم. فهو رحمة لكل العوالم.

وقد لا يقتنع المتشكك في الدين بهذا اللقب العالي.. ولكن التدبر العميق في علاقة مقام النبوة العالمية – الذي يتبوأه النبي الأكرم ولا ريب – يمكن أن يكشف للمرء عن الحكمة في وصفه ﴿رحمة للعالمين﴾.

الغرض من خلق الإنسان

بحسب المفهوم القرآني للخلق.. فإن الفلسفة القائلة بأن الخلق هو العالم المادي وحده لا يخدم إلا هدفا واحدا: هو أنه عملية باطلة لا معنى لها –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا–. من هذا الذي يعلم أو يشارك مع الخالق في علمه بما هو كائن ومخلوق؟ إن مثل هذه المشاركة في علم الله تعالى لا تقل عن الخلق.

الغرض من الخلق ليس هدفا بسيطا. إنه يتطلب بحثا خاص منفردا.. وهذا خارج مجال محاضرة اليوم. إنما يمكن تبسيط الجزء الذي يتصل بالموضوع في القول بأن "الهدف النهائي من الخلق هو إيجاد كائن واع من أعلى درجة يستطيع باختياره، فضلا عن أن يستسلم لأسمى كمالات الحسن الإلهي كما تنعكس مباشرة من خلقه.. أن يقود أيضا زملاءه من الدرجة العليا في الخلق — أي الإنسان – نحو الهدف النهائي من الخلق، أو على الأقل.. يتيح ذلك لمن يرغب منهم اتباعه".

ومن الناحية النظرية: لو نحَّيْتَ الغرض الغائي للخلق جانبا للحظة.. فسترى أن علة الوجود والحفاظة على الكون سوف تنهار.

ولنضرب مثلا بسيطا لذلك: إن الغرض من غرس شتلة ورعايتها وريّها وتشذيبها والمحافظة عليها حتى تصير شجرة فاكهة.. هو الثمرة نفسها. إذا لم يكن هناك ثمرة فاكهة ما كانت هناك شجرة. إن كل الجهد المبذول في الغرس والرعاية والمحافظة على شجرة الفاكهة.. بدون مفهوم الثمرة كغرض نهائي.. كل ذلك يكون سدى ولا معنى له. وبهذه الكيفية –تكون شجرة الفاكهة– بجذرها وساقها وفروعها وأوراقها وبراعمها في الحقيقة مدينة لوجودها للثمرة، وكانت هذه الأجزاء في الزمن السابق مدينة للغرض النهائي من الشجرة. إن فضل الهدف هو الذي يخلق وسائط الخلق نفسها.

وعلى ضوء العلاقة بين الهدف الأعلى من الخلق وبين سائر الكون.. إذا درس المرء تعاليم الإسلام لأدهشه إدراكُ أن الإسلام يحيط بالعلاقات بين الإنسان وربه، وبين الله والإنسان.. ويحيط أيضا بالعلاقات بين الإنسان وما حوله من عالم الحيوان وعالم الجماد.

كل ما هو موجود يصبح مقدسا.. ليس بسبب أفضليته على الإنسان.. وإنما لأن الله الخالق قد ذرأه خصيصا من أجل الإنسان بطريق مباشر أو غير مباشر. لم يبق أي شيء بعدُ في هذا الكون بلا معنى أو نائيا أو منفصلا. إن أبعد النجوم يكتسب معنى ومكانا في خطة خلق الإنسان.

وهذا ما يتحدث عنه القرآن من زوايا شتى نسوق فيما يلي أمثلة قليلة منها:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا...﴾(سورة الشمس: ٢- ١١)

..فالشمس وضوءها، والقمر حينما يأتي من بعدها، والنهار حينما يكشف بهاءه، والليل حينما يستره، والسماء والغرض من بنائها، والأرض والهدف من بسطها، والنفس وكمال تقديرها فكشف لها الحق والباطل من كل شيء.. كل ذلك شاهد ودليل على أن من طهر نفسه أفلح ومن أفسدها خاب.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(سورة الجاثية: ١٤)

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(سورة النحل: ١٣)

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾(سورة لقمان: ٢١)

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (سورة التين: ٥)

وهناك آيات أخرى كثيرة بل وسور قرآنية صغيرة.. مخصصة تماما لهذا الموضوع وتوضح أن الإنسان عالم صغير.. يناله أثر من كل أشكال الخلق. فأبعد النجوم يسهم في هذا الكون البشري الدقيق. ولكن هذه العلاقة ليست علاقة خادم مع سيده، ولكنها علاقة سيد بخادمه. فالسادة لا يركعون ولا يسجدون لمن هم في خدمتهم. الإنسان يقف شامخا كسيد لهذا الكون.. وعبدا فقط لخالق الكون.. الواحد الأحد.

لكَمْ تختلف هذه الفلسفة عن كثير من الديانات الأخرى.. التي تُعلم الإنسان عبادة الأوثان.. بل وترعى هذه العبادة في أشكال عديدة. ففي فلسفتها نجد القمر والنجوم، والشمس والبحار، والأشجار والأمطار، والبرق والرعد.. بل والحيوانات كالأبقار والثعابين والطيور.. تعلو فوق مرتبة الإنسان؛ ويتعلم الإنسان أن يعبدها كآلهة.. بسبب تفوقها وتميزها عنه في بعض النواحي. وموجز القول: لقد وضعت هذه الديانات الإنسانَ في أحط درجة بالنسبة للأشياء، وجعلته ذليلا مهينا إزاء كل شيء.. مع أن كل الأشياء مخلوقة لخدمته فحسب.

وفي المفهوم الإسلامي لترتيب الأشياء - نقول إذا جاز القول- بأن الإنسان سيد كل المخلوقات. ومن ثم يقف الإنسان أمام أعظم مسئولية أمام خالقه.. لأن الإنسان هو الأكثر انتفاعا بخلق الله تعالى الذي سخر كل شيء لخدمته.

وبعبارة أخرى.. يتحرر الإنسان من كل استرقاق.. وذلك عندما يقبل عبودية واحدة: عبودية خالقه. الإنسان تجسيد ورمز للشعور والوعي

في الكون كله.. فعندما يركع أو يسجد أمام خالقه.. تركع وتسجد في شخصه كل العوالم. وإذا عاد إلى خالقه.. عاد معه الكون كله إلى خالقه.

هذا الإدراك النهائي، وصياغة حياة الإنسان لهذا الهدف – هو في عرف الإسلام– السلام النهائي.

كثيرا ما يردد المسلمون هذه العبارة.. التي تجمع هذه الفلسفة في كلمات قلائل:

﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّــا إِلَيْهِ رَاجِعون﴾(سورة البقرة: **١٥٧**)

قليل هم من يفهمون معنى (راجعون) بالمدلول الروحاني وليس المادي. إنها ليست تقريرا عن حقيقة واقعة.. بل هي تذكرة بالغرض من خلق الإنسان. فكما أن سمك "السالمون" لا يهدأ باله ولا يستقر قراره حتى يصل إلى موضع منشئه.. كذلك لا يجد قلب الإنسان سلامه دون أن يعود روحانيا إلى مصدر خلقه. هذا هو معنى قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾ (سورة الرعد: **٢٩**)

الله هو السلام، ومنه السلام، ولا سلامَ إلاّ به

لا يمكن للإنسان أن يعيش بسلام مع نفسه، ولا ينال سلاما في المجتمع من غير هذا الدستور. ولا يمكن أن يفلح دستور آخر. إن حب الله وحده هو الذي يستطيع أن يولّد في الإنسان احتراما صادقا نحو خالقه.

وكلما ارتقى المخلوق في مرتبته كلما ازداد اقترابا من خالقه، وتَقوّى الارتباط بين المخلوق والخالق.

ويشْرع الإنسان في احترام الأناس الآخرين لغرض أسمى وأكرم.. أعني بسبب احترامه والامتنان الذي ينبغي لخالقه يبدأ الإنسان في احترام الجنس البشري. ويمكن للمرء حينئذ القول بأن الأصل هو حب الله تعالى الذي تحول إلى حب لخلقه. ومن الناحية النظرية لو "نحيت" الله جل وعلا من المشهد للحظة واحدة.. لاكتسبت العلاقات البشرية فجأة منظورا مختلفا تماما.

إن الفراغ الناشئ عن غيبة الله من الفؤاد.. تملؤه على الفور أنانية الإنسان. إنها لفلسفة غارقة في السذاجة والجهل تلك التي تدّعي بأن الإنسان يستطيع الحياة بدون الله. إن ما يحرزه الملحد في النهاية ليس موت إله واحد فحسب، بل إنه يخلق آلافا مؤلفة من الآلهة. كل كائن مدرك موجود يكتسب فجأة دور إله في نفسه. وبذلك ينمو ويقوى الغرور والأنانية والانهماك التام في طلب الأهداف الخاصة.

والمجتمعات التي تكون لبناتها من مثل هؤلاء الأشخاص تظل دائما مجتمعات أنانية ذاتية الاتجاه، لا يرون أي منطق أو معنى للإحسان إلى الآخرين إلا بسبب باعث خفي، ولا يبقى لهم ملاذ خارجي يُرجع إليه.. في صورة إله رحمان.. هو الرابط الوحيد والملتقى لكل صنوف الخلق.

هذه هي فلسفة الإسلام الأصيلة. بدون الرجوع لله تعالى.. لا يمكن للمرء أن ينال السلام؛ وبدون هذا السلام لا يمكن بناء السلام في المجتمع. ويصبح الفشل محتما على كل جهود البشر من أجل خلق سلام من تلك البواعث المستترة.. وتذهب جميعا سدى.

إذا غاب الله غاب السلام.. هذه هي الحكمة البالغة.

شكرا لكم